

محمد الفاضل ابن عاشور

الدار التونسية للنشر



محمد الفاضل ابن عاشور

الدار التونسية للنشر

نسخة ممتازة
52
عدد

بسم الله الرحمن الرحيم

اسهاما فى الحفل الاربعينى الذى يقام بالمسرح البلدى يوم 29 ماى 1970 لذكرى فقيد الوطن : علم الفكر الاسلامى الحديث سماحة الاستاذ العلامة محمد الفاضل ابن عاشور مفتى الجمهورية وعميد الكلية الزيتونية للشريعة واصول الدين ، تقوم الدار التونسية للنشر التى منيت بفقده وعدمت بموته موجها خبيرا وقيما على التراث نافذ النظر دقيق الحس ، باصدار كتاب « **تراجم الاعلام** » له .

وهو عبارة عن جملة مقالات نشرها فى حياته ، عثرنا منها بالثريا على خمس عشرة ترجمة وبالمجلة الزيتونية على تسع تراجم وبالفكر على ترجمة واحدة ، وبقيت لنا ثلاث تراجم بل اربع كتبها بخط يده الكريمة ولم يقدر لها النشر ، فجمعنا كل هذه المقالات من مصادرها مهيئين بذلك صورة للحياة الفكرية والعلمية فى عصرنا الحاضر ، ومرتبين للاعلام المترجم لها بحسب سنى وفاتها لا بحسب

ترتيب ظهور ترجماتها . وقد اخترنا ، إبقاء على النفس الواحد والمنهج المفرد ، أن لا نترجم للفقيد، فوضعنا بين يدى هذه المقالات الكلمة التى ترجم بها لنفسه فى الحديث الذى أجرته معه مجلة الندوة .

والله يتغمد الفقيد بالرحمة والرضوان وينفع برأيه ونظره وعلمه وادبه .

الدار التونسية للنشر

مع الرّاحل الكريم

فضيلة الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور



مع الراحل الكريم فضيلة الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور

ـ عرفت منابر المشرق والمغرب نفسكم الخطابى الممتاز ، فهل كانت الخطابة اول ما اتجهتم اليه فى نشاطكم الادبى ؟ وما هى العوامل التى كونت فيكم هذه الضلاعة ؟ ومتى كان ذلك ؟

ـ لا أشعر ، ولم أشعر ابدا ، فأن فى نفسا خطابيا ممتازا ، كما تدعون ، والحق اننى لا ادرى بالضبط ، كيف اتجهت الى الخطابة ولا كيف تكونت للناس فى نظرة القبول التى شرفت بها ٠

ومن الغريب ، اننى نشأت بعيدا عن الصلات الاجتماعية منفصلا عن كل بيئة خارجة عن الاسرة والبيت ٠ فتلقيت فى الطفولة ، التعليم القرآنى فى البيت مفردا ، ليس لى رفيق ٠ ولم ادخل المكتب الابتدائى ولم اعرف من الاطفال غير ابناء الاقارب ولم تكن لى هواية من هوايات الاطفال ، فكانت اوقاتى كلها موزعة بين :

1) اتصالات بسيدى الوالد ومحادثات فكهة معه ، كانت

تترقى فى مستواها العقلى والادبى ، على حسب تقدم سنى واتساع معرفتى ·

2) مطالعات فى الكتب ، ابتدأت من مطالعة الاخبار والحكايات فى كتب الدراسة الابتدائية ، التى كنت اقرآ فيها بشغف فى الليل ، عندما آوى الى فراشى قبل النوم : « التمرين العباسى » و « الطريقة المبتكرة » وغيرهما ، ثم ترقت الى كتب ابتدائية فى السيرة النبوية والتاريخ والاخلاق ،مثل كتب الشيخ مصطفى الغلايينى والشيخ محيى الدين الخياط والشيخ عبد القادر المغربى حتى انتهت الى مهمات كتب التاريخ والادب ، مثل « رقم الحلل » و « ديوان الحماسة » و « مقدمة ابن خلدون » و « رحلة ابن بطوطة » و « الاغانى » · وكم كنت اهتز فرحا عندما يكتب لى سيدى الوالد قائمة فى اسماء كتب، ينتقيها مما يعلن عنه فى الصحف ويرسل بى الى المرحوم السيد محمد الامين الكتبى لشرائها ·

3) تتبع الاحاديث التى تجرى بين والدى وجدى وعمى والذين يزورونهم فيسمرون معهم بين محاورات العلم ومجادلات السياسة ونكت الادب والمفاكهة ·

4) تنظيم اجتماعات وحفلات ، لصغار اهل الدار من

الاخوات والاتباع تحاكى ما اشاهد فى الخارج او ما أقرأ فى الصحف او ما أسمع الحديث عنه ، مع كثير من التصرف الخيالى ، واكون انا فى تلك الحفلات صاحب الابتكار ومتولى التنظيم والقائم بدور الخطابة واحيانا ألقى فيها ما ازعمه قصائد ٠

وفى الحادية عشرة من عمرى عندما نشطت الحياة المسرحية بالبلاد كونا شبه مسرح،واصبحنا نخرج روايات تمثيلية نستعد لاخراجها باقوى استعداد ممكن ، فكونا ثروة من الازياء وادوات الزينة ومثلنا رواية « صلاح الدين الايوبى » و « القائد المغربى » ٠ ثم صرت اكتب ـ ان صح التعبير ـ روايات مستمدة من المحيط الذى يتصل بنا يكون بطلها غالبا مولانا الملك المقدس سيدى محمد الناصر واشخاصها من آل بيته ورجال بلاطه ٠

وانى لأعتبر ان الذى كون فى الميل الى الخطابة هو ان اتصالى بالحياة فى عامة اشكالها انما كان من الناحية النظرية التصويرية ، فاصبحت الصورة الذهنية وقالبها التعبيرى هى الاصل الوجودى لكل حقيقة من حقائق الحياة ، واصبح الوجود الخارجى عندى مظهرا تطبيقيا للحقائق الذهنية لا اصلا لها ٠

ـ هل لقراء « الندوة » ان يظفروا منكم ببسطة عن حياتكم الفردية وتكونكم العلمي ؟

ـ ولدت يوم ثاني شوال سنة 1327 الموافق 16 اكتوبر سنة 1909 ، ولقيت والدتي في وضعي اشد ما تلقى امراة من عسر الولادة ولم يكن عاش لها ذكر قبلي . وكان جدي والد والدي هو الذي سماني « محمد الفاضل » ، ونشأت في ظل العناية المتوافرة من والدتي ووالدتها ووالدها ووالدي ووالده ووالدته والجدة الكبرى جدة والدي ووالدتي معا لانهما ابنا خالة ومن العمين اللذين كانا للوالد بمنزلة الاخوين والابنين ومن الخالين اللذين كان حنوهما على الوالدة شديدا ومن العمات . ومع ذلك فان استقامة الوالد على لينه كانت دائما تبعدني عن الشعور بانني « ولد مدلل » وتسير بي في طريق الجد ، حتى صرت اخجل من معاملات الامتياز ، التي تحوطني من اهل البيت كلهم ولاسيما الجدة الكبرى رحمها الله .

وابتدأت القراءة وانا ابن ست سنين فتعلمت الهجاء بكتب مصرية ثم ابتدات حفظ القرآن العظيم وفي العام الثالث ابتدأت احفظ مع القرآن المتون فحفظت الآجرومية والمرشد المعين والرسالة والالفية والعاصمية

وفى السنة العاشرة من عمرى أعدت حفظ القرآن سلكة ثانية وابدأت تعلم اللغة الفرنسية على معلمين خصوصيين فى ساعات معينة بالمنزل .

وفي سنة 1340/1922 ابتدات قراءة دروس في مبادىء القراآت والتوحيد والفقه والنحو بمسجد سيدى ابى حديد المجاور بيتنا بتونس بنهج الباشا . وفى آخر السنة اجتزت امتحان الدخول للتعليم الزيتونى فقبلت فى السنة الثانية وتعاطيت الدروس بجامع الزيتونة الاعظم، ولم يكن له يومئذ فروع واستمررت على الدروس الخاصة باللغة الفرنسية .

واختزلت سنة اخرى من برنامج التعليم فتقدمت لامتحان التطويع سنة 1347/1928 ونجحت . ومن ابتداء السنة الدراسية الموالية اقبلت على مزاولة الدراسات العليا بالجامعة الزيتونية وانخرطت فى سلك طلبة المدرسة العليا للغة والآداب العربية بسوق العطارين وانتسبت الى كلية الآداب بجامعة الجزائر سنة 1931 ، ثم نجحت فى المناظرة سنة 1932 فسميت مدرسا .

ــ ما مدى مساهمة الجيل الذى نشأتم فيه فى الحركات الاجتماعية وما هو نصيبكم فيها ؟ وهل تعتقدون ان لها حظا فى تكوينكم ؟

ـ كان خروجى من الصبا الى الشباب مقترنا بانبعاث الحركة الوطنية ونشاط الصحافة والحركات الاجتماعية والادبية . فكنت اتتبع تلك الحركات باهتمام واتعرف تفاصيلها ورجالها ، ومع ذلك لم اتصل مباشرة باىحركة منها اذ كان نطاق تنقلى بين الجامع والبيت ونظام اوقاتى مضيقا عليهما جدا بمراقبة سيدى الوالد فلم ابدآ اتصالاتى المباشرة بالصحف والجمعيات الا بعد نهاية دراستى الثانوية سنة 1928 . ومن يومئذ انغمست فى العمل بالجمعية الخيرية وقدماء الصادقية ولجان الحفلات بالمرسى والمنظمات والنوادى التى انشأتها انا وثلة من اخوانى الطلبة ، ثم كان الاستاذ المرحوم عبد الرحمان الكعاك هو الذى ربطنى بالخلدونية فدخلت فى مجسلها الادارى سنة 1931 وابتدات ، بتوجيهه رحمه الله ، المحاضرة على منبر الخلدونية وكان موضوع محاضرتى الاولى « القاضى الفاضل » .

ـ تكاد الحركات الاجتماعية تكون وليدة الوعى العالمى الحديث فهل كان انبعاثها فى جيلكم بتونس عن صلة مباشرة بالعالم الخارجى ؟ . وهل كان للترحل عندكم ـ بصفة خاصة ـ من يد فى توجيهكم نحو المساهمة فيها ، او فى تكوينكم الشخصى على العموم ؟

ـ اهم ما كان يؤثر في الحركة الاجتماعية بتونس في عهد شبابي هو نهضة الامم الاسلامية نهضة شعبية بعد سقوط الخلافة العثمانية لتحقيق آمال الخلاص اعتمادا على الكفاح الشعبي ، واعتضاد بمبادىء الحرية والحقوق الدولية التي تأصلت قواعدها بعد الحرب العظمى. وكان للحركة الاشتراكية بفرنسا وعموم البلاد الاروبية صلة بالنهضة الاجتماعية بتونس .

وقد رحلت اول مرة الى فرنسا سنة 1926 وكان لتلك الرحلة اثر قوي في نفسي بتوجيهها الى تطلب نواحي العظمة والسيادة لوطننا على نحو ما بهرني من فرنسا .

ـ لا نشك في ان هذه الرحلة ليست الرحلة الوحيدة التي قمتم بها . فالندوة وقراؤها يعلمون ان لكم غيرها من رحلات عالمية وثقافية فما هي ؟ وهل غيرت من نظر الوفود المشاركة فيها الى تونس والمغرب العربي ؟

ـ اذا كنتم تعنون رحلتي الى مصر العزيزة في الشتاء الماضي فانها حقيقة لم تكن اولى رحلاتي ، فقد رحلت كثيرا وزرت اكثر من مرة الحرمين الشريفين والقطر الجزائري الشقيق ومصر وسوريا ولبنان وفرنسا وايطاليا وسويسرا ، وزرت مرة واحدة المغرب الاقصى وليبيا

وتركيا والمانيا والنمسا واليونان ويوغسلافياو بلغاريا. واشتركت فى مؤتمرات علمية وربطت صلات اعتز بها مع كثير من رجال الفكر والعلم والادب ، وكنت دائما أشعر بان نظرة الامم الى تونس نظرة اعتناء وثقة ، وان معاملة الذين اتصلت بهم اياى كانت، كلها كرم وحسن ظن .

كنت متتبعا لاعمال المجمع العظيم منذ تكونه سنة 1934 ومعتزا على الخصوص باشتراك اثنين من احب الناس الى فيه هما الاستاذان الجليلان محمد الخضر حسين وحسن حسنى عبد الوهاب وباشتراك سيدى الوالد فى بحوثه واعماله بالمراسلة منذ عشر سنين ، وقد قطع المجمع فى ماضى حياته اعمالا عادت بالفائدة الجمة على حياة اللغة العربية ، واهم ذلك الابحاث الاصلية لطرائق تجديد اللغة وتوسعها ، مثل ابحاث الاشتقاق والقياس والنقل والتوليد والتعريب والاستشهاد التى صدر فيها المجمع عن قواعد منهجية ، كان الفضل فى وضعها وتدعيمها لثلة من اعضائه الراحلين مثل المرحومين الشيخ حسين والى والشيخ احمد الاسكندرى والشيخ عبد القادر المغربى والاستاذ محمد كرد على والاستاذ على الجارم والاب انستاس الكرملى ، والباقين منهم مثل الشيخ الخضر حسين والدكتور منصور فهمى

والشيخ ابراهيم حمروش . ثم ان العمل الذى اضطلع به المجمع هو ما فرعه عن تطبيق تلك الاصول من تدقيق فى وضع المصطلحات العلمية لمختلف فنون الاكتشاف الحديث فجاءت اوضاعا متينة مبنية على مراعاة المعانى الاصلية للمفردات المعرب عنها بمعرفة عظماء الاختصاصيين وعلى مراعاة الانسجام مع مناهج الاصطلاح العلمى العربى القديم ، وعلى اعتبار سلامة الاصول العربية بناء على القواعد المتسعة التى أقرها المجمع . وان المجموعة الهائلة من المفردات التى تشتمل عليها المجلدات الثمانية التى صدرت من مجلة المجمع لثروة طائلة لنهضة الفكر العربى وضمان لتعرب العلم الحديث .

وان اهم الاقتراحات التى انوى التقدم بها الى المجمع ترجع الى البحث عن وسائل تعليم النحو بطريقة تضمن تطهير العربية من اللحن .

ـ بدأتم حياتكم العامة بالتدريس وكللتموها بالقضاء . فأى الميدانين كان عندكم اعلق بالنفس ؟

ـ على شعورى العميق بشرف العمل القضائى وشرف الانتساب الى سلسلة الماضين من قضاة الاسلام بافريقية والانتساب الى تلك الاسرة الشريفة الموقرة من المعاصرين

فانى لا انكر ان الميدان التدريسى هو اعلق الميدانيــن بالنفــس ٠

ـ لقد تهنا ٠٠٠ فان توجهنا الى تتبع هذه الجوانــب العديدة فى حياتكم الحافلة آنسانا جانبا يراه عارفوكم من اهم جوانبكم الخطابة والمحاضرة ٠ انكم اشتهرتم بالمحاضرة والخطابة وفى الناس من يميل الى احداهما ٠ فهل تجدون هذا الميل ؟ والى ايتهما ؟

ـ حقا انى اجد ايثارا لاحد الجانبين على الآخر وانى الى المحاضرة اشد ميلا منى الى الخطابة ٠

ـ يعلم متتبعو نشاطكم الادبى ان ما ينشر لكم من آثار هو فى الغالب مما خطبتموه او حاضرتم به ، فهل لكــم ان تحدثوا قراء « الندوة » عن انتاجكم القلمى الصرف؟

ـ اذا استثينت المقالات التى نشرت لى فى المجــلات العلمية والادبية فانى لا اجد انتاجا قلميا صرفا احدثكم عنه وان استغراق الدروس والاشغال لأوقاتى هو اعظم حائل دون ذلك ٠ وبعد فمتى ثبت راس المال حتى يسأل عن انتاجــه ٠

ـ يردد الشباب في بعض مجامعه نشيدين ينسبان لكم ويدلان على جانب آخر فيكم ، هو جانب شاعريتكم فمتى عالجتم الشعر وهلا نفحتم قراءنا بشيء منه ؟

ـ كنت نظمت اناشيد للشبان ابان الازمة القومية الكبرى سنة 1939 محافظة على روح التوجيه الوطني للشباب وتحديا لمحاولة حكومة فيشي الفرنسية فرض اناشيد اجنبية على طلبة المدارس • ولست مدعيا انى شاعر وان تعاطيت نظم مقاطيع وقصائد كنت راضيا عن بعضها احيانا •

ـ ذكرنا حديثكم عن الرحلات برحلتكم الى مؤتمر المستشرقين بصحبة سماحة شيخ الجماعة والدكم الامام و «الندوة» تريد اغتنام هذه الفرصة لتستفيد منكم معلومات عن مشاركته في هذا المؤتمر •

ـ رحلت للاشتراك في مؤتمر المستشرقين عدة مرات، ولكن المرة التي كنت فيها بصحبة سيدي الوالد هي التي انعقد فيها المؤتمر باستانبول في سبتمبر 1951 وكانت رحلة أعدها من غرر الحياة وكان سيدي الوالد كما كنت انا مدعوا الى حضور المؤتمر بصفة شخصية ، فلم نكن نمثل دولة ولا منظمة وكانت لنا فرصة لزيارة تلك المدينة التي

هى ام التاريخ الحديث ومجلى الجمال الساحر ومجمع الكنوز النفيسة من المعالم والآثار والكتب • وكان معنا هناك للغرض نفسه سيدى الاستاذ حسن حسنى عبد الوهاب وقد اقتصر هو وسيدى الوالد على تتبع نتائج البحوث فى الجلسات العامة واشتركت انا فى اعمال اللجان والقيت محاضرة باللغة الفرنسية عن كتاب غريب لابن حزم فى الاحتجاج لمذهبه ضد القياس،وقد ترجمتها بعد الى العربية ونشرت فى عددين من المجلة الزيتونية سنة 1952 *

(*) الندوة : السنة الرابعة ، عدد 8 ، نوفمبر 1950 .

الجنرال حسين



الجنـــرال حســـين

فى ركن من أركان المدينة قصر مشيد بين جامع القصر ونهج الاندلس • وهو القصر الذى يشغله اليوم القائد الاعلى للجيش الفرنسى بتونس ، ويسمى على ألسنــــة التونسيين بدار العشرة ، و على ألسنة الفرنسيين اشتهر بدار حسين • و فى هذين الاسمين ما يثير موضوع الليلة عن شخصية تونسية سامية ويبين أهم حيثياتها فى تاريخ هذه البلاد • وتلك هى شخصية الوزير حسين المشهور فى عصره بالاضافة الى دار العشرة •

وأصله مملوك من المماليك الجراكسة ودخل تونس فى دولة الامير مصطفى باشا و تربــى فى كنــف الامــراء الحسينيين بقصر باردو واعتنوا بتعليمه كــما كانــوا يعتنون بمماليكهم • و ظهرت عليه بوادر النجابة و دلائل الاقبال • فلما ولى المشير الاول أحمد باشــــا و أسس بباردو المدرسة العسكرية المعروفة بمدرسة المهندسيــن كان مترجمنا من الشبان المختارين للانخراط فى سلكها • وهنالك تلقى الفنون العسكرية نظرا و تطبيقا و أقبل

بكليته على العلوم العربية التى كان استاذه فيها شاعر تونس الاكبر و عالمها الجليل الشيخ محمود قابادو ، و على اللغات الاوروبية و العلوم الرياضية والطبيعية التى تلقاها عن الاساتذة الاوروباويين لتلك المدرسة الذين كانوا من اعظم رجال العلم والحربية شأنا فى أرض الممالك الاوروبية . فكانت ثقافته راقية وكان من الناحية العلمية والمقدرة القلمية فى العربية و اللغات الاجنبية يفوق جميع رجال الدولة المماليك فى عصره ، حتى الوزير خير الدين . و من المدرسة ترقى فى سلك الجندية و الادارة . و كان من المنظور اليهم بعين الاعتبار كامل دولة المشير احمد باشا حتى لم تأت دولة المشير الثانى محمد باشا إلا و مترجمنا أمير آلاى . فاهتم به المشير الثانى اهتمامه بقرنائه من أبناء مدرسة المهندسين كالوزير خير الدين والوزير رستم . و فى صدر دولة المشير الثانى تقلد المترجم رتبة أمير اللواء واعتبر فى مصاف الرجال العظام فى دولته الذين دارت عليهم دواليب الاعمال العامة فى تنظيم الدولة ، و سن قانون عهد الامان . فقد كان من هيئة تدوين آراء اللجنة المؤلفة لتفصيل قوانين عهد الامان فى ربيع الاول سنة 1274 . وفى المحرم من سنة 1275 تأسس المجلس البلدى بحاضرة تونس لترقية المدينة من الناحية

الصحية و الاقتصادية و المعمارية . و تركب هذا المجلس من عشرة أعضاء ، و جعل المترجم رئيسا عليهم . فكان أول رئيس للمجلس البلدى فى تاريخ تونس . و قد اظهر همة فى العمل لا تعرف الكلل ، و انقطع لخدمة المصالح البلدية بجد وأمانة اطبق عليهما جميع مؤرخى عصره ، حتى استطاع بهمته و أمانته أن يخطو بالحاضرة التونسية خطوة ذات اعتبار قربت بها من منازل المدن المعتبرة ، وأقامت فسطاس العدل و النظام على الاسواق وموارد المعاش حتى سهل تموين البلاد وظهر بها الرخاء .

وقد خصصت الدولة لأعمال هذا المجلس قصرا من أملاكها كان يعرف بدار اسماعيل كاهية نسبة لأحد قدماء مماليك البيت الحسينى ، فمن ذلك اليوم عرف المحل بدار العشرة لكونه مقر المجلس البلدى الذى كان عدد أعضائه عشرة . و بذلك المحل اصبحت اقامة رئيس المجلس البلدى مقيلا و مبيتا بعد أن كان يسكن ثكنات الجنود ببادرو . فأقام فيه على حياة تقشف عسكرى لم يكن يشغل لنفسه من القصر الا بيتا صغيرا ، اذ لم يكن متزوجا . فلذلك اشتهر ذلك القصر باسمه عند الافرنج فأصبحوا يدعونه « دار حسين » . ولما قرر المشير الثانى توسيع جهاز المطبعة الرسمية و نقلها من مطبعة حجرية الى

مطبعة بالاحرف الحديدية كان السعى فى الاصلاح على يد امير اللواء حسين رئيس المجلس البلدى • وسافر بنفسه الى باريس فى هذا الغرض الذى لم يتم انجازه الا فى دولة المشير الثالث محمد الصادق باشا • فلما تم تنظيم المطبعة على المثال الحديث و تقرر نشر جريدة « الرائد التونسى » فى المحرم سنة 1288 و ضمت أعمال المطبعة وتحرير « الرائد » تحت نظر المترجم ، و ضمت الاقسام الادارية للمطبعة وهيئة تحرير الرائد الى دار العشرة أى دار المجلس البلدى لتكون تحت مراقبة رئيسه مع بقاء معامل الطبع بدار الحفصية •

وقد كان المترجم منذ ظهوره مأخوذا بالنزعة الاصلاحية شديد الغيرة على المصلحة الوطنية متلهفا على حالة الخراب الاخلاقى التى كان عليها اكثر القائمين بالاعمال العامة فى ذلك العهد حنقا على الذين يبتزون جانبا من الثروة العامة للبلاد ، ثم يلتجئون الى البلاد الاجنبية عائشين فى هناء أمنا من أن تنالهم يد الحكومة التونسية باستعداء العدليات الاجنبية ليقينهم بقلة الكفاءة فى الرجال الذين بيدهم مقاليد الأمور • من اجل هذا كان المترجم من الرجال المدركين لمعنى المسؤولية الحريصين على ان لا ينجى من المسؤولية أمام مصلحة

الوطن أى مقصر فيها . وقد ظهر تكتل هؤلاء الرجال لاول مرة فى قضية محمود بن عياد بزعامة الوزير خير الدين . فكان الوزير حسين من المهتمين بأمر تلك النازلة الباذلين أقصى جهودهم فى ان تنتج للبلاد عوضا من مالها المسلوب ، ولرجال الدولة درسا يفهمهم ان المعتدى وان بعد مغلوب .

وقد الف فى هذا الغرض رسالة سماها « حسم الالداد فى نازلة محمود بن عياد » طبعت بتونس سنة 1292 .

وبدافع هذه الغيرة توجه الى الاعتناء بنازلة تشبهها هى نازلة القائد نسيم التى اشتهرت فى تاريخ حياته .

كما كان من المتعاضدين مع الوزير خير الدين فى رأيه فى وجوب تمتين الروابط بين تونس والخلافة العثمانية والانتقاد على المقصرين فى ذلك .

ولهذه الاعتبارات فان المشير الثالث محمد الصادق لما أراد ان يوجه من طرفه الى الباب العالى من يعلم بوفاة اخيه و يطلب له امر الولاية على العادة أشار عليه الملتفون حوله صدر ولايته من رجال الدولة وهم ذوو الآراء الاصلاحية بأن يوجه فى هذا المهم وزير البحر خيرالدين ورئيس المجلس البلدى حسين ، فوجهه فى رفقة الوزير

خير الدين الى عاصمة الخلافة فى ربيع الثانى سنة 1270، وحظى بأجمل قبول وقلد الصنف الثانى من النيشان المجيدى .

و لما انتظمت المجالس الشورية فى صفر سنة 77 كان من أعضاء المجلس الاكبر . و فى تلك السنة كان منتخبا لمرافقة المشير فى رحلته الى الجزائر للقاء الامبراطور نابليون الثالث ، و كان ركوبهم من حلق الوادى آخر صفر سنة 77 . و قد كان مترجمنا فى تلك الرحلة لاجادته اللسان الفرنسى وسبق رحلاته الى باريس يعتمده فى نظام الاقتبالات ورد الزيارات بالنيابة عنه و الترجمة فى المحادثات الهامة . و قد حرر فى تلخيص تلك الرحلة رسالة بديعة موجهة الى صديقه خير الدين وزير البحر الذى لم يكن من الحاشية المشيرية فى تلك الرحلة . و نشرت هذه الرسالة بالرائد التونسى . وقد حكى فيها حديثه مع الامبراطورة اوجينى و ما أثنت به عليه على حسن اتقانه للغة الفرنسية .

و قد قلد فى تلك الرحلة الصنف الثالث من وسام الشرف الفرنسى .

و بالرجوع من هذه الرحلة وقع العمل فى انجاز النظم

التى اقتضاها عهد الامان ، فكان المترجم عضوا فى المجلس الأعلى المسمى بمجلس شورى الملك .

و فى سنة 78 سمى أمير أمراء ، وكانت لـه فى ذلـك المجلس مواقف مشهورة فى المصارحة بالحق و الدفاع عن المصلحة أكسبته شهرة سائرة بين بنى عصره و خالدة فى التواريخ من بعده .

و قد استمر على هذه الحيثيات السامية الى أن تقلـد الوزارة خير الدين باشا . فكان الى جنبه فى ذلك الطور الهام فى حياة البلاد ، ولقب وزير استشارة سنة 1290 . و شارك فى الاعمال المهمة التى نجمت عن وزارة خيـر الدين و التى اهمها التعليم بالجامع الاعظم و بالصادقية . ولمكانة المترجم له فى ذلك النظام سمى مستشارا للمعارف فكان الواسطة بين الوزير الاكبر و بين المصالح التعليمية، و بذل فى خدمة مصلحة التعليم بالجامع مجهودات جديرة بكل اكبـار .

و كان لا ينفك عن تعهد الجامع للتحقق من استقامـة النظام به و انتظام سير التعليم على البرامج المقـررة . و لمنزلته من الوزير خير الدين و أثـره الواضـح فى انجاز الاصلاحات الخيرية كان من الرجال الستة الذين

قلدوا نيشان العهد المرصع عند تأسيسه فى شوال سنة I29I اعترافا بفضلهم فى ذلك الطور العظيم ·

و قد انقطع عن مباشرة رئاسة المجلس بتقليده وزارة الاستشارة و بقى له اشراف على المصالح البلدية بعنوان مستشار النافعة ، فكان لقبه الرسمى فى عهد الوزارة الخيرية وزير الاستشارة و مستشار العلوم و النافعة ·

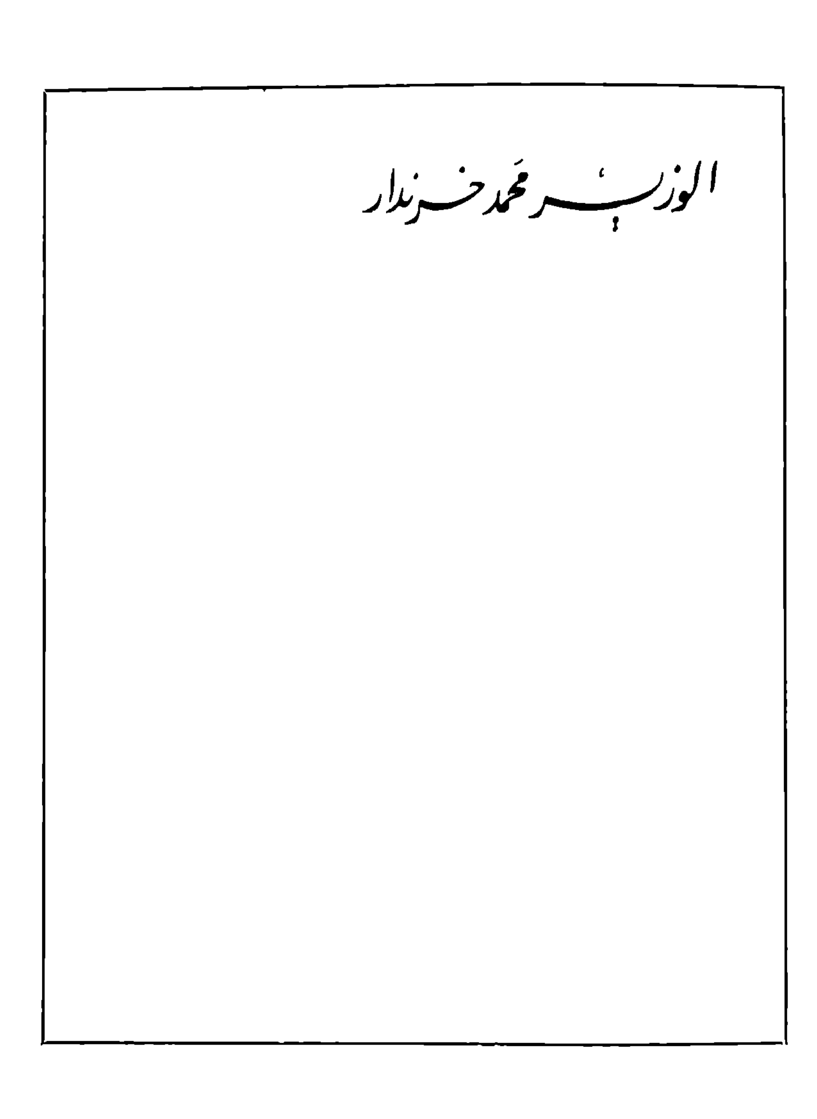
و لكن تفانيه فى سبيل الانتصار للدولة التونسية على الفارين منها بأموالها قد حال بين البلاد و بين الاستفادة من مواهبه فى هذه الماموريات بالاهتمام العظيم الذى بذله فى قضية القائد نسيم · و بيان ذلك ان القائد نسيم ابن بيشى شمامة الاسرائيلى القابض العام للدولة التونسية قد استاذن المشير الثالث فى السفر الى ايطاليا سنة 8I فلم يعد · و أجرى الحساب على تصرفاته فتبين أنه مطلوب للدولة فى مقادير باهضة · و فى سنة 85 توفى القائد نسيم بمدينة ليفرنو ، و تعلقت بمخلفه حقوق وصايا ومواريث ، فاضطرت الدولة التونسية الى رفع نازلة الى المحاكم الايطالية للمطالبة بحقوقها على التركة ، و انصرف الوزير حسين الى هذه النازلة بحماس فائق منذ فوض امرها اليه فى ربيع الثانى سنة I290 ، اى قبل ولاية خير الدين الوزارة · و لم يزل

مهتما بها حتى دعاه تشعب النازلة والخطر الذى احدق بمصالح الدولة بها الى الانقطاع للاشتغال بها بايطاليا سنين عديدة ، كما بينا ذلك فى ترجمة العلامة شيخ الاسلام سيدى سالم بوحاجب .

و قد أقام فى ايطاليا من سنة 1292 الى وفاته مع التردد على تونس مرات لم يطل فيها مقامه . و انقلبت عليه الامور فى تلك النازلة بخروج الوزير خير الدين من الوزارة و صفاء الجو للوزير مصطفى ابن اسماعيل الذى كان عدوا لدودا للمترجم ولطائفة من ذوى الامتيازات المالية الذين كانت مواقف حسين مخطرة على مصالحهم . فبقوا يتتبعون مساعيه بالافساد ويحيطون به شباك التوريط الى أن أفضى الامر الى عزله من وظائفه و تجريده من نياشينه سنة 1290 . و بقى مقيما بايطاليا الى ان توفى بها بمدينة بيرنسى سنة 1304 . و نقل جثمانه الى القسطنطينية بعناية المرحوم السيد عمر ابن صديقه سيدى سالم بوحاجب .

وقد ترك من ثروته مقدارا طائلا أوصى برصده لاعانة المجاريح والعجز من عساكر الخلافة العثمانية . نفعه الله بتوصيته وجازاه عن حسن نيته *

(*) الثريا السنة الاولى ، عدد 3 ، ص 3 ، فيفرى 1944 .


الوزير محمد خزندار

الوزير محمد خزندار

هذا علم من اعلام الجندية و الادارة و السياسة و الاقتصاد الذين طالما لجأت البلاد الى امانتهم ودرايتهم واستقامتهم فى الشدائد ٠ و قد اصبح اسمه مغمورا عند الكثيرين لمصادفة تلقيبه بلقب شارك فيه الوزير المرحوم مصطفى خزندار حتى أن عامة الناس يحسبونهما رجلا واحدا ٠ و منهم من يتوهم بينهما صلة أوقرابة ، و الحق أن شيئا من ذلك لم يكن ، و أنهما شخصان متباينان لا يجمع بينهما نسب وانما اتفقا فى اللقب لما سنذكره من السبب ٠

اصل هذا الوزير مملوك جلب من بلاد اليونان فى حدود العشرين من عمره سنة 1238 كما افاده تقييد المؤرخ الشهير الشيخ محمد الباجى المسعودى ، ودخل فى آتباع الباى على عهد المولى محمود باشا ، و هنالك تعلم العربية نطقا و كتابة فلذلك بقيت آثار العجمة فى نطقه الى آخر حياته ٠ و كانت كتابته بالعربية واضحة القصور لانه تعلم كبيرا ٠

وظهرت استقامته وأمانته . فتقدم في عهد المولى حسين ابن محمود واختص بوزيره وصهره شاكير فاتخذه أمينا على خزنة ماله ، ولذلك اشتهر باسم خزندار الذى هو مركب اضافى فى اللغة التركية ، معناه حافظ الخزنة ، كما يقال دفتر دار لحافظ الدفتر ، و بيرق دار الحامل البيرق ـ وهو اللواء ـ فلم يكن مترجمنا خازنا عاما للدولة كما كان مشاركه في اللقب الوزير خزندار و لكنه كان وكيلا على خزنة الوزير شاكير . و قد كان شاكير رجلا من كبار الماليين أحسن حفظ مالية الدولة كما احسن تنمية ثروته الخاصة و عرف مناطق الاستثمار وطرقه ، فاختص بجهات الساحل و استبد بولايتها طويلا وبرع فى عمليات تجارة الزيت ، وكان ذلك اصل اتصال مترجمنا محمد خزندار بالساحل و اشتهاره فيه .

وقد اقام على ملازمته لشاكير و موالاته على ما كان يظهر نحوه هذا الوزير من الحسد و الجفاء الذى نطقت به معاملته اياه فى آخر حياته . حتى أنه لما سافر الوزير شاكير سنة 1252 أميرا على المحلة المتوجهة الى جبال بجاوة لم يعين تابعه هذا خزندار فى الخارجين معه ، فخرج معه متطوعا و قاتل تحت لوائه ملقيا بنفسه للهلاك لسآمته سوء طباع سيده . وفى تلك الواقعة ضرب ضربة

كسرت رجله ، وبقى عرجها ملازما له طول حياته ٠
وبعد قتل الوزير شاكير اصطفاه المشير الاول احمد
باشا وادرك نجابته وكفاءته ، وقدمه للاعمال المعتبرة ،
ووجهه فى قيادة العساكر ٠ فكان عاملا على الاعراض ـ
و هى عبارة عن جميع المنطقة الواقعة بين قابس والحدود
الطرابلسية ـ و قائدا عاما للعساكر المرابطة بتلك
المنطقة ٠ وقد باشر قيادته فى العسكرية أولا بصبغة أمير
آلاى ثم ترقى الى رتبة امير لواء ، ومات احمد باشا
و هو على تلك الرتبة ٠ فكان من وجوه الرجال ذوى
الاعتبار يوم صعود المشير الثانى محمد باشا على كرسى
الولاية ومؤكدا للرابطة بين تونس والسلطنة العثمانية
لما كان ينقم المشير الثانى على ابن عمه المشير الاول من
التهاون بامر تلك العلاقة المقدسة ٠ فسافر المترجم فى
شوال 1271 ، و لقى فى سفارته نجاحا واقبالا ، و رجع
الى تونس فى محرم 1272 مصحوبا بباش كاتب المابين
الهاميونى يحمل الفرمان ٠ فاقتبله المشير فى
موكب مشهود بقصر باردو وجازى سفيره بترفيع رتبته
من امير لواء الى امير امراء ٠

وفى مستهل 1273 قام محمد خزندار بعمل عسكرى
عظيم رسخت به شهرته فى التاريخ وزاد دلالة على سمو

مكانته فى القيادة و الادارة . و هو قمعه للثورة التى
اشعل نارها بأقصى الجنوب التونسى الفارس الشهير
غومة المحمودى • و ذلك أن غومة هذا كان سيد قبيلته
المحاميد من عرب طرابلس وكانوا من شيعة بيت قرمانلى
المتسلسلة فيهم ولاية طرابلس • فلما نزعت الدولة
العثمانية حق الولاية عن آل قرمانلى شق غومة عصى
الطاعة ولاذ بالحدود بين طرابلس و تونس . فالقى عليه
القبض و نقل معتقلا الى الآستانة • ففر من معتقله
و دخل طرابلس و آتى منها الى بلاد الاعراض من المملكة
التونسية يلقى بذور الفتنة و يدعو الى العصيان حتى
تفاقم الأمر • فرأى الباى تجهيز محلة قوية لاخماد نار
الثورة ، و اختار لامارتها مترجمنا و هو يومئذ عامل
الاعراض ، و وضع تحت طلبه آلاى عسكر الساحل
و كتائب المخازنية وفرسان العروش الطائعة فى النواحى
التى تمر بها المحلة ، واطلق يده فى كل من يريد
الاستنجاد به وراء ذلك من الجند النظامى و العروش •
و قد كانت أخلاق أمير المحلة و نجدته وسياسته كفيلة
بنجاح تجهيزها على آحسن وجه ، حتى أن قرينه امير
الامراء رشيد قائد عسكر الساحل تطوع بالسفر معه
مأمورا اعتدادا بكمال أخلاقه •

و قد أظهر فى هذه المحلة من صفات البطولة العسكرية

آمرا كبيرا • و دارت رحى الحرب بينه و بين غومة فى مفاوز الصحراء ، و طال الفر والكر أشهرا أصبحت فيها مقابلة غومة ومحمد خزندار حديث الحواضر والبوادى • و كان غومه شاعرا فى الملحون ففاضت اغانيه بذكر هذه المحلة و ما اصبح بينه و بين أميرها من الثارات فى شعر لا يزال الى اليوم من اغانى الملاحم المأثورة عند اهل الاعراب •

ومن جهة اخرى اظهر المترجم فى هذه المحلة من أصالة الراى وحسن السياسة و الحرص على قطع دابر الفساد مع الابقاء على سلامة البلاد و مراحم الدولة على الرعية ما ألهج المملكة التونسية قاصيها ودانيها بشكره و تقدير فضله •

و قد انتقل من عمل الاعراض الى عمل الساحل ، وهو شامل على التقسيم الحالى لاعمال سوسة و المهدية والمنستير و جمال و السواسى • و قد رأينا ما تقدمه فى الساحل من المعرفة والشهرة و السمعة الطيبة ، خصوصا وأغلب العساكر الذين كانوا تحت امرته فى محلة غومة هم من أبناء الساحل •

قال الشيخ ابن ابى الضياف فى تاريخه متحدثا عن

علاقة أهل الساحل بمحمد خزندار بمناسبة حوادث سنة 1820 «لما له من الوجاهة فيهم و ما لهم من المحبة فيه لانه يحمل كلهم و يكسب معدمهم و يمينهم على نوائب الدهر ، و يرى لاموالهم حرمة تقتضى عدم التشديد والالحاح » .

ولما أعلن عهد الامان كان المترجم فى طليعة الرجال العاملين لسن القوانين التاسيسية المتفرعة عن أصول عهد الامان . و كان عضوا فى المجلس المؤلف لوضع قانون الدولة سنة 1274 ، ثم عضوا فى المجلس المنظم لوظائف الوزارات وعلاقاتها سنة 1276 ، ثم عضوا فى المجلس الاكبر عند تاسيسه سنة 1277 . و عد أوجه الاعضاء فى ذلك المجلس حتى انه كان النائب فى رئاسته عن الوزير خير الدين لما سافر الى اوروبا سنة 1280 .

و لما استقال الوزير مصطفى خزندار من وزارة العمالة مقتصرا على الوزارة الكبرى و وزارة الخارجية و وزارة المال سمى مترجمنا وزيرا للعمالة فى جمادى الثانية سنة 1278 ، وهى عبارة عن ادارة الشؤون الداخلية للمملكة التى هى اليوم مناط نظر القسم الاول . و لما تخلى عن المباشرة وزير الحرب مصطفى آغا سمى المترجم عوضه وزيرا للحرب فى جمادى الاولى

سنة 1279 ، و اعيدت وزارة العمالة الى الوزير الاكبر .
وفى اول سنة 1280 سافر مترجمنا وهو وزير حرب سفيرا عن المشير الثالث محمد الصادق باشا الى مملكة اسبانيا فى سفارة ودية قلد فيها نيشان آل البيت الحسينى للمملكة وقوبل باكرام واحتفال .

وقد اشتهر هذا الوزير فى الدولة الصادقية شهرة فائقة وعرف عند اهل المملكة بصفات من المروءة و الثقة و حسن السلوك قل ان عرف بها غيره من المماليك ، حتى أن الشيخ ابن ابى الضياف فى تاريخه يلقبه بالرجل الكامل . و كانت هذه الصفات الحميدة عند اهل الساحل اشهر منها عند غيرهم . لذلك صعب على الدولة أن يفارق حكم الساحل مثل هذا الامين ، فابقته على عمل الساحل مع الوزارات التى تنقل فيها ، حتى عرف عند الكثيرين من معاصريه باسم محمد عامل سوسة او محمد عامل الساحل . و لهذه المكانة السامية عند اهل الساحل اعتمدت عليه الدولة فى ثورة عام 1280 فتوجه الى سوسة وقد غلى بها مرجل العصيان ، وانقطع طريق البر بينها وبين تونس ، فدخلها من البحر فى ذى الحجة سنة 1280 ، و اجتمع باعيان الساحل وحذرهم عاقبة الفتنة ضمن لهم بما له عندهم من المزية الذاتية امان الدولة

وعفوها و اصغاءها لمطالبهم • ولما داهمته العامة السفهاء طالبين ان يسلم اليهم مفاتيح ابواب المدينة و مفاتيح خزائن السلاح آلان لهم جانب القول و قال : «هذه بلادنا وما انا الا واحد منكم ، و لا أختار لحفظ المفاتيح أحسن منكم» و أعطاهم اياها فأمنت عند شيوخ المجلس الشرعي و أطفأ بذلك لهيب فتنة كان الناس عاجزين عن اطفائها بغير هذا الوجه • و قد كان مدة حكم الوزير خير الدين من أعضاده و أهل ثقته حتى أنه اختاره عضوا في مجلس الحكم في قضية الوزير مصطفى خزندار • ولما استقال خير الدين و أراد العاملون على مقاومته ستر نتيجة عملهم في نظر العموم لم يجدوا في رجال الدولة يومئذ شخصية لا يثير تسنمها ذرى الوزارة اشتداد السخط الحاصل من خروج الوزير خير الدين مثل شخصية محمد خزندار النقية الماضي المقتدرة الثقة ليطمئن الى أمانتها الرأي العام اطمئنانا يقضي بتمهيد الطريق لوصول مصطفى ابن اسماعيل الى منصب الوزارة الكبرى• و قد علم ما يراد منه في هذه الحركة فبالغ في التوسل ليعفى من هذه الولاية ، فلم يصغ اليه ، و ألزم بها، وكانت ولايته الوزارة الكبرى من II رجب 1294 الى 20 من شعبان 1295 ، حيث عوض بالوزير مصطفى ابن اسماعيل وسمي هو وزير شورى و بقي رفيع المنزلة عند الامير •

و لما انتصبت الحماية الفرنسوية و تبين وجوب ابعاد الوزير مصطفى ابن اسماعيل عن التصرف دعت حضرة المشير الثالث ـ باتفاق مع الوزير روستان ـ الوزير الاسبق للعود الى الوزارة الكبرى ثانيا ، فعاد اليها يوم الاثنين 18 من شوال 1298 واستمر قائما بعبء الوزارة فى تلك الاوقات العصيبة الى انقراض الدولة الصادقية .

و لما صعد المولى المقدس على باشا الثالث الى العرش بادر باستعطافه لقبول استعفائه فقبل منه فى 23 من ذى الحجة 1299 . و كان وقتئذ قد شاخ و أخذ منه الهرم فانقطع فى بيته آنسا بمستبناه امير اللواء صالح خوجة الذى كان رئيس القلم التركى بوزارة الخارجية و بأصهاره الاشراف أبناء سيدى محمد بن محمد بن عبد الكبير الشريف الذين كان متزوجا هو بأختهم ومزوجا متبناه صالح خوجة من ابنة أخيها سيدى حسن المتوفى سنة 1286 فى طريق الحج . و قد خص متبناه هذا و أصهاره الاشراف بوقف ثروته الطائلة التى اتقن جمعها و أحكم صونها و أحسن تنميتها بعد ما رصد منها جانبا ذا بال للمبرات العامة كالمسجد الذى أسسه بالمرسى ووقف عليه خزنة كتب ، و الدرس الذى أقامه بجامع الزيتونة الاعظم لبث الفقه المالكى برسالة الشيخ ابن أبى زيد رضى الله عنه .

وكانت وفاته بقصره بالمرسى يوم الجمعة 22 من شوال سنة 1306 ، و دفن صباح السبت فى موكب مشهود ، فصلى عليه ببطحاء تربة لاز بحضور المولى المقدس سيدنا علـى باى ، ودفن بتربة الاشراف الهنديين اصهاره فى مقبرة الزلاج • رحمه الله وتقبله باحسانه *

(*) الثريا : السنة الاولى ، عدد 2 ، ص : 2 ، جانفى 1944 •

خيرُ الدّين باشا



خـــير الديـــن باشـــا

إن المآثر الخالدة فى الحواضر والبوادى و الاحاديـث التالدة فى المحاضر و النوادى ناطقة بفضل هذا المصلح الكبير المعدود من الافذاذ فى تاريخ الاسلام قاطبــة لتغنى عن التنويه بمقامه و التعريف بفضله عــلى الملــة والوطــــن •

وسع ذلك فان هذه الحياة الحافلة بجلائل الاعمال قد آتى على تفاصيلها من تطاول الأيام و تقاصر الاقلام مـا جعلها بحاجة الى الاظهار ، و هى الحقيقة باحياء التذكار فى هذا الحديث المنطوى فى لحظات ، و ان كان غرضا تقصر دونه المجلدات •

أصل هذا الرجل العظيم من قبيلة أبـازة الضاربـة بجبال الجركس فى الشمال الغربى من بلاد القــوقــاز بمنطقة نهر الكوبان • وقعت على بيته يد غارة عاديــة فذهبت بحياة أبيه و حملته هو صغيرا أسيرا الى اسواق الرقيق بالآستانة • وهنالك اشتراه نقيــب الأشــراف ،

فأقام بقصره مدة ثم عاد الى سوق الرقيق ، فألقتــه يــد الأقدار الى مبعوث من طرف باى تونس جاء ينتقى لــه مماليك • فحمله الى تونس ودخلها سنة 1255 فى صــدر مدة المولى المشير الاول أحمد باشا • فانخرط فى سلــك مماليكه وتربى فى قصره بباردو وتعاطى حفظ القرآن و قراءة مبادىء العلوم ، ثم دخل المكتب الحربى الــذى أسسه احمد باشا بباردو لتخريج ضباط عسكريين أكفاء للمهمات العسكرية عن الاساليب الحديثة بتعليم أساتذة من الضباط الفرنسويين •

وهنالك تعلم اللغة الفرنسية وقرأ العلوم الرياضية فظهرت نجابته ، وترقى فى السلك العسكرى بالخيالة حتى صار أمير آلاى الخيالة سنة 1263 ، ثم أمير لواء الخيالة سنة 1266 • و بما وهب من الذكاء الفطرى و ما اكتسب من الاطلاع على أحوال الامم الاوروبية بممارسة أساتذته بالمكتب الحربى بدأت نزعته السياسية تتجه نحو الاستياء من حالة الانحلال و التأخر التى كانت نازلــة بالأمــم الاسلامية ، و يجنح الى ممالاة الافراد القلائل المعروفين فى حاشية المشير احمد باشا بالتطلع الى اصلاح الحالــة أمثال الوزير مصطفى صاحب الطابع و الكاتب الشيــخ أحمد ابن ابى الضياف • فانتقــل مــن مباشــرة القيادة

العسكرية الى الالتحاق بحاشية المشير برتبته أمير لـواء واصبح المنظور اليه فى المشاكل السياسية لا سيما ماتعلق منها بالعلائق الاوروبية • وبذلك أظهر لـه الـوزيـر مصطفى خزندار الاعتناء والتقريب حتى اختص بـه وصاهره على ابنته فيما بعد على ما كان يبدو بينهمـا من اختلاف وجهة النظـر •

وفى سنة 1270 وجهه المشير أحمد بـاشـا الى باريس للنيابة عن الدولة التونسية لـدى المجلـس التحكيـمى المؤلف فى وزارة الخارجية الفرنسويـة بتفويض مـن الامبراطور نابوليـون الثالث للفصل بين الدولة و بين المتصرف فى ماليتها سابقا امير اللواء محمود بن عياد •

وأقام لهذا الغرض فى باريس مدة تجاوزت الاربـع سنين ، وقف فيها حب المعرفة على مبلغ التمدن الحديث، وزاد تعلقا بمسايرة المدنيـة الاوروبيـة فى حياتـه الشخصية و فى أفكاره العامة •

و توفى المشير أحمد باشا و خلفه المشير الثانى محمد (بالفتح) باشا و المترجم فى باريس ، فأقره على ماموريته الدقيقة التى ظهرت نتائج مساعيه فيها للعيان ، ورقـاه سنة 1272 الى رتبة امير امراء ، وهو غائب فى باريس •

وفى صفر سنة 1273 رجع لتونس • فأقام مدة فى أمور تتعلق بماموريته ، ثم رجع الى باريس فلم يعد الا سنة 74 بعد ان تقلد وزارة البحر قبل رجوعه •

وعند وصوله لتونس انضم الى العاملين فى سن القوانين التاسيسية للمملكة ، وهى قوانين عهد الامان• و ظهرت فى ذلك الميدان مقدرته السياسية و تفوقه فى الاخلاص للاعمال الاصلاحية تفوقا لا يجارى• فكان القطب الذى دارت عليه تلك التأسيسات العظيمة كلها تاسيسا وتفريعا • و زاد ذلك فى رسوخ قيمته السياسية العالية•

فلما ولى المشير الثالث المولى محمد الصادق باشا سنة 1276 انتخب للنيابة عنه لدى الدولة العثمانية فى طلب أمر الولاية ، فسافر فى هذه السفارة السامية فى ربيع الثانى سنة 76 ، و شيعه الباى بنفسه الى مرسى حلق الوادى •

و لما وضع قانون الدولة للتنفيذ واجتمع المجلس الاكبر سنة 77 فى صفر كان المضطلع بأعباء القانون المتملى من معانيه ، فسمى كاهية لرئيس المجلس الاكبر • و تقدم يوم افتتاحه بخطاب ارتجالى ممتع شرح فيه أسلوب القانون و غاياته • كان آية اعجاب السامعين

والمتسامعين . و فى ذلك الموقف يقول شاعر العصر الشيخ محمود قابادو مخاطبا المشير الثالث :

وأنبت خير الدين فى تقريرها
بفصاحة تزرى على سحبان
ما زال يمليها بفصل خطابه
حتى وعتها سائر الاذهان
كلم يفوت بيانها سبقا الى الـ
أذهان مسراها الى الآذان

و بعد أشهر سمى رئيسا للمجلس الاكبر عند وفاة رئيسه الوزير مصطفى صاحب الطابع مع بقائه على وزارة الحرب . وقد كان انعقاد المجلس و نظام الشورى ميدانا فسيحا لاظهار مبادىء خير الدين الاصلاحية و المكاشفة بانتقاده على الاساليب التى كانت سائرة فيها الدولة يومئذ . وكان هذا موجبا لاشتداد الخلاف بينه وبين حبيبه وصهره الوزير مصطفى خزندار . فكان موقفه بين واجبه الاجتماعى وبين عهود الوداد و المصاهرة التى تربطه بالوزير موقفا حرجا أفضى به الى تقديم استعفائه من وزارة البحر ورئاسة المجلس الاكبر استعفاء سجل به خيبته فى الاصلاح وايثاره الانزواء والمحافظة على الواجبات الخاصة وآداب اللياقة .

و قد بقى فى انزوائه هذا عن الوظائف على حالـــة حسنة فى العلاقات مع الباى ووزيره ، ناهيك أنــه قــد عهد اليه فى هذه الفترة بسفارات ملكية ذات شان لــدى تسع دول أوروبية عظمى • كما وجه فى سنة 81 الى دار الخلافة العثمانية مفوضا فى المفاهمات لتمديد العلاقات السياسية بين تونس وتركيا على اثر الحوادث الداخلية بالمملكة • فكانت هذه الرحلات الواسعة من جهةوالتفرغ من تكاليف الوظائف من جهة أخرى مسهلة له اظهار الاثر العظيم الذى خلد به قيمته الفكرية والسياسية وهوكتاب «أوم المسالك فى معرفة أحوال الممالك » الذى استعرض فيه حالة تمدن الممالك الأوروبية و نظمها السياســـة ومنشأ نهضتها و عمرانها ، مقارنا لحالتهاالزاهرةبالحالة السيئة التى عليها الممالك الاسلامية ، و مبينا أن اصول الشريعة الاسلامية تقتضى ما عليه ممالــك اوروبا مـــن النظام ، لا ما عليه الممالك الاسلامية من اختلال • و قد أتم تأليف هذا الكتاب سنة 1284 و طبع بتونس و ترجم القسم الاول منه الى الفرنسيـــة و طبـــع فى باريس فى العام الموالى •

و قد تطورت الاحداث فى مدة اعتزال خير الديـــن العمل الرسمى أطوارا قضت بوجوب الرجوع الى آرائــه

والاخذ بنصائحه بعد اضطراب الامن الداخلى فى المملكة واختلال النظام الاقتصادى و انتشار المجاعات والاوبئة وسقوط ميزانية الدولة الى هوة الافلاس وانتصاب اللجنة الدولية لمراقبة المالية المشهورة بالكومسيون المالى • فهنالك اظهر المشير الثالث و وزيره الرغبة الملحة فى خير الدين أن يعود الى العمل •

وبعد طول الاخذ والرد استقر الرأى على وجه يجمع به الوزير خير الدين بين القيام بواجبه و ارضاء عواطفه العائلية نحو الوزير الاكبر ، وهى قبوله رئاسة لجنة المالية وتوليه مباشرة رئاسة الحكومة وشؤون الوزارة الكبرى باسم وزير مباشر مع بقاء الوزير مصطفى خزندار على لقب الوزارة الكبرى ، ملقيا بالنفوذ كله بيد صهره الوزير خير الدين • فتم ذلك فى شعبان سنة 86 ، و لكن الخلاف الذى نشأ بين الصهرين مدة مباشرة رئاسة المجلس الاكبر لم يلبث أن عاد جدعا فى هذا الدور الجديد ، فأصبح الوزير خير الدين الضد الرسمى و المقام العلنى للوزير خزندار • و زاد فى تكدير العلاقات بينهما ما وقع من تصرفات الوزير على خلاف النظامات المؤسسة عليها اللجنة المالية ، حتى افضى هذا النزاع الشديد الى تخلى الوزير مصطفى خزندار

وتولى خير الدين وزيرا أكبر عوضه في شعبان سنة 90 • و قد تقدمت خير الدين فى الولاية سمعة طيبة ضاربة أطنابها فى ارجاء الايالة من مواقفه المتسلسلة من صدر دولة المشير الثانى فى تاسيس عهد الامان الى مواقفه الاخيرة بعد عشرين عاما فىتسيير «الكومسيون» فظهرت علائم الابتهاج بهذه الولاية بين عموم طبقات الامة • و أظهروا ذلك فى الحفلات الشعبية التى أقيمت بالعاصمة وغيرها من مدن الايالة الكبرى كالقيروان و صفاقس و باجة وبنزرت وتوزر • و من يومئذ وجد الوزير خير الدين نفسه وحيد المسؤولية ، و شمر على ساعدى الجد فى طريق الاصلاح المنشود للناس المسطور برنامجه فى كتاب « أقوم المسالك » حتى صدق للناس خبره خبره • فنجمت عن وزارته التاسيسات الحيوية العظيمة التى منها تأسيس مدرسة الصادقية و تعمير مكتبة العدلية ، و نظام العدالة ، و نظام المحاكم الشرعية ، و نظام التقاديم ، وتأسيسه جمعية الاوقاف ، وسن قانون الغابة ، وسن قانون الخماسة ، واصلاح نظام السجون ، و تأسيس الخزنة العامة لأوراق الدولة ، والاصلاحات البلدية بمدينة تونس ، و التنوير بالغاز ، واسقاط المغارم على اهل الساحل ، و توحيد فائض ديونهم، و المعاهدات الكمركية الحامية للصناعات الاهلية،

وتوسيع ساحة الاراضى المبذورة بالمملكة مـن 60 الـف هكتار الى نحو المليون هكتار ، حتى طبقات الاهالى لـم تزل تعرب له عن تقدير هذه المجهودات الاصلاحية المهمة، مرة بحفلة اولياء تلامذة المدرسة الصادقية بمقام سيدى محرز ، و مرة بتقديم المصحفين العظيمين: أحدهما للمشير الثالث المولى محمد الصادق ، و ثانيهما لوزيره ، و أخرى بتقديم التجار و أهل الصناعة للوزير منضـدة مكتـب بديعة اعترافا بفضله على الاقتصاد العام .

و لكنه من جهة أخرى لم يكد يتسلم خير الدين مقاليد الامر و تظهر هذه الابتهاجات فى الاوساط العامة حـتى كانت بعض الاوساط الخاصة تتهيـأ للحملـة عليـه . وابتدأ ذلك بمهاجمته من طرف بعض الصحف الاوروبية التى كانت على اتصال بالاوساط التونسية . و أخـذت تلك المهاجمة رواجها فى تونس ، و بدأت تصعد نحـو القصر ، حتى أنه لم يكد يمضى عام على ولايته الوزارة الكبرى حتى اضطر الملك الى نشر مكتوب أدرج بالرائد ثلاث مرات لنفى ما يروج على الألسنة من توتر العلائـق بين الباى والوزير . و لتأييد ثقته فيه ابتكر نيشان عهد الامان المرصع و قلده اياه مع بعض أعضاده من الوزراء فى موكب مشهود فى شوال سنة 1291 . و لكن بـذرة

المقاومة لم تزل تنمو والجو لم يزل يزداد اعانة على نمائه بتظاهر عناصر متخالفة فى غاياتها توحد بينها الرغبة فى التخلص من وزارة خير الدين ·

و لم يزل خير الدين يبين للملك الصادق منهاجه للعمل ويشرح له ما يحوط سعيه من الدسائس حتى وجد نفسه اخيرا مضطرا الى التخلى عن مباشرة الوزارة بعد أن قام بها أربع سنين الا شهرا · فتقدم الى المولى المشير باستعفائه فى مجلس خاص بسراية حلق الوادى صباح السبت عاشر رجب سنة 1294 · وانقطع عن العمل العام و تفرغ لشؤونه الخاصة و لتحرير تاريخ حياته و بيان مواقفه فى أساليب متنوعة ·

وسافر فى الصائفة التى استعفى فيها الى فرنسا للاستجمام فى فيشى . و فى الصائفة الموالية للاستجمام فى سان نيكتار · و كان أثناء هذا العام الذى أقامه بتونس بعد تخليه عن الوزارة على اتصال مستمر بالاوساط السياسية العليا فى الآستانة . وعلى اتصال بقصر السلطان بواسطة الشيخ محمد ظافر الطرابلسى شيخ الدرقاوية ، والمقرب من السلطان عبد الحميد ، حتى أن السلطان عبد الحميد لما تقررت عنده المكانة السامية التى عليها الوزير خير الدين و تحقق سمو

البرنامج الذى تضمنه كتابه « اقوم المسالك » رغب في ادخاله فى الحكومة العثمانية ، فوجه اليه يستدعيه للحضور لديه بدار الخلافة ٠

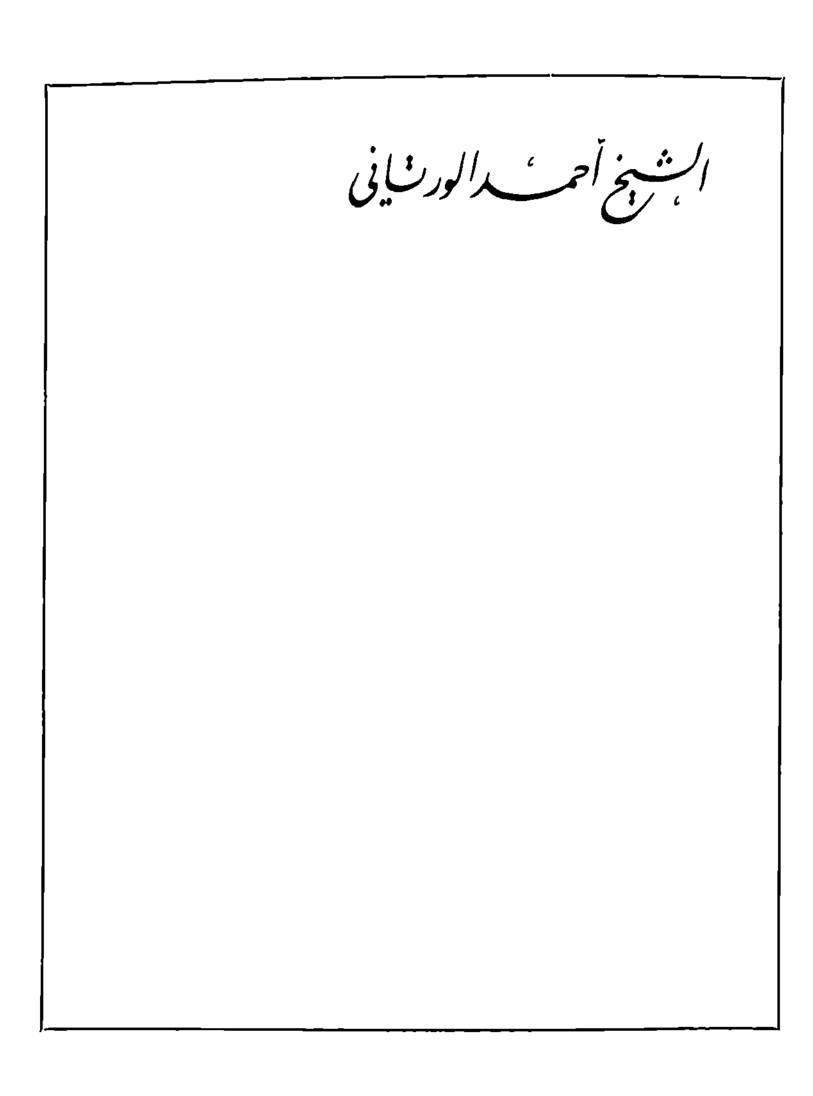
ففارق تونس بعد الاستئذان من الامير المولى محمد الصادق و توجه الى الآستانة ، فبلغها فى شوال سنة1295 ٠ فكانت اقامته بتونس اربعين سنة ٠

وبمجرد مثوله لدى جلالة الخليفة عبد الحميد الثانى تفضل عليه برتبة مشير ، وهى أعلى رتبة فى سلك التشريفات العثمانية ٠ و أظهر له اعتناء و اكراما فائقين ، و انزله فى جناح خاص من قصر طولمه بغجه ، و أظهر له الرغبة فى ادخاله فى مباشرة مهام الدولة ٠ فابتدأ بتعيينه رئيسا للجنة الدولة المكلفة بالنظر فى اصلاح مالية الدولة ، ثم ضم اليه وزارة العدلية ٠ وفى الثامن من ذى الحجة سنة 1295 دعى الى تولى أعظم منصب فى السلطنة العثمانية وهو منصب الصدر الاعظم ٠ فقام باعباء ذلك المنصب السامى الذى هو السلطنة العثمانية الشامخة بأكملها فى وقت كانت فيه المشاكل تتوالد عن اليمين و عن الشمال ، و أظهر ما عرف به من المقدرة التى لم تتجاوز مداها المنطقة الواسعة التى فتحت امامه للعمل ٠

ولما أدرك هو شيئا من التغير في ثقة السلطـان بـه استقال من منصب الصدارة العظمى. فقبلت استقالته سنة 96 وبقى بمنزلة التعطفات السلطانية . فكان يعامل معاملة الصدر الاعظم ويتبوأ مقام الرفعة الذى يخوله اياه لقب مشير . وسمى عضوا فى مجلس شورى الدولة و فى مجلس الاعيان ، و كان يدعى الى المجالس التى تجمع جميع الوزراء المباشرين و غيرهم فى مهمات السلطنة .

و بقى مرتبه من السلطنة العثمانية جاريا غيرمنقوص مع مرتبه التونسى الذى استمر يرسل اليه الى وفاته التى كانت سنة 1308 بقصره الخاص على ضفة البوسفور . جزاه الله بأحسن ما يجزى به الناصحين *

(*) الثريا : السنة الاولى ، عدد 16 ، ص : 2 ، جوان 1944 .


الشيخ أحمد الورثلاني

الشيخ احمد الورتاني

لو كان فى مستطاع المترجم أن يصل الى أواخر الترجمة قبل استيفاء آوانها لكان لنا ذلك خير طريق لتقديم صاحب الترجمة · فان ما تنتهى به هذه الترجمة الحافلة التى جعلناها موضوع حديثنا من المواقف الرائعة و المثل العقلية الاخلاقية العليا يكون تقديما لقيمة صاحبها مفصحا عن كل عظمته بما تقصر عن الافصاح عنه القدماء · فان رجلا قرب من خزندار و خير الدين لا تستطيع ثقة أحدهما أن تبعد به عن ثقة الآخر ، ثم وقف فى العاصفة التى قلعت الشيخ بيرم فثبت موفيا بحق العهد القديم لرجل رسخ له من الحصانة الخلقية ما تتكسر على أسواره اعظم المصفحات · فقد كان فوق علمه و عقله و سياسته رجلا صادقا فى دينه ، كاملا فى خلقه ، رشيدا فى سيره، وفيا بعهوده و واجباته ، عرفت نبوغه مجالس العلم ، وشهدت بفضله محافل الادارة ، وخبرت ثقته أزمات السياسة و سجلت ثباته مواقف التاريخ ·

فنشأ فى عز البداوة و نخوة الفروسية، وطهارة الفطرة

بمنازل قبيلته ورتتان فى عراش النجود الغربية مـن القطر التونسى ، وشب على تربية أخلاقية طاهرة سليمة لحمتها القرءان الكريم والدين ، و سداها تقاليد المروءة، والترفع والهمة • ثم وفد على الحاضرة التونسية مهاجرا فى طلب العلم فى صحبةوالده بعد أن حج ، و كان وفوده على تونس حدود سنة 1250 • فانقطع الى امام التربية فى عصره الشيخ محمد بن صالح ابن ملوكة و لازم زاويته الكائنة خارج باب القرجانى ، وأسلم بيده قياد ارشاده وتهذيبه وتوجيهه . وكان من أبناء جهتـــه وأســـلاف عشيرته • فاقبل عليه الشيخ ابن ملوكة بكامل عنايتـه لما تغرس فيه من الاستعدادات الطيبة روحية و عقليـة ، و تولى ملاحظته وتاديبه على الاصول الصوفية ، و أشرف على تسييره فى منهج الطلب ، و لقنه بنفسه كثيرا مـن الفنون فى دروسه • فكان ياخذ عنه بالزاوية و ياخـذ خارجها عن أمثال شيخ الاسلام محمد ابن الخوجة و شيخ الاسلام محمد معاوية والاستاذ المحقق محمد ابن عاشور والعلامة المفتى محمد الخضار و العلامة القاضى محمد النيفـر والعلامة القاضى محمد الطاهر ابـن عاشور •

و كان فى هذا الطور من حياته صديقا حميما و رفيقا ملازما للعلامة الشهير شيخ الاســلام سالـم بوحاجـب •

فكان قرينه فى كل و جهة من و جهاته نحو البحث والاطلاع، وان كان فى ميله النفسى مخالفا لطريقة الاستاذ سالم ۰ فلم يكن يؤثر البحث و يتجرأ على الابتكار بل كان يؤثر الضبط و التدقيق و التحصيل و الاحاطة ۰ و هو ميل أعانه على تنميته ما وهب من قوة الحافظة واتساع الذاكرة حتى أصبح فى العلوم النقلية مشارا اليه بالبنان ، لا سيما فى العلوم الادبية و اللسانية ۰ فكان منحصرا فيه فخر جامع الزيتونة فى ذلك العصر سعة رواية للأدب الجاهلى ، و سعة تضلع فى التاريخ ، وقوة ممارسة لأعز مصادره ، وشدة إحاطة بمتن اللغة حتى لم يعرف أن مفردا فى الشعر الجاهلى شذ عنه فهم معناه ، و لا أن عبارة من عبارات القاموس غابت عن حفظه فاحتاج فى تحقيقها الى مراجعة الكتاب ۰ و تأكدت صلته بأستاذه برابطة الصهر حين بنى لابنته ۰ و بما كان لشيخه ابن ملوكة من الاتصال المتين بالوزير مصطفى خزندار والكلمة النافذة فى أخص شؤونه ، فقد اتصل مترجمنا ايضا بقصر الوزير وحل منه محل كرامة ممتازة ، و محل رعاية و اجلال من ربة البيت الاميرة كلثوم ابنة مصطفى باشا و أخت المشير الاول احمد باشا ۰ فكانت منزلة الشيخ احمد فى قصر خزندار منزلة السيد المطاع والربانى المتبرك بقربه ، و كانت أصالة آدابه الدينية

وهمته الشماء ومروءته العالية تزيد ذلك الوسط اعجابا به كل يوم ، وترفع مقامه فى نظر أهله منزلة عزيزة المنال . فنشأ أبناء الوزير خزندار ذكورا و اناثا يرون فى الشيخ احمد الورتانى مجتمع الخير و مصدر الرشد والاخذ بالزمام فى طريق الرجعة الى الدين و الحق . وكانت أقرب ابناء خزندار منه منزلة وأشدهم به اختصاصا السيدة كبيرة التى اصبحت فيما بعد زوجا للوزير خير الدين سنة 1273 . و قد كان خير الدين أيضا منذ عرف الشيخ الورتانى بشدة اتصاله بالقصر الوزيرى شغوفا بعلمه وأدبه ورأيه حريصا على القرب و التودد اليه ، كما كان الشيخ يرى فى خير الدين ما رآه فيه كل مدرك من صدق اللهجة و طيب السريرة و الاخلاص النادر والذكاء الوقاد والمقدرة التى لم يقرب له فيها نظير . فتأكدت هاته العلائق بزواج خير الدين بابنة خزندار و أصبح الشيخ الورتانى أبا مشتركا بين الزوجين . و كان اتصاله ببيت خير الدين أبرز أثرا فى ميدان العمل من اتصاله ببيت خزندار بما اتفق لهما من الاكتمال فى النية الاصلاحية و ما وجد فيه من الاستعداد للاخذ بالآراء الصائبة والتعلق بالنوايا الصادقة فى خدمة الملة الاسلامية . فكان من بواعث روح العزم فى حركة الوزير خير الدين نحو الاصلاح ، و كان الذى قام

بأهم الأدوار - فى حماية السيد الوزير خير الدين نحو البرامج المخالفة لصهره الوزير خزندار - سدا لا يخل بما بينهما من الروابط العائلية ، ثم حمل الوزير خزندار على الرضى بانتداب خير الدين للمأموريات المهمة كمأمورية استصدار الفرمان المقرر لنظام ارتباط المملكة التونسية بالخلافة العثمانية سنة 1288، وقد كان خير عمل عرف به التاريخ للوزير خير الدين و العصابة المحركة له فى مواقفه برنامجهم فى معالجة داء التفرق الاسلامى وتقوية الجامعة الاسلامية فى ظل الخلافة العثمانية . ومنذ تم لهم ذلك ثارت فى وجههم عاصفة المعارك السياسية التى أهاجتها أطماع الدول الاجنبية ودفعت فى عجاجتها الاعيان المسكين يومئذ بزمام المسؤولية السياسية بتونس . فابتدأت معركة حامية الوطيس كان فيها مترجمنا أقوى سند و أتم عدة فى الواجهة الخيرية بسبب ما يكتنفه من الاحترام و الاجلال فى نظر الذين كانت افكاره تخاصم افكارهم ، ولكن عواطفه تحنو عليهم ونصائحه تأخذ بأيديهم و حرمته المكينة تلين من حدتهم و تقصر خطاهم عن التوغل فى المنهج الذى اتبعوه سبيلا .

و فى اثناء هذا الدور سمى المترجم مدرسا من الطبقة

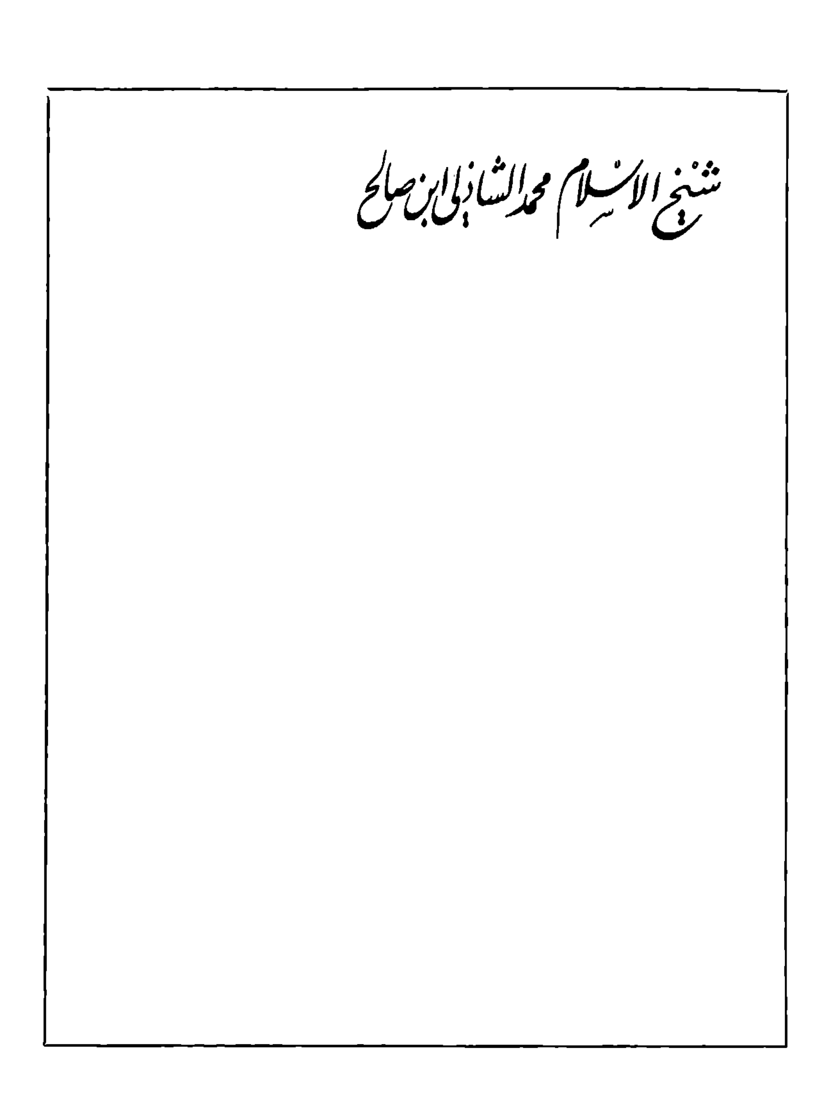
الاولى ابتداء من رجب سنة 1287 بمقتضى خطاب ملكى موجه الى المشائخ النظار • و تم الانفصال النهائى بين الشقين بسقوط الوزير مصطفى خزندار وانتصار الوزير خير الدين بارتقاء مسند الوزارة الكبرى و ما تبع ذلك من إعنات لخزندار بالمحاسبة والمصادرة والتجريد من الاوسمة والرتب الشرفية والمقاطعة الرسمية • فكان الشيخ أحمد الورتانى الوحيد من بين رجال الحظوة الذى يدخل بيت خزندار و يتردد عليه و على زوجه تردد الصديق الحميم المواسى والمرشد الكريم المسلى ، و يظهر الرقة للكارثة التى نزلت بينهم ، ويصدع بما فيها من حق وما فيها من باطل على سمع من الناكب و المنكوب ، فى حين ينصرف الى خير الدين رجل الساعة بالتوجيه و المؤازرة و التشجيع فى سبيل النظم الداخلية التى كانت سطور برنامج مخطط بينهم و بين اخوانهم من أنصار السياسة الاسلامية الكبرى يرونه الضمان الواحد لقرار السياسة الاسلامية الكبرى فى ارتباط الفرع باصله ، و السور المنيع فى وجه الأطماع الاجنبية التى كانت تهدد البلاد فتكاد تودى بكيانها • فنواحى الاصلاح الاجتماعى التى شملها برنامج الوزير خير الدين كانت كلها محل عناية الشيخ الورتانى و انكبابه و دراسته و لا سيما برنامج

إصلاح الاوقاف و تنظيمها الذى كان المترجم يعلق عليه اهمية كبرى فى توجيه الحياة الاجتماعية الاسلامية على منهج نهضة رشيدة لا تقف فى وجهها أهواء الدول المتقلبة ·

فلذلك كان العمل الذى عهد به الى كفاءته بصفة خاصة عند الدخول فى الدور التنفيذى هو العمل فى تسيير جمعية الاوقاف الى جنب العالم المفكر العظيم صديقه الشيخ محمد بيرم · فلما أسست جمعية الاوقاف سنة 1292 سمى الشيخ محمد بيرم رئيسا والشيخ احمد الورتانى كاهية له · ورجع الى تونس ليقرىء دروسه العالية بجامع الزيتونة ويباشر أشغاله الهامة بجمعية الاوقاف · فاستمر فى مركزه الى جنب الشيخ بيرم فى الدور المشرق وفى الدور المظلم الى أن كانت قضية استحكام الخلاف بين الشيخ محمد بيرم وبين الوزير مصطفى بن اسماعيل و اضطرار الشيخ محمد بيرم الى مغادرة البلاد التونسية بصفة وقتية فى الظاهر حاسمة فى نفس الأمر · وقدر ما عسى ان يبنى على خروجه من دسائس تعمل على جلبه قهرا باتهامات باطلة ترجع الى مسؤولية عن المحاسبة على أموال الاوقاف فاحتاط لذلك

بالعمل على التحصيل على براءة سريـــة تنص عــلى أن الكاهية تسلم مفاتيح الخزائن من الرئيس بعد محاسبة برئت بها ذمة الرئيس . وانتجت أن الدولة هى المطلوبة لخزينة الاوقاف بمقتضى أذون دفع من الوزير الاكبـــر امتنع القابض العام من تصريفها * .

(*) الثريا السنة السابعة ، عدد 41 ، افريل 1950 .


شيخ الاسلام محمد الشاذلي ابن صالح

شيخ الاسلام محمد الشاذلى ابــن صالــح

ان من اثمن ما خلف القرن الماضى لهذا القرن بل من اعز ما تمتاز به هذه البلاد التونسية فتأخذ المكان الأعلى الذى لا تسبق اليه بين اقطار العالم الاسلامى تلك الطبقة العالية من رجال الفقه التى ثبت اصلها ورسخ عرقهــا وعمت شهرتها ، وعلت قيمتها بما أخذت على نفسها من انقطاع لمصادر الفقه الاصلية ودواوينه الكبرى وانكباب على ضبط نتائج تلك الكنوز وتحقيقها وبحثها وتمحيص بعضها ببعض ، والتعمق بالنظر فيها نظر المتفقه المتطلع الى المدارك ، والحريص على تطبيق الأصول على الفــروع ثم التوفر على تحقيق صور النوازل العارضة فى القضاء والفتوى ، وحسن مراعاة ما يكتنفها من الأحوال العرفية والمصالح الاجتماعية مراعاة تحملهم على شدة التحــرى وعظيم المشقة فى تنزيل أكثر النصوص الفقهية انطباقا على النوازل العارضة واتمها تحقيقا للمصالح فى وقائع الأحوال ، بما جعل أسماء هؤلاء الأعلام يكــون سلسلة ذهبية مرتبطة الحلقات ، من عهد الدولــة الحفصيــة الى

الامس القريب ، لا ترى فيها إلا يواقيت من أعلام الاسلام شرفت بهم هذه الاقطار الافريقية ، وطاولت ممالك الدنيا قديمها وحديثها بمعنى التفقه الحقوقى والرشد القضائى، واليقظة الخالصة لضمان مصالح الافراد والجماعـات ، وإقامة قسطاس العدل المركوز محوره على قواعد الدين الحنيف ، والماخوذ تصرفه بالنفوس الحرة والضمائـــر الطاهرة والايدى النقية • ولو أن البلاد التونسية لم يبق لها من تراثها الا اسماء هؤلاء الاعلام لكفاها فخرا يعرف بها فى المشرقين ، ويعلى ذكرها فوق الخافقين ، حين تحيى الرجال الذين لم يزل العالم الاسلامى باسره مستضيئـا بأقوالهم واعمالهم فى قضاء وفتوى يدين الله بها كـل متحر لحكم الحق بنفس طيبة مطمئنة • فترك رجالا من طراز ابن عرفة والغبرينى وابن نـاجـى والقلشـانى والرصاع وعظوم وسويسى والمحجوب والتميمى والشريف وبيرم وابن عبد الستار وابن الخوجة وابن سلامة وابن الطاهر واللطيف والنيفر والبنا وابن عاشـور وكريـم وابن الشيخ والنجار وابن القاضى • لذلك أجدنى حـين أتناول بالترجمة الشخصية العظيمة التى هى موضـوع ترجمتنا أكون واثقا بانى قد اخذت القرن الرابع عشر من ناحية هى اجدر النواحى بان تمثل البلاد التونسية فى هذا القرن ، سابقة غير مسبوقة ، مكينة فى مقامهـا

الفقهى علما وقضاء ، على اركان ثبت اساسها عريقا فى الاصول التونسية الاسلامية البحتة • وكان تاج فخارها وعنوان انتصارها فى اسم شيخ الاسلام محمد الشاذلى ابن صالح • فقد كان هذا السيد الشريف منحدرا من ارومة كريمة ، ارومة طهر وصلاح ، تتفرع عن النبعة الزكية النبوية ، من طريق عائلة صوفية شهيرة بالفضل ، معتقد فى صلاحها ، هى عائلة سيدى بو عزيز ابن الشيخ بالريش ، الوافدة على الحاضرة التونسية اثناء القرن الحادى عشر ، من عوالى جبال السلسلة الاطلسية فى اقصى الجنوب التونسى • وقد كانت ولادة هذا الفاضل فى حدود سنة 1225 • ونشأ فى وسط المرءوة والاحتشام على منهج تربية كان مسنونا لاخراج امام من ايمة الدين مثله ، كما كان الكثير من اهل الفضل يعتنون فى تربية اولادهم باخراج فحل من فحول العلوم الاسلامية ، على منهج كفيل بذلك من مراحله الاولى فى التوجيه والمباعدة • فاتم تعلمه الابتدائى على المحور القرآنى ، ثم التحق بجامع الزيتونة الاعظم والمدارس المتصلة به ، فاخذ عن العلامة الفقيه العظيم حجة القضاء والتوثيق شيخ الاسلام اسماعيل التميمى • وكان من طلائع سعده أن ادرك هذا الطود فى السنين الاخيرة من حياته ، فابتدأ تخرجه عليه كما اخذ عن الامام الاكبر شيخ الاسلام ابراهيم

ابراهيم الرياحى ، وعن العلامةالشهير شيخ الاسلاممحمد بيرم الثالث ، وعن العلامة الفقيه الامام القاضى محمد البنا ، وعن الاستاذ المربى العلامة محمد ابن ملوكه ·

ولعل اوثق هؤلاء الشيوخ صلة به هو شيـــخ الاســلام بيرم الثالث · فلقد كتب له فى اجازته « لمن لازم العبد الضعيف السنين العديدة فى كتب مفيدة » ·

وهذه الاجازة هى التى وصلت سند مترجمنا باجازة الشيخ عبد القادر الفاسى الشهيرة المنقحة الجامعة من طريق شيخ الاسلام احمد المكودى عن الشيخ احمد بن مبارك السجلماسى والشيخ على المرسيشى ·

وهى التى عمت بها اجازة الشيخ عبد القادر الفاسى فى الاسانيد التونسية باجازة مترجمنا بها لاثنين مــن تلاميذه هما العلامة المفتى عمر ابن الشيخوالعالمالوزير محمد العزيز بو عتــور ·

ولما انتصب للتدريس امتاز زيادة على الهمة العلمية ووفرة النتاج الدراسى بسلوك منهج استقامة وصــــلاح جعل المهرع اليه فى التربية وتطهير النفوس كالمفــزع اليه فى تحقيق مشاكل العلوم فكانت لــه مــع دروســه

بجامع الزيتونة الاعظم وبالمدرسة الحسينية الكبرى حلقات ذكر وتذكير تنتظم بالخلوة الشاذلية بمسجد سوق البلاط، طار بها ذكره فى النجاح فى التربية المزدوجة للافكار والارواح بما لفت اليه انظار الدولة عند تاسيس المدرسة الحربية بباردو تاسيسا ثانيا فى عهد المشير الثانى المولى محمد باشا. فانتخب مدرسا ومشرفا على تربية المهيئين لقيادة الجيش التونسى. وكان له اثر عميق فى تكوينهم الدينى والنفسى يشهد به الذين شهدوا دروسه العالية فى المكتب الحربى بباردو. وقد سمى قاضيا بباردو فى تلك الفترة على الطريقة المالوفة يومئذ فى تسمية قاض بباردو يحضر جلسات المجلس الشرعى الأعلى التى تنعقد بحضرة الامير.

وفى 1277 انتقل الى خطة مفت بالحاضرة اى عضو اصلى فى المجلس الشرعى الاعلى، وهنالك ابتدأ الطور الهام ذى الاثر الخالد فى ترجمة حياته.

فلقد آبت له همته العلمية العالية ومكانته التى اعطاه اياها تخرجه عن اشهر ايمة القضاء الشيخ اسماعيل التميمى الا ان ينظر فى النوازل نظر التحليل للواقعة

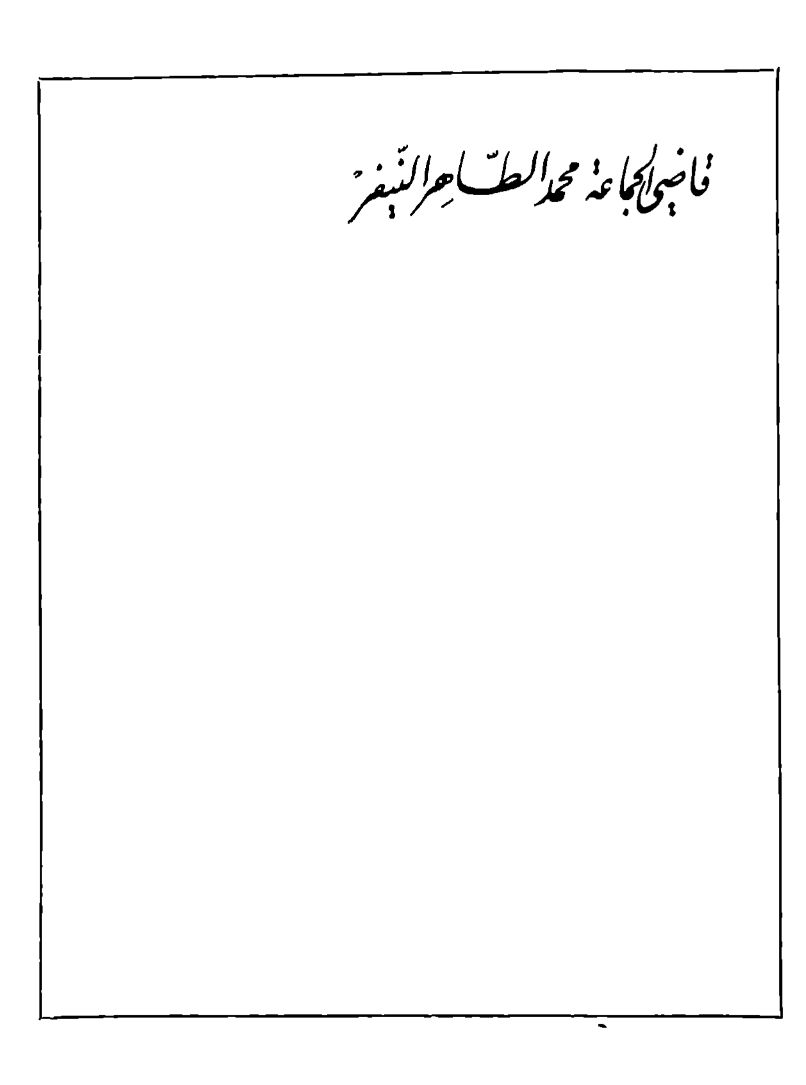
و تحقيقها و نظر البحث فى الحكم المنطبق عليها انطباقا محكما • فكان ذلك عاملا فى توجيهه الى تحرير مسائل فقهية مهمة تحريرا تحقيقيا عاليا يبتدى من نظرياتها الاصلية و ينتهى الى صورة انطباقها الماثلة بين يديه •

وكانت الخلافات الحادة كثيرا ما تنشب بينه و بين اقرانه فى المجلس فيحمله ذلك على تعليق تحارير فقهية جدلية عالية تكون من كل تعليق منها رسالة مهمة بما خلف به مترجمنا وراءه مجموعة عظيمة نفيسة من الرسائل الفقهية ذات الاعتبار العظيم •

وفى سنة 1200 انتصب رئيسا للمجلس الشرعى المالكى وكبيرا لاهل الشورى ، و هو منصب مشيخة الاسلام • فزادت نفسه اليقظة شعورا بعظمة مسؤوليتها فى العناية بالنوازل ، وكانت مجالات الانظار كثيرا ما تسلك به مسلكا مخالفا لشيوخ المجلس لا سيما العلامة المفتى الشيخ محمد الشاهد و العلامة القاضى الشيخ محمد الطاهر النيفر • فكان ذلك باعثا على تحرير رسائل و تقارير ومراجعات هى من انفس الاثار الفقهية الجديرة بالنشر اعانة على توجيه النظر القضائى فى المحاكم التونسية •

وقد كان من آثار هذه المنازعات العلمية ان اصبح الخلاف المستحكم المستفحل بين رجال المجلس المالكى مدعاة شغب وتعطيل وقال وقيل بما ادركت معه نفسه الابية ان الخير فى اعتزاله لمنصب مشيخة الاسلام السامى، فقدم استقالته سنة 1302 . وفارق ذلك المنصب يحوطه اجلال ورفعة زاد بهما سموا وعلوا . فرجع الى جامع الزيتونة موفور الحرمة سائغ منهل التعليم الى ان توفاه الله فى ربيع الاول سنة 1308 فشيع بما يليق باهل العلم العاملين واقبل على ما اعد الله لعباده المتقين * .

(*) المجلة الزيتونية : المجلد 9 ، الجزء 4 ، 1955


قاضي الجماعة محمد الطاهر النيفر

قاضى الجماعة محمد الطاهـــر النيفـــر

هذا القاضى الشهير الذى علت سمعته بسمو الهمـــة فى الاضطلاع بمهمته العالية ، وطار صيته بالذب عـــن حرمة الشريعة و اعتزاز شانها ، هو الابن الاكبر للعلامة الكبير الشيخ محمد بن احمد النيفـــر قـــاضى تـــونس ومفتيها المتوفى بالمدينة المنورة سنة 1277 ·

و قد كانت ولادة مترجمنا فى حدود سنة 1240 ، ونشأ فى عناية والده على أخلاق كريمة وسيرة مستقيمـــة · وقد كان والده شهيرا بالصلابة فى الفضيلـــة و المتانـــة فى الدين ، واستفاد من عنايته به ادبا اسلاميا كامـــلا وأخلاقا عزيزة راسخة · فآمن بعلو مقام العلم و تشرب حرمة الشرع بما كان يرى فى والده من تحر وتورع فى قضائه وفتواه وما كان يرى من الناس لوالده من تعظيم واجلال أساسهما تعظيم العلم واجلال الشريعة · و طلب العلم بجامع الزيتونة فأخذ عن والده كثيرا وعن شيـــخ الاسلام سيدى ابراهيم الرياحى وعن المحقـــق المفـــتى

الشيخ محمد بن حمزة الشاهد و عن العالم الزاهد الشيخ احمد عاشور .

و فى سنة 1267 رافق والده فى سفره الى المشرق لحجته الاولى ، فدخل مصر و عرف بها أشهر علماء الجامع الازهر يومئذ ، و زار الحرمين الشريفين فعرف بمقام والده فى ذلك الموسم المبارك أن رتبة العلم لمن أحسن صيانتها رتبة تزرى بالملك و تتجاوز حدود الاوطان والدول . فكان ذلك السبب الاصلى فى ما رسخ فى طباعه وظهر فى تاريخ حياته من الاعتزاز بصفته العلمية و العمل لرفع السنة الشرعية فوق كل مقام و حياطتها من كل محاولة تنال من عزتها و تنزل من رفعتها .

و قد أقبل بعد اكتمال تحصيله العلمى ، بما فيه من الذكاء القوى ، على المشاركة فى الحياة العامة . فخبر استعدادات الاوساط المختلفة و ميولها ، و أعان اعانة ذات بال فى الاعمال الادارية و الاقتصادية التى كانت فى عهدة خاله امير اللواء محمود بن حميدة عزيز عامل الوطن القبلى .

كل ذلك وهو غير منقطع عن العمل العلمى استفادة و إفادة . فقد اقرأ بجامع الزيتونة متطوعا مدة طويلة .

ثم انتخب مدرسا عوضا عن والده لتنازله عن خطة التدريس اختيارا لاجل هذا الغرض فى جمادى الثانية سنة 1272 .

و قد اشتهر فى هذا الطور من حياته بالجد فى العمل و الذكاء فى النظر والمروءة العالية الحافظة للحرمة الذاتية والموجبة لتقدير ما يلقى الى أمانته من الوظائف العامة .

لذلك كان فى طليعة رجال العلم المنتخبين للقيام بمهام الاحكام الجنائية فى المجلس المؤسس بقانون عهد الأمان باسم مجلس الجنايات و الاحكام العرفية . فكان من العمد الذين قام عليهم المجلس عند تأسيسه فى صفر سنة 1277 .

وهناك عرف له ما فيه من المواهب الفطرية ، و قدر المنصفون مواقفه فى الصرامة فى الحق و حفظ حرمة القضاء والحزم فى فصل القضايا والبصر بطرق الاجراءات الشرعية . و كان اكثر الناس ادراكا لهذه المزايا فى مترجمنا الوزير العظيم خير الدين باشا ، وناهيك بصدق فراسته فى الرجال . فكان من أول أعماله أول عهد وزارته سنة 1290 انتخابه المترجم لخطة

القضاء المالكى . فقام بأعبائها فى حزم لا يعرف الكلل وصلابة لا تعرف اللين لأحد . و باشر تلـك الخطـة العظيمة بما فيها من النواحى الادارية و الاجتماعيـة والقضائية المدنية و الجنائية ، و ذاد عنها مـا توقـع دبيبه اليها من الاستضعاف والانتقاص بما اكتسى لها من الهيبة و الوقار و الشدة المتناهيـة فى إيقـاف تيـار الاستخفاف بالحرمات ، والتهاون بالحدود . فاصبح من ابتداء ولايته آنفذ أهل المجلس الشرعى كلمة و أظهرهم فى ميدان الأمر والنهى سـواء بالمحكمـة الشرعيـة أو بالكلية الزيتونية أو خارجهما فى عامة الاوساط الـتى تمت الى الهيئة الشرعية بسبب .

وأعانه على هذا الامتياز ما فى طبعـه مـن الغيـرة المتناهية على عزة مقام الشرع ، ثم ما كان لمنصب القاضى المالكى من الأنظار العامة التى يختص بها كأمر الاحتساب العام و مراقبة الاسواق و الحكم فى نوازل الدماء . فقد كان مترجمنا آخر قاض شرعى حكم بالقصاص .

فكانت له مواقف عجيبة رهيبة فى مراقبـة السيـرة الشخصية للعدول و لأهل العلم و لعامة الناس . و كانت له جرأة فى حمل الكل على الجادة لاسيما طلبة الجامـع الاعظم فى الجامع و فى مدارس السكنى . وكـان فى

وجه السلط الجائرة التى تطمع بالاستفادة من وراء التداخل فى النوازل الشرعية حصنا يلتهب نارا ·

و كان الى جانب هذا العمل العظيم الكثير المتنوع لم ينفك طول عهد الوزارة الخيرية عاملا الى جنب الوزير المصلح فى سن نظم المؤسسات التونسية النافعة · فكان عضوا فى مجلس تاسيس المدرسة الصادقية المؤسس فى ربيع الثانى سنة 1291 ، و عضوا فى لجنة ترتيب التدريس بالجامع الاعظم فى جمادى الاولى سنة 1291 · وباشتراكه تم تنظيم المحاكم الشرعية الذى صدر به الامر العلى المعمول به الى الآن فى سير المحاكم الشرعية المؤرخ فى ربيع الثانى سنة 1293 ، و نظام العدول الذى صدر به الامر المؤرخ فى ذى القعدة سنة 1292 ·

و لما انفصل خير الدين عن الوزارة واستبدل عهده السعيد عهد احترام المسؤوليات و تحديد السلط بعهد التكالب على الانتفاع و الاستخفاف بالحقوق و الحرمات والتجاوز فى حدود السلطة ، زاد المترجم قوة فى شكيمته ووقف فى وجه التيار الجديد يترصد له بادرة من الطمع فى النيل من السيادة الشرعية ليلقى على المجتمع التونسى درسا يفهم منه الخاص و العام أن حرمة الشرع خالدة لا تتبدل لتبدل الظروف ، وأن سيادة القضاء

مستعدة لان ترد كيد كل كائد لها فى نحره مهما كانت القوة التى ياوى اليها · فاذا مناسبة هذا الدرس القاسى تتهيأ على أكمل وجوهها فى الحادث العظيم الذى وقع بالمحكمة الشرعية فى رجب سنة 1296 ، والذى كان للمترجم فيه موقف مشرف لا ينساه له التاريخ · و ذلك أن تابعا من اتباع الوزير مصطفى ابن اسماعيل كان قوى التاثير فى حياته الخاصة وهو الأمير الاى علالة ابن الزاى حدثته نفسه بالتداخل من وراء حجاب فى نازلة شرعية كانت بين يدى القاضى المالكى ، فأغرى أحد الخصمين باللدد فى النازلة لددا افهم القاضى الذكى أن وراء الاكمة ما وراءها · فامر بسجن الخصم الملد فى سجن دار الشريعة · فاذا بعلالة ابن الزاى يقتحم دار الشرع و يفتتح باب السجن عنوة و يطلق سراح المسجون ·

فقابل مترجمنا هذا التجرى بموقف حازم حاسم ، وذلك بان خرج مفارقا لمحل حكمه · و حمل شيوخ الشريعة بالمذهبين على متابعته فى ذلك ، ففارقوا مجالس حكمهم وأغلقوا المحكمة وأعلنوا تعطيل الاحكام لما نال حرمة الشرع من الاهانة بواسطة تابع الوزير ·

فارتاع لهذا الحادث الامير والوزير ، وانتبه الشعور

الذى كان خامدا فى أهل البلاد · فاهتموا للحادثة اهتماما عظيما وقرر المشير محمد الصادق باشا تجريد علالة ابن الزاى من رتبته العسكرية ونفيه مسجونا الى حصن جربة، وأرسل وزيره للقلم والاستشارة يعلم الشيوخ بما وقع من عقاب الجانى حفظا لحرمة الشرع · فأظهر الشيوخ عدم الاقتناع بهذا الامر الجزئى وأعلموه أنهم لا يرجعون الى مباشرة القضاء الا اذا كانت اعمال الحكومة سائرة على منهج كفيل بحفظ الحقوق وايقاف المامورين عند حدود ماموريانهم ، و ذلك بتشكيل مجلس تشريعى يتولى مراقبة جميع الموظفين و يردعهم عما يتعدون به حدود وظائفهم ·

و فعلا انعقد حول الملك مجلس شورى على مثال مجلس شورى الملك الذى اقتضاه قانون عهد الامان ووقعت المبادرة بجمعه ولم يمض على حادث المحكمة الشرعية خمسة عشر يوما · و أيقن الوزير ابن اسماعيل أن روح هذه الحركة هو القاضى المالكى فحاول عزله ، ولكنه وجد نفسه امام صخرة من الحصانة القضائية و النزاهة لا تنال الا بما يثير السخط العام الذى كان يعمل جهده لتفاديه ·

و لما انتصبت الحماية الفرنسوية ، وصعد العرش

الحسينى المولى المقدس على باشا الثالث وأسند وزارته للعلامة الشهير الشيخ محمد العزيز بوعتور وجد صاحب الترجمة من طرف الامير و وزيره كامل الاعتبار والتأييد • وكان الوزير معه على تمام الاتفاق فى سلوكه الشريف ، فكان يبدى له الاعجاب و الاكبار و يبذل له النصر والمؤازرة و يشجعه على المضى فى مباشرة وظيفه على ما اعتيد منه من العزة و الاستقلال و التباعد من مواقف التقرب و الخضوع ، حتى أن سائر شيوخ المجلس الشرعى ربما كانوا يجدون شيئا من هذا التماضد المطرد بين القاضى و الوزير •

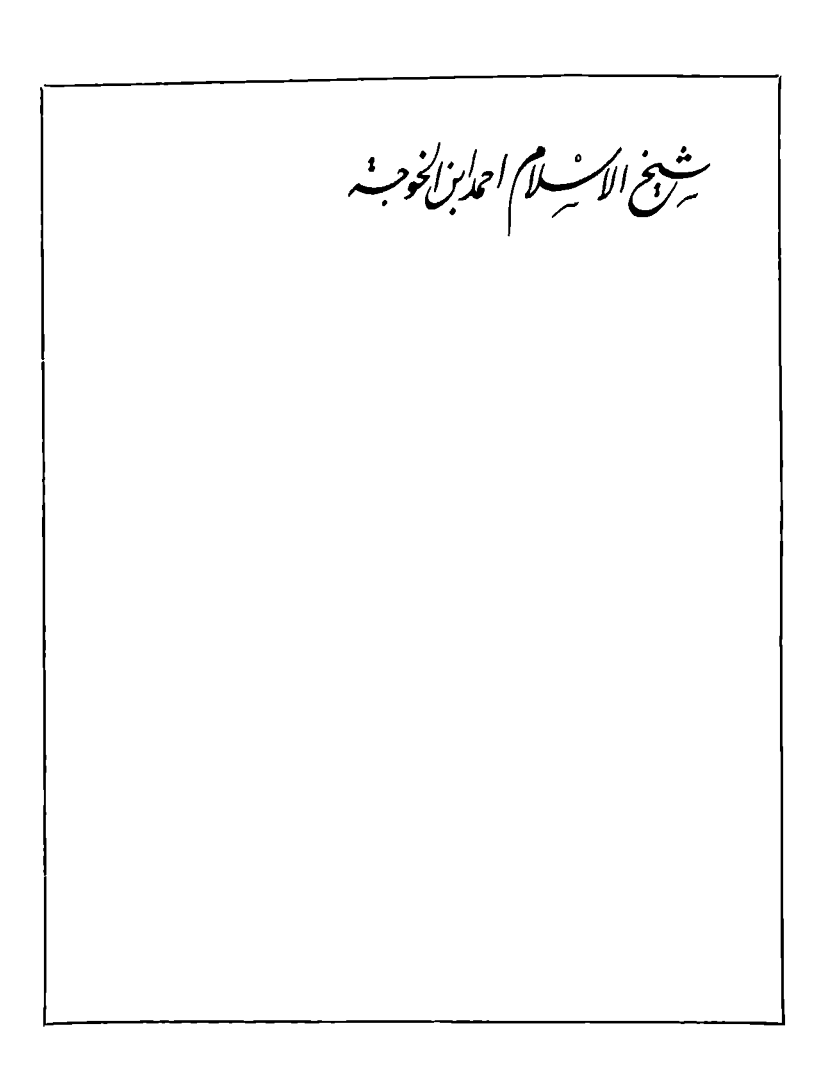
وكان المولى على باشا يخصه بضروب من المجاملة والاجلال على قلة تردده عليه ، لما يرى فى ذلك الاحتراز من المعانى الصالحة المعينة على دوام هيكل الفضل واسترسال معين العدل •

واحتفظت به الدولة فى منصب القضاء احتفاظ مشفق ضنين فلم يكن يدور بخلد ذى منصب سام من مناصب الدولة التفكير فى شأن خطة القضاء المالكى ما دام الشيخ الطاهر النيفر قائما بها حتى كانت منيته القاطعة لهذا القرار ، فتوفى فى سنة ١٣١١ ، و كان وقع موته شديدا

وموكب جنازته مشهودا · وكان دفنه بتربة آلـه مـن مقبرة الزلاج ·

رفع الله مقامه فى أهل النجاة ، كما رفع منار الشريعة فى الحيــاة * ·

(*) الثريا : السنة الاولى ، عدد 10 ، ص : 2 ، نوفمبر 1944 ·


شيخ الاسلام احمد ابن الخوجه

شيخ الاسلام احمد ابن الخوجه

لقد اصبح اسم الشيخ أحمد ابن الخوجه عنوانا شهيرا عن معنى العلم الصحيح و العقل الراجح و المنزلة السامية فى النبوغ العلمى الناطقة بقول ابى العلاء :

و إنى و إن كنت الأخير زمانه
لآت بما لم تستطعه الاوائل

فكذلك هو فى ذاته ، وكذلك كانت شهرته فى البلاد قاطبة بله البلاد التونسية ٠

فحسبنا فى التعريف به أن نورد أطوار حياته الجليلة واقفين منها على معالم النبوغ و مظاهر العظمة بما يلقى عليها شعاعا منيرا ٠

نشأ هذا المترجم فى حجر العلم و الرئاسة الدينية ، تكنفه عناية والده العلامة الشهير شيخ الاسلام محمدابن العلامة القاضى احمد ابن الخوجة ٠ وقد كان هذا الوالد العظيم من أكبر علماء عصره وأرسخهم قدما فى مناهج

السلوك الشرعى الصالح ، واعلاهم منزلة عند الخاصة من تلاميذه والعامة من رواد فضله • توفى سنة 1270 • وكانت ولادة مترجمنا فى شعبان سنة 1245 • وكان أكبر أولاد أبيه • فأقبل على تربيته و تعليمه اقبالا كليا فلم يخله من تاديب و مصاحبة ، وارشاد ومراقبة ، وتعليم ومجاذبة ، حتى ظهرت استعداداته الفطرية مصقولة بالتربية البيتية الراقية • فاتصل بدروس الاعيان المشار اليهم من علماء العصر ، و كان اكثر أخذه و معظم استفادته من دروس والده العلامة بجامع محمد صاحب الطابع ، كما اتصل بدروس الامام العظيم سيدى ابراهيم الرياحى وروى عنه بالاجازة • وأخذ عن العالم الاديب شيخ الاسلام محمد بيرم الرابع بالمدرسة العنقية ، و عن العلامة المحقق الاستاذ سيدى محمد ابن عاشور بزاوية جده خارج باب المنارة • واخذ بجامع الزيتونة عن الفقيه العلامة قاضى الجماعة محمد بن سلامة ، والعلامة المفتى محمد بن حمزه الشاهد ، و الاستاذ الكبير قاضى الجماعة محمد النيفر ، و العلامة المحقق قاضى الجماعة محمد الطاهر ابن عاشور • وبدا منه فى طور الطلب ما أثلج صدور هؤلاء الاساتذة العظام بما رأوا من قرة عين أستاذهم ابى عبد الله ابن الخوجة فى ولده النابغ المشتد الى مقامات العلماء المعدودين •

فتقدم باشارة شيوخه ورضى والده للتدريس وهو دون العشرين من عمره ، ثم وقع ترسيمه مدرسا رسميا فى ذى القعدة سنة 1266 .

وقد ظهر منه فى تدريسه ما بهر الالباب ، من العجب العجاب ، فخامة القاء ودقة تحرير ، و بعد غور فى التحقيق ، و براعة اسلوب فى الايصال والتقرير . ودأب على هذا المسلك البديع خمسة واربعين عاما تناول فيها تدريس أهم الكتب المتداولة بتدريس الجامع . و كان آخر دروسه و أشهرها درسه لتفسير البيضاوى الذى استمر على القيام به بعد ولاية مشيخة الاسلام خلافا للعادة المالوفة من نزول مشائخ الاسلام على حكم القانون فى الانقطاع عن التدريس . و قد كان هذا الدرس مضرب الأمثال ، ومحط الرحال ، اجتمعت اليه الطبقات العديدة من اهل العلم أساتذة و طلبة ، و ظهر فيه من غزارة علم المترجم وقوة مداركه ومقدرته التدريسية ما سارت به الركبان .

و قد كان لملكته البيانية مظهر آخر الى جانب المظهر التدريسى هو مظهر الخطابة الوعظية . فلقد سمى خطيبا بجامع يوسف صاحب الطابع سنة 1278 ، ثم نقل الى جامع محمد باى المرادى خلفا عن والده عند وفاته سنة 1279 .

فكانت له على هذين المنبرين خطب شنفت الأسماع وأحيت القلوب ، يلقيها ارتجالا فى راحة و بساطة تعبير ، وايجاز و تقصير ، حتى عد أفصح خطباء عصره بلا منازع كما عد من أفصح مدرسيه • و قد دعت منزلته العلمية البادية على شبابه و نبوغه البارق فى العلم والفهم الى اختيار المشير الثالث محمد الصادق باشا اياه صدر ولايته لخطة القضاء الحنفى ، فارتقاها فى ربيع الاول سنة 1277 عوضا عن العلامة الشيخ مصطفى بيرم• فقام بأعباء هذه الخطة بما اقتضاه علمه الجزيل و ذكاؤه الاصيل فى فهم حقائق النوازل وحسن اجرائها و تنزيل النصوص الفقهية تنزيلا يطبق • و لم تطل اقامته على خطة القضاء ، فنقل الى خطة الفتيا عند وفاة والده سنة 1279 فى محرم • و فى خطة الفتيا ظهرت قيمته العالية ومداركه النادرة ، فكان نسيج وحده فى فقه الفتوى بما أوتى من الذكاء و نفاذ البصر فى القضايا المسؤول عنها، و ما اكتسب من الضلاعة فى علم أصول الفقه ضلاعة يستطيع بها تحقيق مناطق الحكم و دفع التعارض بين النصوص وترجيح الاولى منها بالانطباق على واقعة الحال • فصدرت عنه بهذا الاسلوب الفتاوى المحررة البديعة حتى توجهت اليه الانظار فى المشكلات و تطاولت اليه الرقاب فى الخفيات • وتعدت شهرته حدود القطر

الى ما وراءها من بلاد الاسلام حتى طبقت شهرته العالم الاسلامى فأصبح يقصد بالاستفتاء من أقطار المغرب و المشرق ، و يتراجع مع اعاظم فقهاء الحنفية فى عصره فتاواهم واستشكالاتهم ، فيتلقون تحقيقاته و تنزيلاته بالاذعان و الايقان • و قد تكون له من هذا المقام الفقهى العلمى مقام اجتماعى سياسى ، وذلك أن بصيرته الحادة فى تفهم النوازل العارضة و نظره العميق فى أسرار النصوص الشرعية و احاطته بأنظار اعلام فقهاء الاسلام على اختلاف مذاهبهم قد فتحت لنظره مناهج الوصول الى ادراك ما كان أغلب الفقهاء بمعزل عن ادراكه من تطورات الحالة الاجتماعية والسياسية لبلاد الاسلام ، و ما تقتضيه الاحكام الشرعية فى تلك الاطوار من الاخذ بالتنظيمات المبنية على مراعاة أصول لم تجر تقاليد الحكومات الاسلامية بمراعاتها ، و لكن قواعد الشريعة الاسلامية لا ترى فى مراعاتها بأسا • و على هذه النظرية تفرعت تحريرات عديدة للمترجم فى تأييد الاصلاحات التى أدخلها السلطان عبد المجيد على هيكل الحكومة العثمانية ، و بيان أصول الشريعة فى علائق المسلمين بغيرهم و نظام الشورى وأصول الحرية ، الى غير ذلك من مهمات الامور التى لم يزل علماء الشرق يومئذ عن ادراك كنهها بمعزل • و بمقتضى هذه الآراء كان المترجم

من آكبر المؤيدين للاصول التى بنى عليها قانون عهـد الامان والنظم الفرعية عن تلك الاصول ٠

و قد عرف له هذه المنزلة الممتازة بين علماء الاسلام و نشر سمعته فى الاوساط السياسية الاروبية صديقـه السير ريشارد وود نائب الحكومة الانكليزيـة بتونس وبالشام و نصير بث السياسة الدستورية فى السلطنـة العثمانية والساعى لاعلان الامان بتونس ٠

و قد كتب تقريرا مهما مرفوعا الى وزيـر الخارجيـة البريطانية سنة 1295 نشر فى السجل الرسمى للوثائـق السياسية لحكومة بريطانيا العظمى المعـروف بالكتـاب الازرق ٠ و موضوع هذا التقرير تفصيل نظر شريعـة الاسلام فى الاصلاحات التشريعية الدستورية التى كانت الحكومة العثمانية بصدد نشرها فى عمـوم سلطنتهـا ٠ و جعل مدار تقريره هذا على فتوى الشيخ احمد ابـن الخوجة شيخ الاسلام التونسى الذى وصفه بقوله : هـو احد مشاهير علماء الاسلام ، و له سمعة علم باصول الفقه و بعد نظر بمقتضى احوال الزمان ٠

و قد تعدت افكاره هذه منطقة الرأى الى منطقة العمل لما سمحت ظروف الحياة فى البلاد التونسيـة بالقيـام

باصلاحات ذات شأن فى نظام الحكم وشؤون الاجتماع . فكان المترجم فى طليعة العلماء الدينيين الذين اعتضد بهم خير الدين باشا فى سبيل انجاز برنامجه العظيم فشارك مشاركة محسوسة فى تأسيس نظام جمعية الاوقاف و فى اصلاح ترتيب التدريس بجامع الزيتونة ، و فى تاسيس المدرسة الصادقية . و كان الوزير خير الدين يعرف له منزلته الفائقة و يقر بما له من الأثر فى تلك المؤسسات الخالدة .

و فى السابع و العشرين من صفر سنة 1294 أسندت مشيخة الاسلام الى الشيخ احمد ابن الخوجة عند وفاة الشيخ محمد معاوية . فخلع عليها من رأيه وحزمه ووجاهته العلمية والاجتماعية ثوبا جديدا ، وقرب مقامها من منازل التاثير فى سير الامور العامة حتى كان أول من اشتهر بلقب شيخ الاسلام ، ووصف به نفسه فيما يصدر عنه من المكاتيب الرسمية ، خلافا لسنة متقدميه .

و لما انتصبت الحماية الفرنسية سنة 1298 وجدت الشيخ احمد ابن الخوجة على هذه المنزلة العظيمة من الزعامة الفكرية الدينية ، فأجلت منزلته و رفعت مقامه .

و اتثق اتصاله بواضع نظام الحماية السفير الشهير

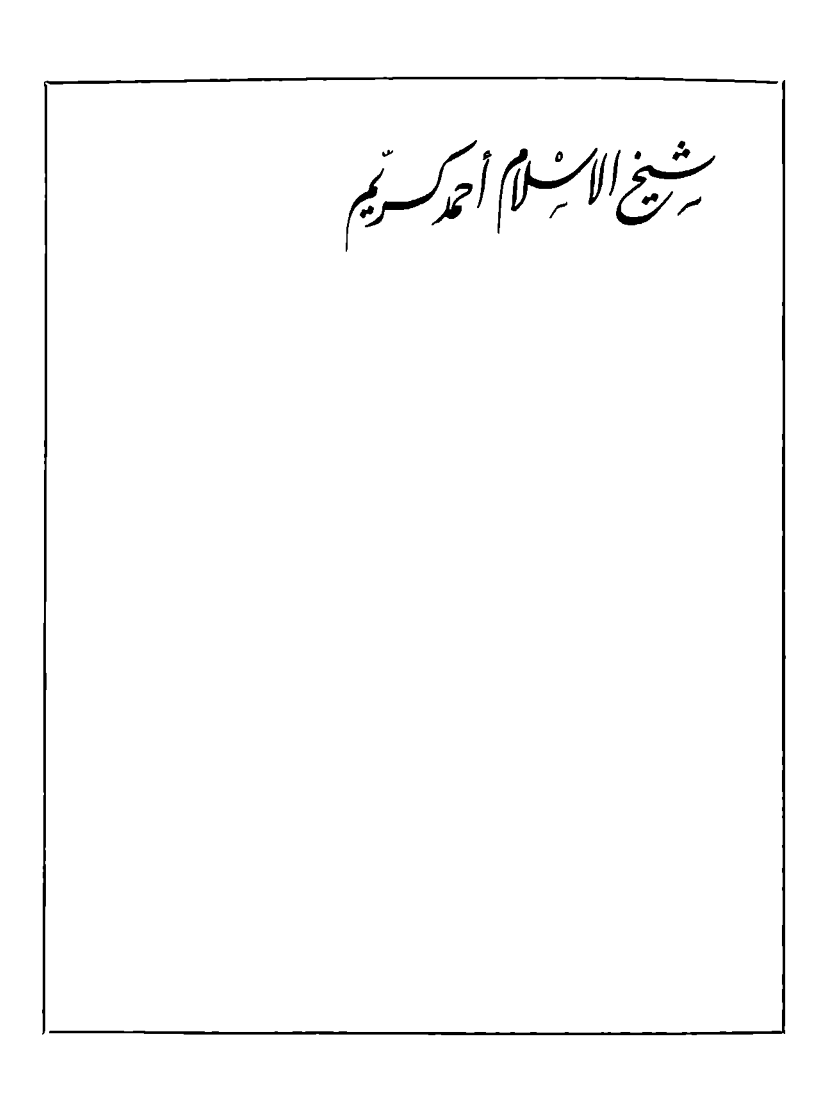
بولس كامبون فمن بعده من ممثلى فرنسا بتونس · فكانوا يتبادلون معه الزيارات ويقيمون له شواهد الوداد كما كانوا يلقون منه المعاضدة والتفهم الحق لما يراد انجازه من المشاريع المفيدة ويعلمون ما اختص به من التحلى بروح التسامح الاسلامى و حسن ادراك الامور على ما هى عليه ·

فكان بهذه الامتيازات الواسطة فى صوغ النظم التى ادخلتها الحماية الفرنسية على التشريع التونسى على قالب يتلاءم مع الشريعة الاسلامية التى هى أصل التشريع التونسى و عقيدة المتثلين له · فكان العمدة فى اللجنة التى ألفت القانون العقارى سنة 1902 برئاسة السفير كامبون ، و كان الشخصية العظمى المظهرة لنفوذ الدين فى كل مجمع موقر من مجامع الدولة الاستشارية أو الشرفية · و كانت قيمته الفكرية تظهر يوما فيوما لمارسيه من مقيمى الجمهورية الفرنسية و غيرهم من كبار الموظفين ، و اعتباره يزداد عندهم رسوخا و يرون فيه كل يوم برهانا جديدا على ما فى روح الاسلام من التسامح و الاستعداد للتناصر مع مبادىء الخير و الفضيلة وإن صدرت عن اديان أخرى وملل خارجة عن الاسلام ، كما استفاد ذلك القس لوازون الشهير بدعوته الى تقارب الاديان بعد اجتماعه بالمترجم سنة 1312 ·

وقد أقام المترجم ممتعا بادراك تام و فكر نير كامل حياته ، و لكن عوارض بدنية عطلت نشاطه العملي ، فانقطع بمنزله نحوا من ثلاث سنين لا تنقطع إفادته و مساعيه الصالحة الى أن كان المرض المودى بحياته فى منزل جوار السيدة المنوبية خارج مدينة تونس فى ذى الحجة سنة 1313 عن ثمان وستين سنة • واحتفل بدفنه على مقتضى التقاليد بحضور المولى المقدس على باشا الثالث ، وصلى عليه ببطحاء القصبة ، ودفن بتربة آله من مقبرة الزلاج •

تقبله الله قبول الأبرار • وأنزله جوار الاطهار * •

(*) الثريا السنة الاولى ، عدد 8 ، اوت ـ سبتمبر 1944 •


شيخ الإسلام أحمد كريم

شيخ الاسلام احمد كريم

هذه شخصية علمية سامية من طراز تلك الشخصيات التى أهلها العلم الصحيح لتبوؤ مقام سام فى الحياة العملية العامة ، وخلد لها شهرة فائقة فى التراث العلمى والتاريخ الادبى ، هى شخصية العلامة الطائر الصيت شيخ الاسلام أحمد كريم . وهو أحمد بن محمد بن عبد الكريم و يعرف عبد الكريم باسم جده كريم على صيغة التصغير ، و هو الذى أصبح لقبا لعائلته من بعد . وأصله من سلائل جنود الترك المنخرطين فى سلك الانكشارية بتونس . وكان محمود والد مترجمنا من اواسط الناس يشغل دكانا يبيع فيه الزبيب بسوق الفاكهة من حاضرة تونس ، و كانت هذه التجارة حرفة معهودة فى قدماء جند الترك .

وولد مترجمنا فى صفر سنة 1243 بدار والده من حومة بئر الحجار ، و هو اليوم مبتدأ نهج الباشا مما يلى بطحاء رمضان باى . وابتدأ حفظ القرآن لما بلغ الخامسة من عمره فى مكتب قريب من دارهم ، ثم على

معلم خاص بدار خاله حفيد الشيخ عبد الكبير ابن شيخ الاسلام يوسف درغوث الثانى ·

وشرع فى طلب العلم سنة 1258 · و كان فى مبدأ أمره يأخذ مبادىء النحو و الفقه الحنفى بجامع الزيتونة عن الشيخ حسن ابن الخوجة . و مبادىء التجويد عن الشيخ محمد الستارى بمحله بالحفصية . و الفرائض عن الشيخ حسن فرشيش . و التوحيد عن الشيخ محمد القسنطينى بجامع سيدى نصر بن عالية . ثم أخذ النحو بشرح الاشمونى على الخلاصة و البلاغة بشرح السعد المختصر على التلخيص عن الشيخ محمد ابن عاشور . و المطول على أخيه الشيخ محمد الطاهر بحاشية عبد الحكيم و حاشيته عليه المسماة بالغيث الافريقى · كما أخذ عنه الاصول بشرح المحلى على جمع الجوامع و حاشيته عليه والفقه المالكى بشرح الخرشى على المختصر الخليلى . و نبذة من صحيح مسلم . و أخذ الدرر عن الشيخ محمد معاوية . ثم عن الشيخ محمد ابن الخوجة . وأخذ عنه صحيح البخارى مع اجازته فيه مشافهة بجامع محمد باى المرادى قبالة مقام الشيخ محرز . و حضر درس الموطأ على الشيخ ابراهيم الرياحى بداره . والبيضاوى على الشيخ محمد بن سلامة بحاشيته على خطبته وروى

عن العدل الشيخ عثمان الحشائشى الشريف كتاب الامداد لعبد الله بن سالم البصرى من طريق الشيخ محمد الصالح الرضوى البخارى ، كما يروى الصحيحين من طريق هذا الشيخ بالسند الجامع بينهما عن الفربرى بالاجازة المؤرخة سنة 1277 . و كان اكثر تحصيله واعتماده على شيخيه سيدى محمد ابن الخوجة وسيدى محمد الطاهر ابن عاشور . و هما اللذان لهج بذكرهما فى كتبه وتحاريره . و كان يلقب اولهما بشيخنا الاكبر، و ثانيهما بشيخنا القاضى الشريف .

ـ تدريسه ـ انتصب للتدريس بالجامع الاعظم بصفة مدرس من الطبقة الثانية فى ربيع الاول سنة 1265 وارتقى الى خطة التدريس من الطبقة الاولى فى جمادى الاولى سنة 1267 و أقرأ فى مدة تدريسه كتبا مهمة كفتح القدير و منظومة المحبى المسماة «بعمدة الحكام» وشرح السعد المختصر على تلخيص المفتاح وقصيدة بانت سعاد بشرحه عليها .

واستمر على التدريس بعد ولاية الفتيا و أقرأ فى هذا الطور تفسير البيضاوى والدرر والتنقيح لصدر الشريعة والمغنى والاشمونى وشرح القسطلانى على البخارى ، وهو آخر دروسه . و قد تخرجت عليه من

هذه الدروس طبقات عديدة ممن و صفهم ـ رحمه اللهـ بقوله « جهابذة نحارير و تلامذة فحول فى المعقـــــول و المنقول • فمن أقدم هذه الطبقات العلامة الشيخ محمود بيرم ـ رحمه الله ، و من أوسطها العلامة المفتى الشيخ محمود ابن محمود رحمه الله ، و هو من اوثقهم صلـــة بالمترجم واشدهم تاثرا به ، و شيخنا الاستاذ الاعظم شيخ الاسلام سيدى محمد بن يوسف رحمه الله ، و العلامــة القاضى الشيخ اسماعيل الصفايحى ، و العلامة الشيـخ محمد جعيط ، والعالم الكاتب الشيخ محمد السنوسى ، و العالم الكاتب الشيخ حمودة تاج وأخوه العالم الكاتـب الشيخ عبد العزيز رحم الله جميعهم • ومن احدث هذه الطبقات أستاذنا الجليل العلامة المفتى سيدى ابو الحسن النجار حفظه الله •

حياته العائلية ـ تزوج فى حدود سنة 1273 بابنة خاله المرحوم محمود ابن الحاج مصطفى درغوث • و ولد لـه فيما بين سنة 1274 و سنة 1287 تسعة أولاد بين أبنـــاء و بنات و ماتوا جميعا وما بلغ أحدهم الحلم •

حياته العامة ـ كان من اكثر علماء عصره اشتراكا فى الحياة العامةـفباشر خطة العدالة منذ سنة 1263 ، و فى14 شوال سنة 1277 انتخب للمشاركة بصفة نائب رئيس فى

مجلس الجنايات و الاحكام العرفية عند تاسيسه بمقتضى قانون عهد الامان فى غير نوازل الاستحقاق و الحالة الشخصية التى استثناها الفصل الحادى و العشرون من قانون تأسيسه و أبقاها للمجلس الشرعى ٠

و قد اقتضى الفصل الثانى من قانونه أن من شروط الانتخاب العلم و الوجاهة ٠

و قد أظهر فى مباشرة وظيفه من اليقظة و سمو المدارك وسعة المعلومات ما جعله عمدة من عمد ذلك الطور الاصلاحى الزاهر ، ولفت نحوه نظر الدولة فقلدته فى شوال سنة 1280 خطة الفتيا على المذهب الحنفى مع ترقيته الى رئاسة مجلس الجنايات ٠ و استمر عليها الى ابطال المجلس سنة 1281 بعد الحوادث الشهيرة ، فتفرغ لمنصب الافتاء العظيم الشان و باشره بسعة نظر و تحقيق للمناط و نزوع الى المدارك و الانظار الاصولية ٠ و طالما استأنس لما يعتمده أو يرجحه من فروع الفقه الحنفى بما جرت عليه فتاوى المحققين من المالكية لا سيما شيخه القاضى الشريف الذى درس عليه الفقه المالكى ٠ لذلك كان رحمه الله مرجع المستفتين فى الصور الغريبة والمسائل الحادثة التى قضى بها تطور البلاد يومئذ ٠ و كان معتمد الدولة فى كثير مما جرى عليه عملها من

التصرفات الشرعية و من القوانين • و له فتاو كثيرة مهمة فى الارشاد الى صور أعمال الكتائب التوثيقية المحررة على اصول المذهب المالكى فى سير النوازل لدى القضاء الحنفى • و فى ثامن ذى الحجة سنة 1313 تقلد مشيخة الاسلام خلفا عن العلامة شيخ الاسلام احمد ابن الخوجه • وكان أول من لقب فى نص ظهير ولايته بشيخ الاسلام • فباشرها بمقدرة فائقة و تدقيق للاجراءات الحكيمة والبراعة فى تطبيق احكامها ، و جمع كلمة رجال الفتوى بخلقه العظيم • و قد أعان رحمه الله بحيثيته السامية على تنشيط الحركة الفكرية ، فكان من المنشطين للجمعية الخلدونية و تفضل بالانخراط فيها بصفة عضو مؤسس • و قد شارك رحمه الله فى الحياة العامة واعظا، كما شارك فيها مفتيا • وقد أولاه المشير الثالث قدس الله روحه خطيبا بالجامع الحسينى المعروف بالجامع الجديد فى رمضان سنة 1284 ، فقام على منبره بالوعظ البالغ والقول الرشيق ، وتناول بخطبه الوجيزة البديعة وقائع الاحوال الجارية يومئذ بالبلاد •

ـ وفاته ـ لم يكد يمضى العام على ولايته مشيخة الاسلام حتى امتدت يد المنية تهدم بموته علما من أعلام الدين • فقد أصيب رحمه الله بداء السكت فجأة يوم

الخميس 3 محرم سنة 1315 بمحل اقامته الربيعى بمنوبة . و فى ضحى الاحد السادس من المحرم الموافق للسادس من جوان 1897 ختمت أنفاسه الزكية . و فى مساء ذلك اليوم نقل جثمانه الطاهر الى منزله بتونس حيث احتفل بجنازته صباح الاثنين فى موكب مشهود شهده ملك البلاد المولى المقدس على باشا الثالث . و كان دفنه بمقبرة الزلاج .

ـ **اخلاقه وآدابه** ـ كان عالى الهمة واسع الصدر طلق المحيا عظيم المهابة سمحا كريما قريب النجدة رقيق الذوق طاهر الذيل بعيدا عن التكلف ميالا الى مجالس الادب و الانس . يعد من أعيان ادباء عصره شعرا وترسلا . وأبدع آثاره الشعرية مقاطيع ست فى وقائع أحوال تغلب عليها النزعة الغزلية ، و تدور فيها أسماء الاشخاص الاحياء و الاماكن الماثلة بما يناسب الاغراض بطرق التصريح و التلميح والتورية و التطريز .

فمن بديع شعره قوله موريا :

قالوا : بك الحولا التى   عن حبها لم تعدل
قلت : اعذروا أو فاعذلوا   لا حول لى فى الاحول

و من الطف شعره و اسيره القطعة المطرزة المشهورة عند المنشدين ، و طالعها :

تمتع بها واخلع عذارك في الهوى

ودونك من ثغر المليحة ما حوى

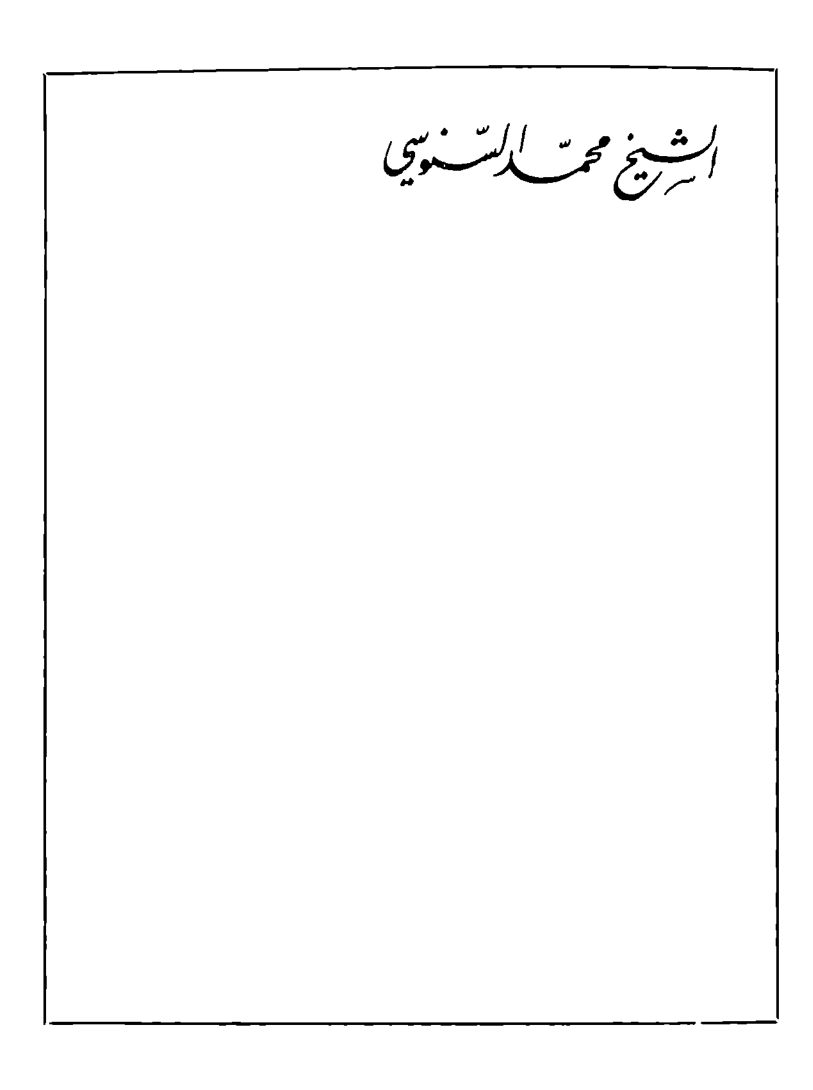
و من بديع نثره قوله في خطبة شرحه على بانت سعاد :

« هذه سواجع الحانى بالثناء عليك صادحة ، و هواجع اجفانى لسماء نيلك طامحة . وبوارق عرفانى بالتقرب اليك طافحة ، و سوابق آمالى بريق تهتانك غادية رائحة»

ـ **تآليفه** ـ كان من أكثر رجال عصره انتاجا و أميلهم الى التدوين • فخلف تراثا طيبا من تحاريره العلمية فى التفسير و الحديث و الفقه و المواعظ و البلاغة و النحو و الادب • فله في التفسير « نسيم السحر فى تفسير ما أعرب الازهرى من السور » و له في الحديث نحو العشرين تعليقا على أحاديث من صحيح البخارى ألقاها بدروس الاختام الرمضانية بالجامع الجديد • و له في الفقه « الكنوز الفقهية على متن المحبية » وسماه ايضا « عدة الاحكام على عمدة الحكام » فى جزأين ، شرع فيه على عهد المشير الاول وأتمه بعد الثلاثمائة . ومجموع فتاواه قبل مشيخة الاسلام سماه «الفتاوى الاحمدية» ،

و رسالة فى المحاكمة بين الشيخ لطف اللـه و الشيـخ البارودى فى مسالة قضاء الفوائت ، و له فى المواعـظ مجموع خطبه ، وله فى النحو مزاهر المواكب على زواهر الكواكب و هى حاشية على حاشية الشيخ ابن سعيد عـلى الاشمونى جمع فيها تقريرات شيخه سيدى محمد ابـن عاشور و آخيه سيدى محمد الطاهر ، و له فى البلاغـة حاشية على خطبة مختصر السعد ، و له فى الادب شرح «بانت سعاد» و اسمه «حامى الحمى بشرح قصيدة كعب بن زهير بن ابى سلمى» ، وديوانان لشعره سمى أحدهما «السحر الحلال» ، و ديوان لاشعار شيوخه . و أكثر هذه الكتب مبيضة بخطه الجميل . رحمه الله رحمة واسعة ، وتقبله قبول الرجل الذى أوتى الحكمة فهو يقضى بهـا ويعلمها الناس * .

(*) الثريا : السنة الثانية ، عدد 2 ، فيفرى 1945 .


الشيخ محمد السنوسي

الشيـــــخ محمـد السنوسى

ان الحقب التاريخية اذا اخذت باعتبارها تراثا خالدا، سارى الوجود فى الازمان المتسلسلة بعدها ، نفضت عنها الظروف والمؤثرات والانفعالات والعوارض والملابسات، فتمحضت لوجودها الجوهرى المجرد المصفى البـادى فى مجموعة الحوادث والاطوار واعلام الرجـال والنتـاج الفكرى والنتاج الادبى ، فانه يصبح حينئذ لمسجل التاريخ ان يجد اسماء عظيمة من اسماء الرجال تتصل اتصـالا جوهريا بتلك المجموعة فى كامل عناصرها حتى يصبـح احد تلك الاسماء اصدق عنوان على الحقبـة التاريخيـة التى يريد تحديدها تمتزج فيه اطوارها ومظاهر نتاجها حتى لا يمكن ان تستحضر مجموعة متلاقية الا تحب ذلك العنـوان .

وكذلك نرى الحقبة من تاريخ البلاد التونسية ، التى تقوم على عنق القرنين الثالث عشر والرابـع عشر . وتتصل بالمسألة الاسلاميـة الكبـرى ، بما فيها مـن الاصلاحات الخيرية واحوال ابن اسماعيـل والاحتـلال

الفرنسي ، ومن نهضة العلم وزهرة الطباعة والحركات السياسية وصلات التمدن الغربى وتطور النظامين القضائى والادارى ، هى حقبة لا يجد الدارس الموفق لتاريخ البلاد التونسية عنوانا اوضح ولا اجلى ولا ادق من ان يدعوها باسم « الشيخ محمد السنوسى » .

فلقد ولد هذا العبقرى سنة 1266 بمدينة تونس فى قلب الوسط العالى . فهو حفيد قاضى الجماعة الفقيه العلامة الشهير الشيخ محمد السنوسى المتوفى سنة 1255 مؤلف كتاب « لقط الدرر فى العمل المشتهر » كان والده من افاضل عدول الحاضرة ، ولى القضاء بجبل المنار .

فمترجمنا هو محمد بن عثمان بن محمد السنوسى .

تعرف عائلتهم فى الاصل بعائلة ابن مهنية . وهى عائلة من الكاف . وتسمى جده القاضى باسم محمد السنوسى على اسم قطب العلم والصلاح بالمغرب فى القرن التاسع سيدى محمد السنوسى الحسنى صاحب التآليف الشهيرة .

وكانت نشأة مترجمنا نشأة نزاهة وجد وتوفيق على مقتضى مكانة بيته فى وسط الفضل والمروءة .

والتحق بجامع الزيتونة الاعظم فبدت نجابته الفائقة

ومواهبه الخارقة واختلط باعلام النهضة الفكرية والتدريسية فى ذلك العصر شيخ الاسلام احمد ابن الخوجة ، وشيخ الاسلام سالم بوحاجب ، والشاعر الكبير العلامة المفتى الشيخ محمد قابادو والعلامة الشيخ الرئيس محمد بيرم والعلامة الرئيس الشيخ احمد الورتانى . فبلغ بهم ذروة الكمال العلمى واشتهر اسمه فى اوساط العلم والتدريس . وبكر بدافع نبوغه الوثاب الى الانتصاب لالقاء الدروس قبل ان تكمل له شروط الانتصاب القانونى بالجامع الاعظم . فكانت دروسه فى مساجد من الحاضرة مظهرا لما اوتى من المواهب العجيبة فى سعة العلم ومتانة الفهم والفصاحة البديعة المنوال العزيزة المنال . وكانت ملكته الادبية مع ذلك اسمى واظهر من ملكته العلمية (2) فقد اشتهر بسرعة التحرير وسعة المطالعات التاريخية والادبية والموهبة الشعرية الجيدة والملكة الانشائية الرفيعة الى ما اوتى من الهمة والنشاط وسرعة الانجاز بما جعل التآليف والتحارير الصادرة عن قلمه السيال مكونة لاكثر ما صدر عن فرد فى ذلك العصر من آثار المعرفة ناهيك بكتابه الممتع الذى سماه « مسامرات الظريف بحسن التعريف » وجعله مشتملا على تراجم القضاة والمفتيين وايمة جامع الزيتونة الاعظم ، ومجموعته الفريدة للادب التونسى التى سماها « مجمع

الدواوين التونسية » واستوعب فيها شعر نحو الخمسين فحلا من فحول الشعر ، منها الجزآن اللذان خصصهما باستاذه محمود قابادو وامتازا بالطبع عن بقية المجموعة، والرحلة الحجازية فى ثلاثة اجزاء لم تطبع، والاستطلاعات الباريسية مطبوع ، وكتاب مطلع الدرارى بتوجيه النظر الشرعى على القانون العقارى الذى نحا فيه مناحى بديعة فى تحقيق المناط الفقهى ، وقد طبع على نفقة الحكومة التونسية . وكثير من الرسائل فى مختلف الشؤون والمسائل .

وله الشعر العجيب فى الاغراض المبتكرة التى من اهمها غرض الاشادة بالحضارة الغربية ومبتكراتها العلمية التى وضع فيها قصيدته النونية

ارايت كيف تقارب البلدان بالمزجيات جرت على القضبان

وهى فى نحو مائة وعشرين بيتا . وقد كتب عليها شرحا .

وكان من ذيوع شهرته وانتشار صيته ان دعى للاشتراك فى تحرير دائرة المعارف التى تولى تاليفها العلامة بطرس البستانى ، فحرر فيها فصولا تتعلق بالتاريخ التونسى الحديث .

ولم تكن حياته العلمية تقل اهمية عن حياته الفكرية

والادبية ، ولعلها التى كانت غالبة حتى فصلت بينه وبين الغايات الانتهائية فى ميادين العلم التى كان مهيئا لها بنبوغه العزيز المثال ٠

فلقد دخل غمار الحياة العامة فى اثر استاذه وصديقه الشيخ محمد بيرم عند انتصاب الوزير خير الدين ٠ فكان للشيخ محمد بيرم عضدا وقلما ٠ فعند تاسيس جمعية الاوقاف سمى الشيخ بيرم رئيسا والشيخ السنوسى كاتب مجلس الجمعية ، وفى المطبعة الرسمية سمى الشيخ بيرم ناظر المطبعة والشيخ السنوسى محررا لجريدة الرائد الرسمى التونسى ٠ فاتصل بذلك اتصالا وثيقا بمركز السياسة التونسية وقويت علائقه بالوزير خير الدين وحركته الاصلاحية ، كفاك انه كان يمثل قوة التحرير والدعاية بين عناصر تلك الحركة ٠

وبواسطة استاذه الشيخ محمد بيرم اتصل بالبيت المالك ، فعهد اليه بتربية وتعليم الامير الجليل المقدس محمد الناصر باشا ، فكان هو الذى اخرجه للتاريخ على ذلك المثال العجيب الذى كان به ــ قدس الله روحه ــ طراز البيت الحسينى وغرة التاريخ التونسى الحديث واستمر امتزاجه به الى وفاته ٠

ولما بدأ التصدع يتناول الواجهة الخيرية بانشقاق افراد من اعضاد الوزير خير الدين كانوا ينتقدون عليه تأخره عن تنفيذ ما كان مقررا من نصب المجالس الشورية ـ منهم الوزير حسين والشيخ محمد بيرم ـ كان مترجمنا من الافراد المنشقين • وكانت له فى ذلك مواقف حادة مع الوزير انتهت احيانا الى منعه بروز مقالات كان يحررها المترجم لتنشر فى جريدة الرائد حاملة روح الانتقاد على الوزير •

ولما انتهى الامر بسقوط الوزير خير الدين وخروجه واستقر النفوذ بيد الوزير مصطفى بن اسماعيل كان المترجم احد الافراد الذين التفوا حول ابن اسماعيل ولعله كان يرجو ان يجد منه عونا على تنفيذ المبادى التى تحيز اليها •

وطفحت جريدة الرائد التونسى فى هذا الطور بما كان يصدر عن المترجم من مقالات فى تمجيد مصطفى ابن اسماعيل وتوجيه اعماله وتحسين مواقفه مع ان سياسته الاصلية لم تتغير ، فبقيت سياسة اسلامية جامعة مبنية على اصول جمعية « العروة الوثقى » التى اتصل بها وانخرط فى اعضائها السريين وعرف منشئيها السيد جمال الدين الافغانى والشيخ محمد عبده •

ولما تخلى مصطفى بن اسماعيل عن الوزارة اثر انتصاب الحماية الفرنسوية وتفرق الرجال الذين كانوا بارزين من حوله اعتزل مترجمنا تحرير الرائد وانفصل عن الاتصالات الدولية وخرج باثر ذلك من البلاد التونسية للقيام برحلة شرقية ربما كان يقصد من ورائها اختبار الاحوال لاختيار مقر جديد باحدى البلاد الاسلامية يأوى اليها نهائيا ٠

فخرج من تونس فى رجب سنة 1299 وقصد ايطاليا حيث كان يقيم صديقه الوزير حسين ، فاقام فى ضيافته وجال برفقته فى البلاد الايطالية واتصل بواسطته هنالك بالكاتب السياسى المصرى الشهير ابراهيم المويلحى ٠

ومكنه ذكاؤه وعقله من ان يدرك من دواخل الحياة الاروبية ما اتم تكونه فى السياسة والاجتماع ٠ فخصص بحياة اروبا جزءا من رحلته الحجازية يعتبر ارقى ما تناول به قلم شرقى دخائل حياة الغرب ، وسافر من ايطاليا الى دار الخلافة العثمانية، فالتحق هناك بالسابقين من اخوانه التونسيين الذين جدد الصفو بينه وبينهم جو الاعتزال الوزير خير الدين والوزير رستم وامير اللواء محمد العربى زروق والشيخ محمد بيرم ٠ وكانت

له مجالات جديدة مع الوزير خير الدين حول المواقف السابقة ·

وقد كان مأوى مترجمنا فى استانبول كمأوى هؤلاء السادة من قبله الى ظل الرجل الفاضل شيخ الطريقة السيد محمد ظافر ابن السيد محمد المدنى المسراتى، معتقد السلطان عبد الحميد وصفيه ونجيه · وقد أنشأ مترجمنا قصيدة فى مدح السلطان عبد الحميد بلغت اليه بواسطة الشيخ محمد ظافر وترجمت ، واحلته محل الرضى حتى عرض عليه الشيخ محمد ظافر بالحاح ان يقيم فى دار الخلافة وينشىء جريدة عربية مبدأها خدمة الجامعة الاسلامية والدعوة الى الالتفاف حول الخلافة العثمانية ، فكان ما شهده من حياة المكائد وسياسة الدسائس حاملا له على التنصل من ذلك العمل الذى كانت نفسه بميلها الطبيعى تتوق اليه ، ولعل ما شهده من احوال التجسس والتناحر والكيد وما حدثه به من ذلك اخوانه التونسيون هو الذى زهده فى الاقامة هنالك · فسافر من الآستانة فى ذى القعدة سنة 1299 الى جدة وحج فى تلك السنة وشهد تنصيب الشريف عون الرفيق فى امارة مكة ورحل من مكة الى المدينة النبوية فى اثنى عشر يوما وسعد بالزيارة النبوية وانشد عند المواجهة الشريفة قصيدة عالية النفس مطلعها :

الى خيــر خلق اللـه احدو النجائبا
والـقى عصا التسيار اذ جئت حانبا

وتمكن فى اقامته بالحرمين الشريفين من معرفة اعلام من علماء الاسلام ترصع بمعرفتهم والاجتماع بهم تاريخ حياته الحافلة ، واخذ عنهم وروى باسانيدهم،منهم علامة الهند الكبير الشيخ رحمة الله العثمانى صاحـب كتـاب اظهار الحق ، والعالم الصالح الشيـخ حبيـب الرحمـان الموسوى الهندى ، والعالم المحدث الاديب الفذ الشيخ عبد الجليل براده ، والعالم المحدث الشهير السيد على الوكرى، والعالم اللغوى الكبير الشيخ محمد محمود ابن التلاميذ التركزى الشنقيطى .

ومن المدينة المنورة خرج الى الشام مع الركب الشامى فدخل دمشق آخر صفر سنة 1300 . واجتمع فيها بالامير عبد القادر الجزائرى . وكان تقدمه اليه بمكتـوب من الشيخ محمد بيرم وثلاثتهم من اعضاء جمعيـة العـروة الوثقى. وكان نزوله فى ضيافة الامير عبد القادر بدمشق فى بيته الفخم « بيت العمارة » . وتعرف من علماء الشام بالشيخ سليم العطار ، وعمه الشيخ ابى بكر العطار،وروى عنهما ، وانتقل الى بيروت ، فتعرف فيها بالكاتب الشهير العالم بطرس البستانى .

ومن بيروت استعجل السفر الى تونس لما علق من الآمال على الوضع الجديد الحادث فى العرش الحسينى بوفاة الامير المقدس محمد الصادق باشا وولاية اخيه الامير المقدس على باشا . فسافر الى مالطة ومنها الى تونس . فوصل فى اواخر ربيع الاول سنة 1300، واتصل فور رجوعه بالامير على باشا ممهدا لديه جميع وسائل الرواج ، ثم اقبل يتعرف شؤون الحياة العامة ويتصل بالاوساط التى تروج فيها التعاليق على الجاريات والبحوث فى وسائل العلاج . فكان علمه وقلمه وحنكته وما زادته فى كل ذلك رحلته سببا لالتفاف اهل المدينة حوله فى شؤون حياتهم العمومية .

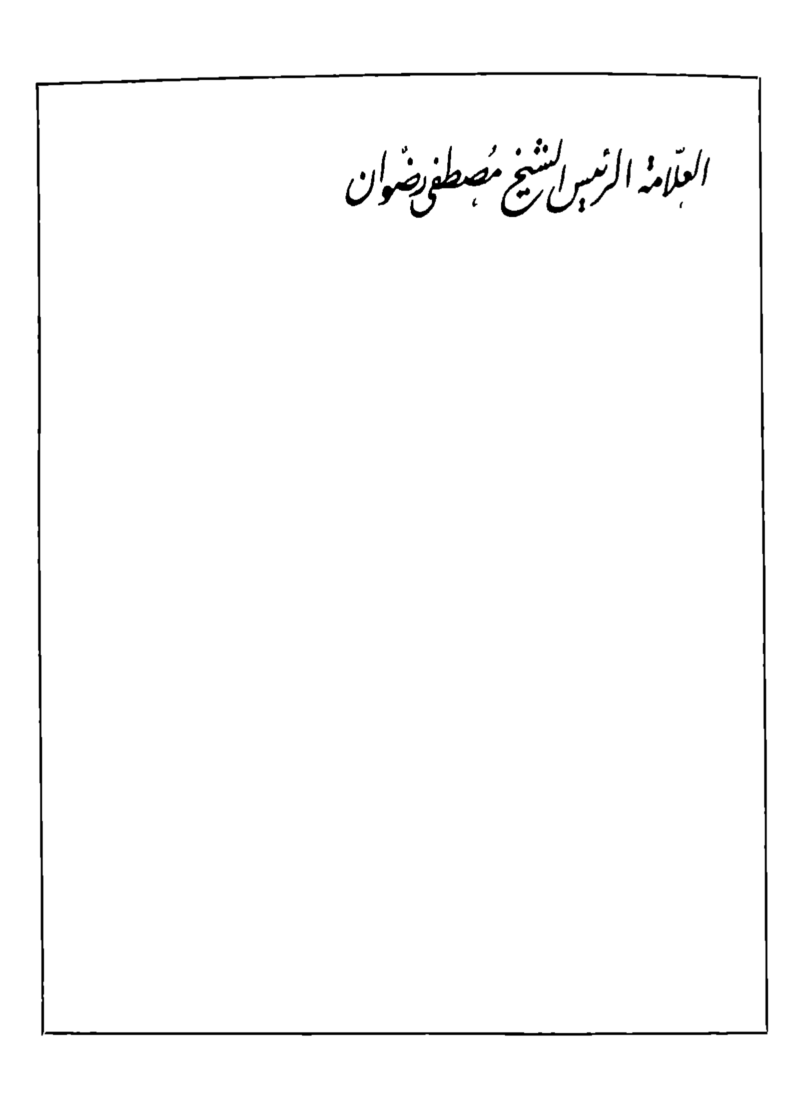
وكانت الحركة الاحتجاجية الكبرى ضد النظام البلدى فى جمادى الاولى سنة 1302 . فاتصل بها وعلت فيها منزلته شيئا فشيئا حتى تزعمها تزعما مطلقا ووصلها بحركات جمعية العروة الوثقى . فكان ذلك جالبا للنقمة الادارية اليه ، فنفى الى قابس وعزل من كتابة جمعية الاوقاف فى شعبان سنة 1302 ورجع من النفى فى ذى القعدة سنة 1302

ولعل ما بدا حوله فى تلك الحركة من اضطراب الصفوف وخور العزائم ودناءة المساعى مما شكاه فى تحاريره هو الذى حمله على الانصراف عن صفوف

المعارضة والاخلاد الى النظام القائم والاشتراك فى التاسيسات التى افتتح بها هذا القرن • فعند تطبيق القانون العقارى سنة 1303 وانتصاب المحكمة العقارية المختلطة سمي كاتبا بالمجلس المختلط ، وفي اثناء ذلك العمل كتب شرحه على القانون العقارى • ثم تنقل الى المحاكم الدولية التونسية ، فسمى حاكما بالقسم المدنى ثم بالقسم الجنائى •

ورحل الى باريس سنة 1308 فكتب رحلته التى كانت مظهرا جديدا للالتئام بينه وبين رجال الحكم يومئذ كما كانت عنصرا جديدا فى التوجيه الفكرى لنهضة البلاد • واستمر على هذه الوضعية عاملا فى تشييد صرح النهضة من عديد النواحى الى وفاته فى رجب سنة 1318 • فذهب وقد ترك وراءه للاجيال ما مثل حياة قرنه خير تمثيل ، او وفق الاخلاف الى ابراز ما ترك الاسلاف من عمل جليل •
رحمه الله رحمة واسعة ، وجزاه بما خلف من الآثار النافعة * •

(*) المجلة الزيتونية المجلد 10 ، الجزء 3 ، 1955 •


العلّامة الرئيس الشيخ مصطفى رضوان

العلامة الرئيس الشيخ مصطفى رضـوان

ان التاريخ الحفيظ الامين مسجل لهذه المملكة المصونة فخرا لا تبلغ شأوها فيه كثير من الممالك ، اذ جعل لها من جلة علماء دينها نخبة رجال السياسة واتاها رشدهـــا اذ ابقى لانوار الثقافة الاسلامية اشعاعا دائما على نواحى التصرف وميادين التفنن بما استحكم من الصلات بـــين اوساط العلم واوساط الدولة ·

ولقد كان جميع الفطاحل الذين مثلوا هذا الاشتـــراك العجيب فى قرننا الحاضر تغلب على الواحد منهم احـــدى الصبغتين . بحيث يكاد يكون اكثر توجهه الى ناحية العلم او الى ناحية الدولة وان كان فى الاصل جامعا بينهمـــــا الا مثالا غريبا فريدا من هؤلاء النبغاء برز مضطلعـــــا بالمهمتين على نسبة متساوية،فكان جامعيا اداريا يصطخب صرير اقلامه فى الادارة مع طنين دروسه فى الجامـــــع ويمتزج تفكيره فى شؤون الدولة والسياسة ببحثه العلمى ونظره الحكمى ·

ذلك هو الشيخ مصطفى رضوان الذى كان للنبوغ فى

المالية والسياسة والادارة مثالا فذا ولكفـاءة العلمـاء والفقهاء والاساتذة حجة ناطقة .

ولد الشيخ مصطفى بن على رضوان بمدينة سوسـة 1244 فى عائلة من سلائل الجنود العثمانيين. وبعدان حفظ القرآن شرع فى طلب العلم على شيوخ سوسة ، ثم تاقت نفسه الكبيرة الى الالتحاق بمنبع العلوم جامع الزيتونة الاعظم ، فانتقل الى مدينة تونس سنة 1260 ، واقبل على كبار اساتذة العلم يومئذ من امثال شيخ الاسلام محمـد ابن الخوجة والعلامة الكبير الشيخ محمد النيفر وشيخ الاسلام محمد معاوية .

ولقى فى ابتداء عهده شدة من ضيق العيش وعسـر الامر كان يتدرع لها بالجميلين : صبره وخطه . فقـد كان ينسخ الكتب العزيزة برسم رجال من ذوى الخزائن وينال من جزائها ما يدفع عنه غوائل الاحتياج ويصـل بينه وبين الطلب الذى كانت صبابته فيه .

ولدينا من شواهد ذلك نسخة من كتاب ازهار الرياض للمقرى بديعة تامة فى جزئين بلغت نهاية الاتقان واللطافة كتبها المترجم ـ قدس الله روحه ـ سنة 1261 للكاتـب الشيـخ على الحداد ، وكان من الادباء الاجواد .

ولقد كان من طوالع سعوده ان اتصل بالوزير الصدر محمد خزندار وهو يومئذ اميرلواء وعامل سوسة ، وكان سبب ذلك انه امتدحه بقصيدة نمق تخطيطها بقلمه الجميل فاسترعت نظره • وكان ذا محبة زائدة فى اهل سوسة ، فاستنجبه وقربه واستكتبه فى دائرته سنة 1262 مع تمكينه من حرية اوقاته للاستمرار على مزاولة دروسه •

وكان ما وهب مترجمنا العبقرى من رأى سديد وسير رشيد وذكاء وخبرة وحسن استعداد مع ما اكتسب من أدب راق وقدم راسخة في التحرير وباع طويل فى الحسابيات ، نشأ عن شغفه الفطرى بالعلوم الرياضية ، ممكنا له عند القائد محمد خزندار منزلة العمدة المختار فى عامة شؤونه الرسمية والخصوصية • ففى 1270 لما قرر المشير الاول احمد باشا ارسال وحدة عسكرية تونسية للاشتراك مع الجيوش العثمانية فى حرب الروسيا ببلاد القريم انتدب امير اللواء محمد خزندار للسفر الى الآستانة لتهيئة وسائل نقلة العساكر وتموينهم • فسافر مترجمنا معه كاتبا له فى تلك المأمورية الشريفة واقام باستنبول من شوال سنة 1270 الى ربيع الاول سنة 1271 •

وسرعان ما عاد امير اللواء محمد خزندار الى استنبول

فى مأمورية اخرى ، وهى السفارة عن المشير الثانى محمد باشا فى طلب آمر الولاية ، فسافر معه مترجمنا ايضا فى شوال سنة 1272 وفاز فى هذه المرة بتقلد النيشان المجيدى • وبالرجوع من تلك السفارة السامية سمى محمد خزندار امير امراء وزاد حظوة وقربا • ففى المحرم سنة 1273 عين اميرا على الاعراض وقائدا عاما للمحلة التى جهزت لمقاومة الثورة التى شنها بالحدود الطرابلسية الفارس غومة المحمودى ، بعد فراره من معتقله بالبلاد التركية • فكان المترجم رئيس كتاب المحلة ومتولى مركزيتها الادارية • ولدينا كثير من الاوراق المتعلقة بتلك الحركة العسكرية والتقارير المرسلة الى باردو ، من امير المحلة محمد خزندار مكتوبة كلها بخط المترجم ، ومحررة بطرازه العالى •

وكل هذا لم يقطع مترجمنا عن حياة الطلب والتعلق بأسباب الرفعة العلمية فانقطع سنة 1280 للانكباب على العمل العلمى حتى سمى مدرسا من الطبقة الثانية سنة 1285 •

وفى سنة 1286 حصل شغور فى مدرسى الطبقة الاولى، وكان قانون الجامع يقتضى ان تسديد الشغور يقع بتعيين من النظارة العلمية الا اذا اعترض احد المرشحين

على التعيين وطلب المناظرة فانه يجاب اليها . فوقع تعيين العلامة المقدس الشيخ محمود بن مصطفى بيرم للمنصب الشاغر ، ولم يسلم مترجمنا هذا التعيين فجعلُ اعتراضه عليه ومطالبته بالمناظرة فى تلك الصيغة الادبية اللطيفة الحارة التى توجه بها الى شيخه الاسلام محمد معاوية قائلا :

ايا شيخ اسلام وقدوة امة
مقامك اعلى من مديحى واكرم

معاوية الاستاذ هل من معنف
فلا العلم مغبون ولا الحق يكتم

عهدناك قبل اليوم تشكو تأخرا
وتقديم من لا يعلمون وتعلم

اعيذك من ان اشتكى منك مثلها
فعلمك يأباها ورايك احسم

فلا تجعلنى واوعمرو وانى
انا الميم والايام افلح أعلم

هديتم الى رشد فخذ قول منصف
سلى ان جهلت الناس عنا وعنهم

وانى على علياك اثنى مسلما
ولست لمن قدمتموه اسلم

فاجريت المناظرة وكان له الفوز فيها •

وفى هذه السنة بلغ اختلال المالية اسوأ مبلغ و تفاحش الدين الى درجة العجز والتوقف التامين ، فانتصبت اللجنة الدولية المختلطة لمراقبة الميزانية وتصفية الديون ، فى ربيع الاول سنة 1286 ، وهى المشهورة بالكمسيون المالى• وتولى رئاستها الوزير خير الدين ، وكان الوزير خزندار من اعضائها • فكان مترجمنا ، لما عرف عنه فى ماموررياته السالفة من علم وحزم وجد واستقامة وضلاعة فى المسائل المالية منتخبا لوظيفة منشىء فى قسم العمل من الكمسيون المالى • ثم ارتقى فى سنة 1287 الى وظيفة منشىء اول فاتصل من يومئذ اتصالا وثيقا بالوزير خير الدين واشترك اشتراكا تاما فى مشاريع الوزارة الخيرية كتنظيم التعليم بجامع الزيتونة الاعظم و تاسيس المدرسة الصادقية ، حتى اصبح فذا مشارا اليه فى كبريات المسائل ومعضلات المشاكل •

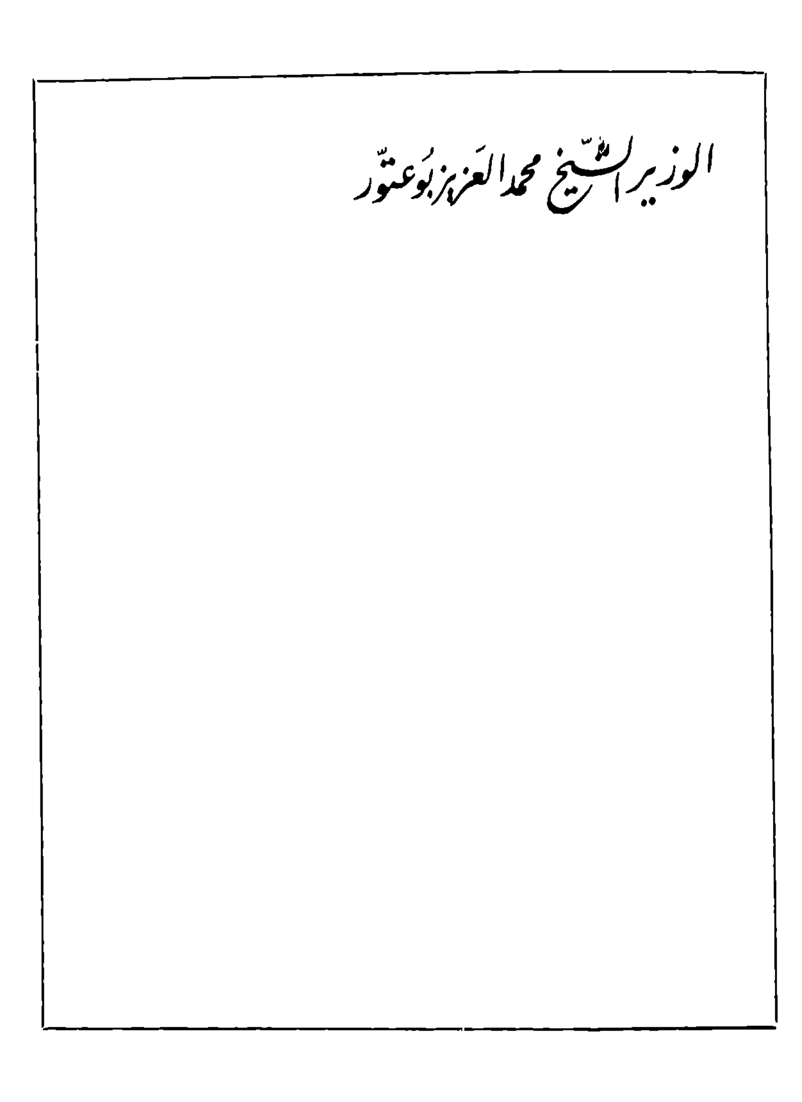
ففى سنة 1294 عين عضوا فى لجنة النظر فى منح امتياز الخط الحديدى بين الحاضرة والحدود الجزائرية، ثم عضوا فى اللجنة التحكيمية فى قضية دعوى الكونت سانسى على الدولة التونسية فى هنشير سيدى ثابت ، حتى بلغ سنة 1296 الى عضو فى مجلس شورى الملك ، وكان من اعضاء المجلس الذى انعقد بالقصر السعيد فى

17 جمادى الاولى 1296 للنظر فى امضاء معاهدة الحماية ٠ ولما انحل الكمسيون المالى سنة 1300 استمر المترجم عمدة للدولة التونسية فى معضلاتها المالية المتسلسلة من الطور الماضى ، فعين عضوا فى اللجنة التحكيمية فى الدعاوى المالية الموجهة على الوزير مصطفى بن اسماعيل ، ووكيلا عن الدولة التونسية فى محاسبة امير اللواء حميدة بن عياد ، وكيل مهماتها السابق ، ثم فى سنة 1310 رئيسا لقسم الانشاء بادارة المال العامة ٠

وعلى وفرة هذه الشواغل وتزاحم هذه الكلف فان فيض علمه قد دام متدفقا بالجامع الاعظم بدون انقطاع ٠ فقام بالتدريس فى عزم واعتناء وأقرأ مهمات الكتب بطريقة مفيدة جدا يلم فيها بالموضوع الماما ٠ وعلى دقة فهمه ، وقوة عارضته ، وسعة علمه فانه لم يكن يبسط مجال البحث الا فى المسائل المهمة ٠ فتخرجت عنه طبقات ، بحيث لم يفارق الدنيا الا وجميع اهل الجامع متخرجون عليه مباشرة او بواسطة ٠

وكانت وفاته فى اليوم التاسع والعشرين من ربيع الثانى سنة 1322 ٠ ودفن بمقبرة الشهداء بالمرسى جوار الشيخ عبد العزيز المهدوى ٠ جزاه الله بما اسلف من جلائل الاعمال ، وخلف فى صدور الرجال * ٠

(*) المجلة الزيتونية : المجلد 9 ، الجزء 5 ، 1955 ٠


الوزير الشيخ محمد العزيز بوعتور



الوزير الشيخ محمد العزيز بوعتور

اذا كان للتربية الاسلامية الكاملة و النشأة الاخلاقية الفاضلة مظهر ينطق بسمو أثرهما فى الحياة العملية و برهان يفصح بمبلغ الناشئين عليهما من مقامات الرشد فى كل ما تولوا والنجاح أينما انتهجوا فان فى حياة هذا الوزير الخطير و العالم الكبير عبرة فائقة للمعتبر فى ما بين النشأة الزكية و النجاح فى الحياة الاجتماعية من متين الاسباب فى حياة من تبوأ المنزلة السامية من كل نظر و حل محل الثقة من كل فؤاد حتى ترك حديث مقدرته السياسية يملا الافواه و الآذان و مأثور أعماله الرشيدة و أقواله الحكيمة تسير به الركبان ·

أصل هذا الوزير العالم من بيت أصيل فى العروبة راسخ فى التربية الاسلامية الصالحة هو بيت الشيخ عبد الكافى العثمانى من سلالة الخليفة الثالث سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه من صلحاء القرن السابع دفين الزاوية المشهورة باسمه فى صفاقس ·

و قد امتد فرع من هذه الشجرة المباركة الى حاضرة

تونس فأثمر علما و فضلا و دراسة و نبلا بانتقال الوزير الكاتب الشاعر الشيخ محمد بوعتور المتوفى سنة 1190 الذى كان من كتاب المولى حسين بن على و من المهاجرين عن الوطن مع أبنائه ثم من ذوى المنزلة الرفيعة بعد عودة دولتهم فكان وزير المولى على بن حسين . و قد ملا ذكره و أدبه التاريخ الباشى للوزير حمودة بن عبد العزيز .

ومن هذا الوزير تسلست مناصب الكتابة و الرئاسة القلمية فى آل بيته حتى كانت الطبقة الواحدة من كتاب الدولة الحسينية تعد اربعة أو خمسة من آل بو عتور و أغلبهم ترجمه الوزير ابن ابى الضياف فى ذيل تاريخه .

و من أبناء هذا الوزير جد مترجمنا و هو الشيخ محمد الطيب بو عتور الذى كان كاهية باش كاتب فى دولة المولى حسين باى الثانى .

أما والد مترجمنا فقد كان معرضا عن طريقة آل بيته فى خدمة الدولة ميالا الى الانزواء و العزلة . و كان متزوجا بسيدة من عقائل آل الصديق هى ابنة الشيخ خلف المحرزى ، من أحفاد بركة تونس سيدى محرز بن خلف ، و هى أم مترجمنا . و كانت ولادته فى رجب سنة

1240 ، و نشأ من صباه على اصول الاستقامة و الجد ودرج على مسالك الفضيلة والكمال النفسانى بفطرته الزكية وعناية أبويه الكريمين ·

و بعد حفظ القرآن العظيم و إنهاء التعليم الابتدائى دخل جامع الزيتونة الاعظم سنة 1254 لطلب العلم · فأخذ عن أعلام عصره مثل شيخ الاسلام ابراهيم الرياحى و ابنه العلامة محمد الطيب و شيخ الاسلام محمد ابن الخوجة و العلامة محمد ابن عاشور المشهور بحمدة و اخيه قاضى الجماعة محمد الطاهر ابن عاشور و قاضى الجماعة محمد النيفر و قاضى الجماعة محمد بن سلامة و العالم الورع احمد عاشور و شيخ الاسلام محمد الشاذلى ابن صالح · و قد كان مدة طلبه محل الاعتناء الفائق من شيوخه و محل التقدير من أقرانه لما عرفوا فيه من التربية التى ارتفعت به عن نزق الشباب · و كان من طلائع بخته ما صادف وقت طلبه من استضاءة الحاضرة التونسية ببدر من بدور السنة طلع عليها من أقصى المشرق بقدوم الامام العالم الصالح الشريف سيدى محمد صالح الرضوى السمرقندى ثم البخارى مفتى اورنقالاذ بالهند المتوفى بالمدينة المنورة سنة 1263 · فقد اتصل به مترجمنا ولازمه شديدة وروى عنه بأسانيده

العالية الجامعة ، وتلقى عنه من اسرار السنــــة وآداب الشريعة ما زاد فضائله الغريزية وتربيته الشرعية فى نفسه رسوخــا .

وقد بدت عليه نتائج الطلب الصحيح بسرعة ، فلــم يأت على دخوله الجامع ست سنين الا و قد اصبحــت لــه الراية المرفوعة فى صحة الفهم و كمال التحصيل و تحقيق المعانى و رشاقة المباحث مع استكمال الثقافة الادبية من ضبط اللغة ورواية الشعر والتحلى من اذواق العربيــة وآداب العرب و عوائدهم ، الى القريحة الخصبة النتــاج شعرا و نثرا ، و القلم المطيع السيال بما يراد منـــه ، و الفصاحة النادرة التى تورد القول الفصل فى المنطــق الجزل .

و لما اعتلت درجته العلمية اتثق اتصاله بشخص سيدى محمد الطاهر ابن عاشور فاصبــح من خواصــه و رواد ناديه ، و عظمت مكانته عنده فكان واسطة العقد بيــن رجال أنسه الذين لا يكاد يفارقهم . و بتلك الصلة رسخت فيه الطريقة التى ربى عليها ذلك الاستاذ العظيم تلاميذه ، طريقة النظر الواسع و البحث الحر و تحقيــق الغايات و الاسرار من كل قضية علمية أو عادية . فلذلك كــان

متفانيا فى محبة هذا الاستاذ واجلال قدره حتى اصبح له عنده حرمة الوالد مع أنس الحبيب .

و كانت عوائد البحث العلمى و لذائذ الذوق الادبى أحب شىء الى نفسه ، فلم يكن يوجه نظره الى الوظائف ، كما كان والده مصمما على التباعد به عن ذلك المسلك ومسايرته فيما يحب من العكوف على الحياة العلمية . و لكن كان من قضايا الاقدار ما أتى على خلاف مراد الوالد والولد . فانتخب المترجم لخطة الكتابة بالدولة على حداثة عهده بالانتصاب للتدريس تطوعا باجازة شيوخه . و لم يغن امتناعه و لا تصلب والده فدخل الكتابة سنة 1262 ، و لم يقطعه شغل الوظيف عن الاشغال العلمية و التحريرات و المطالعات التى بقيت دأبه الى ختام أنفاسه الطاهرة ، و لا حال مقامه المخزنى الجديد بينه و بين الدروس العليا بالجامع ، فقد سمعت من الاستاذ المنعم الشيخ المفتى سيدى احمد ابن مراد بأنه ادرك المترجم يحضر بجامع الزيتونة دروس استاذه سيدى محمد الطاهر ابن عاشور فى عهد الدولة الصادقية وهو يومئذ وزير و من كبار رجال الدولة .

و قد كان يقطع حياته فى المحيط السياسى الذى دخله

عن ترفع و استكبار وحياء واحتراز من المزالق واحتقار لما يتهافت عليه الناس مع نزاهة تامة و جدية صادقة ٠

و بما وهب من أصالة الرأى و رسوخ الخلق الكريم استطاع أن يمضى فى طريقه الجدى و بحر من المكائد و الدسائس و الاغراض يموج حوله ٠ فلم يتعلق شىء من تلك الاقذار له بذيل ، و رمقته الاعين بنظر الاكبار و الاعجاب و عرفوا الى أى مقام من مقامات السيادة الحقيقية سيفضى به هذا الطريق القويم ٠ و هذه هى النظرة التى يصورها لنا الشيخ ابن ابى الضياف فى فقرة استطرادية عند ترجمة جده اذ يقول : « وحفيده الآن شمس ضحاها ، و قطب رحاها و رئاستها ، والوزارة طوع بنانه لو حظى بمساعدة من طبع زمانه » ٠

و لهذه الخلال السامية وقع عليه اختيار المشير الاول المولى أحمد باشا ليكون رئيسا لديوان كتابة المحلة يسافر مع ابن عمه المولى المشير الثانى محمد باشا مع ما كان يجده من ولى عهده لوثوقه بأمانة صاحب الترجمة و بعده عن مواقع الريب ، فكان بين الاميرين الجليلين محل الثقة التامة و لا يظن به واحد منهما ما يقدح فى المروءة و التربية العالية ٠ و قد حلاه المشير الاول فى أمر تقليده الصنف الثانى من نيشان الافتخار بقوله « الاكمل الخير

الزكى العفيف الالمعى الثقة المؤتمن كاتبنا ابننا الشيخ سيدى محمد العزيز بو عتــور » ٠

و دام كذلك مدة ولاية المشير الثانى بينه و بين أخيه المشير الثالث المولى محمد الصادق باشا يسافر معــه فى الامحال ، و يرجع الى ديوان الانشاء بباردو عند قفــول المحلة الى ان توفى المشير الثانى و المترجم مع ولى العهد فى محلة باجة فى صفر سنة 1276 ، فكان الداخل معــه الى قصر باردو عند وصوله لتلقى البيعة ٠ و من يومئذ توالت عليه الالتفاتات و الترقيات ، و دعى للمهمــات ، و أسدى للدولة والامة انفع الخدمات ٠ فبعد ولايةالامير بأيام قلده الصنف الاول من نيشان الافتخار ، ثم سمــاه رئيسا لكتبة وزارة المال فى شوال سنة 1276 ٠ و فى 77 تألف المجلس الاكبر الذى اقتضاه قانون عهــد الامان ، فكان المترجم من أعضائه ٠ ثم سمى باثر ذلك كاتبا خاصا لاسرار الملك و عضوا فى مجلس الشورى الملكى الخاص، و بذلك أصبح الواسطة بين الملك و نواب الامة ٠

و لما انتظمت أعمال المجلس الاكبر و قرر ايجاد قوانين فرعية لتنظيم سير الحكومة و ضبط الاداءات و تحديد السلط و ترتيب الخدمة الداخليــة للمجلس الاكبــــر و علاقته مع الحكومة اختير مترجما لتحرير اللوائــــح

للقوانين المطلوبة ، اذ كان عمدة الدولة فى تحقيـــق الانظار الفقهية والمرجع فى تطبيق النظر الاسلامى على النظام الجديد تطبيقا علميا محكمـــا • و عيـــن لهـــذه المامورية الهامة بالامر العلى المؤرخ فى ربيع الاول سنة I280 بعد أن منح لقب أمير أمراء و قلـــد الشريـــــط الاكبر من نيشان الافتخار •

و قد أصبح لسان الدولة و يمينها فى هذا الطـــور فكانت الخطب الملكية و المناشير و المراسلات الهامة كلها من تحرير قلمه العالى البليغ ، كمـــا كانـــت المخابرات المرفوعة الى الملك رأسا على غير طريق الوزارات فى الامور العظيمة الاهمية ترفع باسمه ، حتى أن خطابات ولى العهد عند غيبته بالمحلة كانت تأتى باسمه من طرف ولى العهد الامير المقدس حموده باى و خلفـــه المـــولى المقدس سيدى على باشا • و قد أصبح فـــارس ميـــدان الاصلاح الجديد فتناول قانون عهـــد الامـــان بالشرح و التأصيل و التفريع و علق عليه تحريرات أصوليـــة بديعة فى اجراء بعض كلياته عـــلى قواعـــد الشريعـــة الاسلامية • و فى سنة I28I سمى باش كاتب و وزيـــر القلم • فكان أول من حمل هذا اللقب الاخير فى الدولة التونسية • و فى سنة I283 سمى وزير مال لما انفصلت

هذه الوزارة عن أنظار الوزير الاكبر ، فكان أول من تقلدها و آخره . و قد تلقى هذه التسمية على مضض واستنكار حكاه الشيخ ابن أبى الضياف عنه لما يعلم من كونه سغلول الايدى مع اليأس من طرق الخلاص من الأزمة المالية التى اخذت بخناق الدولة . و لما تأسست اللجنة الدولية المشتركة لمراقبة المالية سنة 1286 و انقسمت الى قسمين قسم العمل وقسم النظر كان رئيس قسم النظر الوزير المباشر خير الدين ، و كان مترجمنا رئيس قسم العمل .

و لما اعتلى خير الدين منصة الوزارة الكبرى كان المترجم أول اعضاده فكان عمدته فى الاعمال الادارية و التحريرات الدولية و المسائل الشرعية . و سمى وزير استشارة سنة 1290 و قلد شريط عهد الامان ، ثم قلد العهد المرصع سنة 1291 فى موكب مشهود مع الوزير خير الدين .

و قد كان من الرجال العاملين فى اصلاح نظام التعليم بالجامع الاعظم ، و فى تأسيس المدرسة الصادقية، و تأسيس جمعية الاوقاف ، و تنظيم المحاكم الشرعية ، و سن قانون العدل و غير ذلك من المؤسسات النافعة الخالدة . وكان يشد آزر الوزير خير الدين بما فيه من الرأى الاصيل

و الاناة في الامور ، و بما في استقامته وأمانته من الثقة العامة ، حتى أن خصوم الوزير خير الدين لم يكونوا يجدون مطعنا في مواقفه لدى المشير الثالث اذا كان مترجمنا فيها الى جانبه •

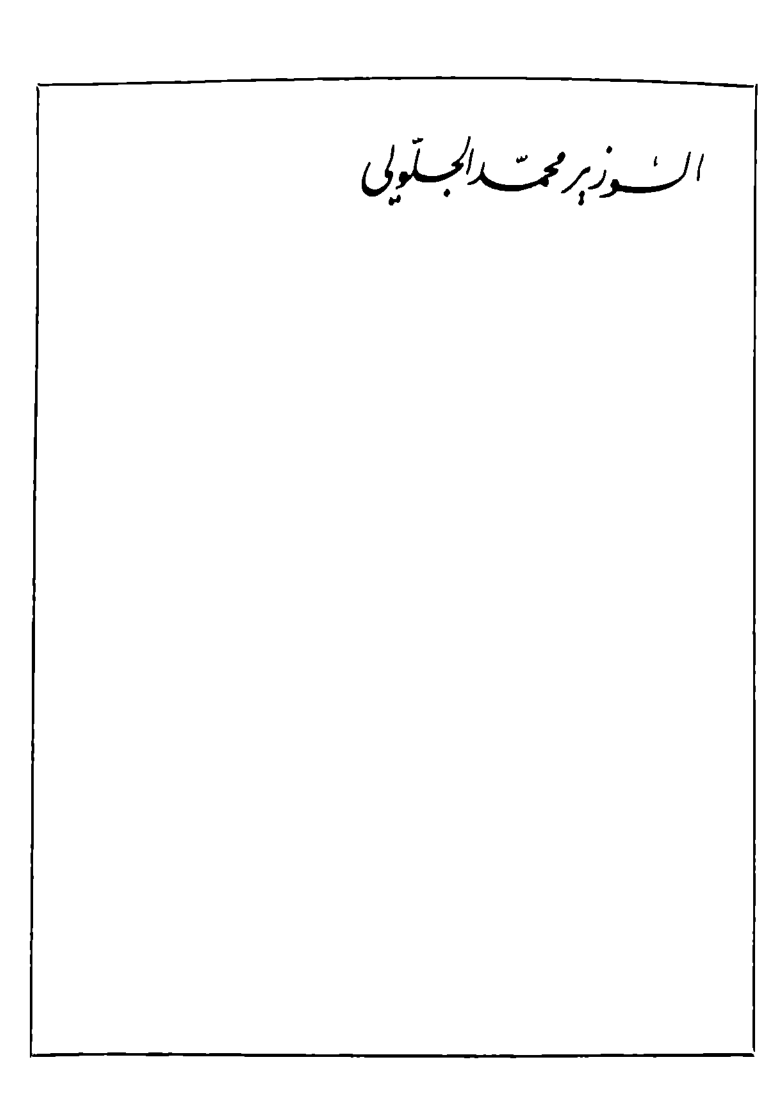
و لما أفضى الحال الى تخلي الوزير خير الدين و أسندت الوزارة بعد قليل الى الوزير مصطفى ابن اسماعيل رأى صاحب الترجمة أن الألاعيب التي كانت محدودة المنطقة اذا امتدت الى الجهاز الاداري و انتشرت على العمالة فإنها بلا شك مفضية الى الفوضى التامة وسقوط البلاد في حروب داخلية و انقسامات تنتهي بها في وقت سريع الى الدمار • فقبض على السياسة الداخلية للمملكة بيد من حديد ، و منع أعوان الوزير ابن اسماعيل من ان يتملكوا بالنظام الاداري أو أن يوجهوا انظار مطامعهم نحو مصالح أهل العمالة في الادارة حتى أنه كثيرا ما رد على الوزير تداخلاته في قضايا ادارية في حضرة المشير

و لما انتصبت الحماية الفرنسية و نزل بتونس مؤسس هيكل الحماية السفير بولس كمبون و صادف تبدل الدولة بوفاة المشير الثالث و صعود المولى المقدس سيدنا على باشا العرش الحسيني تبين أن هذا الطور التاسيسي الجديد لابد له من رجل متقرر الثقة ، بعيد عن الريب

و المخاتلات ، قدير على تصور الامور و تحامى المشاكل قبل مواجهتها ، مستعد لتلقى تاسيسات الحماية بما لا ينقض من كيان الدولة التونسية ولا يضعف من ذاتيتها لتبقى متهيئة للنهضة التى انتصبت الحماية لاعدادها لها ، فكان من حسن حظ البلاد أن الذى دعى الى هذا المنصب الخطير فى ذلك الوقت العسير هو هذا السياسى العالم الاصيل الرأى . فتقلد منصب الوزارة الكبرى فى المحرم سنة 1300 فانتهج بالبلاد منهجه المعروف ، و سلك بين الدولتين مسلكا واضحا صريحا يبين لمن تتبعه أن ذلك الاستعداد حقيق بأن ترغب فيه أعظم الدول فى أحرج الظروف . و كان السفير كمبون شديد الاعجاب بمقدرة هذا الرجل و كفاءته للمقامات السياسية العالية كما كان الملوك الحسينيون مجمعين على تقدير قيمته و الاعتراف بفضله على العرش و البلاد فى الخمسة و العشرين عاما التى قضاها فى الوزارة الكبرى .

وقد كانت وفاته ـ رحمه الله و تقبل جميل سعيه ـ فى غرة المحرم سنة 1325 و دفن يوم السبت 3 المحرم فى موكب ملكى عسكرى رهيب . وكان دفنه بمقبرة الامراء الحسينيين برغبة من المولى المقدس سيدنا محمد الناصر باشا باى اظهارا لمزيد اختصاصه بالبيت الحسينى * .

(*) الثريا : السنة الاولى ، عدد 4 ، 6 مارس 1944


الوزير محمد الجلولي



الوزيـــر محمـــد الجلـــولى

ان سليل بيت من أعرق البيوت التونسيـــة فى المجـــد المخزنى ، وأرسخها قدما فى الرئاســـة ، ينشأ نشـــأة عصامية فى تدرج طبيعى بيـــن الخدمـــات الشاقـــة والمسؤوليات الدقيقة فتدفع به نتائج اختباراته وفضائل أعماله الى تسنم أرقى مناصب الرئاسة السياسيـــة عـــن كفاءة مسلمة . لجدير بأن يتخذ مثلا للمقتدين ، و موضع عبرة للمتاملين ، يريهم كيف تبعد التربيـــة الصحيحـــة بالناشىء عليها من الاغترار بالمنزلة العائلية و الاطمئنان الى البذخ و الاستسلام للترف حتى يأخذ بحظه من أداء واجبات الحياة . كما كان هذا الوزير الذى نسوق اليوم تاريخ حياته .

فقد كان من بيت تسلسلت فيه الولايـــات الكبيـــرة والمناصب الخطيرة من عهد الدولة الحفصية . وكـــان والده القائد فرحات ابن القائد محمود الجلولى الشهير فى دولة المولى حمودة باشا و المتوفى سنة 1255 . وولـــد صاحب الترجمة سنة 55 و هى سنة وفاة جده . فنشأ بين

يدى والده الذى كان من كبار العمال نشأة مستقيمة مصونة ، و تلقى من التعليم العربى الاسلامى درجته الابتدائية ، واستكمل تربيته العامة فى الصنائع و الفروسية و الرماية • وظهرت أصالة تربيته و رجاحة فكره من صباه •

و توفى والده سنة 1270 فتركه ابن خمسة عشر عاما فى كفالة عمه القائد الشهير أمير الامراء حسين المشهور بحسونة الجلولى •

وتحت رعاية هذا العم الذى كان من رجالات عصره انخرط المترجم فى سلك الخدمة المخزنية بالاوجاق ـ و هى مراكز قيادة الفرسان المامورين بحفظ الامن و تأمين السبل المعروفين بالمخازنية أو الصبائحية ـ وقام بواجباته كأنه لا ينتسب الى بيت شهير ولا يعتز برئيس أثير ، فترقى عن تدرج و استحقاق حتى بلغ رتبة الآى امين •

و فى سنة 1286 انتخب عاملا على عروش المثاليث الضاربين شمال مدينة صفاقس ، و كان سنه نيفا وثلاثين عاما • فأظهر من الحزم فى ادارته و الحكمة فى بسط نفوذه على منظوريه ما استتب به الامن بين تلك

العروش الصعبة المراس • و قدرت له الدولة آثار عمله المحمودة فترقى الى رتبة امير آلاى • و على هذه الرتبة ادركته وزارة خير الدين باشا سنة 1290 فكان فى طليعة المؤيدين لتلك الوزرة الاصلاحية • و أقام بمدينة صفاقس احتفالا بهيجا بافتتاح ذلك العهد السعيد ، فأحضر نحـو المائتين من فرسان المثاليث و أجرى ملاعب ، ومسابقات دعا لها عامة سكان صفاقس و خاصتها من أعيان المسلمين و نواب الدول واعيان الجاليات الاجنبيـة ، كمـا ورد تفصيل ذلك بالرائد التونسى فى محرم سنة 1291 •

و قد جعلته مقدرته الفائقة و صفاته الكاملة فى صف الرجال الذين اعتمد على كفاءتهم الوزير خيـر الديـن فى القيام بالوظائف المعتبرة فى عهد وزارته ، فلما سمى الوزير حسين مستشارا للمعارف و خلفـه فى رئاسـة المجلس البلدى بالحاضرة كاهيته امير اللواء الشريـف محمد العربى زروق انتخب المترجم كاهية لرئيس المجلس البلدى سنة 1201 •

و فى سنة 1202 سمى عاملا على جزيرة جربة مع بقائه على كهاية رئاسة المجلس البلدى وعلى عمل المثاليـــث وارتقى فى تلك السنة الى رتبة أمير لواء •

و لما تاسس المجلس المختلط سنة 1293 لفصل القضايا المدنية بين الرعايا التونسيين و رعايا الدول الاجنبية و احتاج الى رئيس مجرب النزاهة معروف بالرأى الاصيل والخبرة بمقتضيات الاحوال كان انتخاب الوزير خير الدين من بين أعيان موظفى الدولة واقعا فى مترجمنا • فاظهر فى عمله ذلك من حسن السياسة والبراعة فى حفظ الحقوق و تحامى المشاكل ما عرفت به منزلته الفائقة عند الخاصة و العامة من ابناء البلاد والاجانب •

فلما جاءت حوادث سنة 1298 و فشا الاضطراب فى نواحى الكاف بكيفية هددت امن البلاد الداخلى و عرضت سياسة الدولة التونسية للخطر سمى المترجم عاملا على الكاف و عروش ونيفة وآغة لوجق الكاف ، و التحق بمركز سلطته فى رجب سنة 98 فأعاد الامن الى نصابه و مهد الطريق للمحلة الفرنسوية للاتصال بتلك المناطق فى أمن تام و حفظ لحقوق السكان و حرماتهم •

واضطربت صفاقس بالجنوب لما اضطربت له الكاف فى الشمال • و كان ما كان من ضرب الغرامة الحربية و الشدة التى نزلت بالأهالى فى اقتضائها ، فدعى المترجم الى تمثيل الدولة التونسية فى اللجنة الدولية المشتركة

لتقدير الاضرار اللاحقة للسكان الاروبيين ، فكانت له فيها مواقف رشيدة شريفة ٠ ثم دعى الى تولى عمل صفاقس و بعد طول الامتناع دخل صفاقس عاملا عليها خلفا عن عمه و مربيه الذى نقل الى عمل الساحل ، فوقف فى ولايته تلك موقف الانجاد فى حسن التوسط بين الدولة و الرعية و حمل الكل من الجانبين ، و لاقى المصاعب و ذللها حتى أحسن استخلاص الغرامة فى هدوء ورضى وعدل ولين ٠ وسمى فى ذلك الطور آغةلوجق الاعراض فأصبح نفوذه الادارى ممتدا من صفاقس الى الحدود الطرابلسية ٠

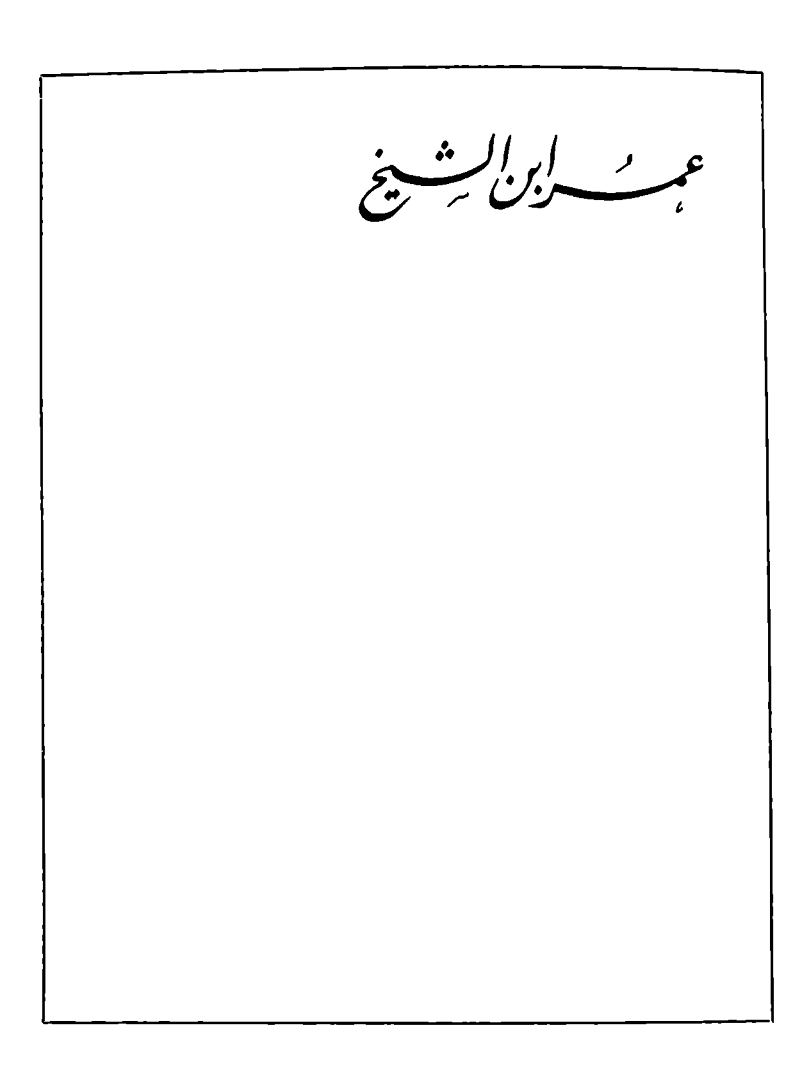
و لما غربت شمس الدولة الصادقية و أشرقت بالعرش التونسى دولة المولى المقدس على باشا الثالث ، و عهد بمسند الصدارة الى الوزير الشهير الشيخ محمد العزيز بوعتور انتخب صاحب الترجمة لتعضيده فى ذلك الطور العصيب من تاريخ البلاد ، فسمى وزيرا للقلم والاستشارة فى ذى الحجة سنة 1299 ، و أقام على هذه الخطة السامية خمسة و عشرين عاما كان خلالها عضدا متينا و نصيرا معينا للوزير العزيز فى سياسته الرشيدة المشهود لها من القاصى والدانى ٠ وشارك بصفته الوزيرية فى آهم الاعمال التاسيسية لنظام الحماية ،

و تعاطى على تقدم سنه تعلم اللغة الفرنسية ففاز منها بما يفى بحاجة المفاهمة ·

و فى سنة 1306 عين للسفر الى باريس لافتتاح القسم التونسى بالمعرض العام ، فأظهر فى وجهته تلك من جلال السيادة و نال من كرم الوفادة ما بقى عند اهل تونس حديثا تاريخيا · و لقى بتلك المناسبة جلالة شاه العجم ناصر الدين و قلده الصنف الاول من وسام خورشيد ، و عند رجوعه الى تونس قلد الصنف الثانى من وسام الشرف الفرنسى من يد الوزير روفى ·

و عند وفاة الوزير المقدس الشيخ محمدالعزيز بوعتور فى المحرم سنة 25 خلفه صاحب الترجمة فى الوزارة الكبرى و اظهر من الوفاء فى وده و الاخلاص لذكراه أمرا عجيبا حتى التحق به للدار الآخرة عن قرب فى رجب سنة 26 · وكان موكب دفنه مشهودا حضره المولى المقدس محمد الناصر باشا فى معية من كبار الموظفين التونسيين و الوزير الابتيت فى رؤساء مصالح الحماية و نواب الدول الاجنبية · وكان دفنه بمقبرة الملوك الحسينيين · عامله الله بالاحسان وتقبله بالغفران *

(*) الثريا : السنة الاولى ، عدد 9 ، اكتوبر 1944 ·


عمر ابن الشيخ



عمـــر ابن الشيــــخ

هذا لون جديد من أحاديث السمر نجاذبكم أطرافـه على هذه الامواج وفاء بدين لم يزل خالدا فى ذمم أهـل الاقلام و هو دين الوفاء بحقوق النبغاء التونسييـن فى العلم و الادب والسياسة الذين حالـت المعاصـرة بـين تراجمهم و بين التدوين ثم بدأ مـر الزمـان وتـوالى الاحداث يطويان من صحف ذكرياتهـم ٠

وانه ليبهجنا أن نفتح سلسلة هذه الاحاديث بذكـرى حياة حافلة تكاد تتصل بجميع الاطوار الهامة من تاريخ البلاد التونسية فى خاتمة القرن الماضى وصـدر هـذا القرن ، هى حياة العلامة الاستاذ الاكبر سيدى عمر ابن الشيخ تغمده الله برحمته ٠ كان هذا النابغ عصاميا فى العلم ، ونشأ بعيدا عن أوساطه بلدا وبيتا ، فكان والده أحمد ابن الشيخ من أهل قرية من عمل بنزرت تـدعى الماتلين ، انتقل الى قرية أخرى هى رأس الجبل الشهيرة بطيب المناخ واشتغل بالاعمال الفلاحيـة والتجاريـة فاثرى ٠ و كان رجلا من أهل الفضل و الاستقامة ٠ و لما

رزق ولده هذا سنة 1239 عزم على توجيهه فى طلب العلم بهمة صادقة رصدت عنايته كلها لانشاء هذا الولد نشأة طيبة والقيام على مناهج تحصيله بجد • فانتقل بعائلتـه لسكنى الحاضرة التونسية و بقى هو مترددا بينها و بين رأس الجبل • و علم ابنه تعليما ابتدائيا بيتيا راقيا، فلم يكد يتأهل للتقدم من منهل العلم بجامع الزيتونة الاعظم حتى جرى حادث فى السلك العلمى كان من طلائع بخت هذا الشاب ، وتفكير قام من الدلائل على صدق نية والده فى تعليمه برهان عظيم • ذلك ان الفقيه العلامة المحقق الشيخ أحمد بن الطاهر بن لطيفة القلعى صاحب الحاشية الشهيرة على شرح التاودى على العاصمية فصل عن وظيف التدريس الذى رسم فيه عند تاسيس الدرس الثلاثيـن من طرف المشير الثالث سنة 1258 ، و كان فصله بسبـب حادث إدارى طفيف • فاهتزت الأوساط العلمية استيـاء لذلك الحادث الذى حرم هيئة التدريس من زهرة مـن أنضر زهراتها • و بلغت أصداء هذا الحادث اسمـاع السيد احمد ابن الشيخ والد صاحب الترجمة فأثارت فيه عاطفتين جميلتين هما عاطفة التعصب لذلك النابغـة المضطهد وعاطفة الحرص على ايثار ولده الذى هو فـى مستهل عهد الطلب بفيض من فيوض العلم ينقطـع عن جامع الزيتونة • فتقدم للشيخ ابن الطاهر فى احتـرام

وعرض عليه أن يتنازل ليقبل منه عين المرتب الذى كان يتقاضاه من الجامع و أن يخصص نفسه للعناية بولده عمر فيكون له أستاذا خاصا ومربيا و وصيا • و كان هذا الاتصال أصل النبوغ الذى أصبح عليه الشيخ عمر ابن الشيخ والتفوق الذى سلم له على أهل عصره •

وقد قطع مراحل تعليمه بالجامع تحت أنظار ذلك العالم الجليل ، وباشارته قصد الدروس التى تشد اليها الرحال فى تلك الفترة من الزمن كدروس العلامة المفتى الشيخ محمد الخضار ، و عالم الشباب سيدى حمدة ابن عاشور صاحب حواشى المحلى ، و العلامة الأستاذ الشهير المفتى الشيخ محمد النيفر ، و المحقق شيخ الاسلام محمد معاوية ، و الفهامة المحدث شيخ الاسلام محمدابن الخوجة ، و العالم الضليع المفتى الشيخ محمد بن حمزة الشاهد ، و العالم الفقيه المحدث المسند شيخ الاسلام محمد الشاذلى ابن صالح • و قد لفتت اليه نجابته الفائقة أنظار هؤلاء الاساتذة العظام فرسخت شهرته العلمية فىأوساط الطلبة وانتصب للتدريس متطوعا بالاذن من شيوخه وإلحاحهم سنة 1266 • و فى سنة 1268 اعلنت المناظرة على خطة تدريس من الطبقة الثانية فلم يشارك صاحب الترجمة مع المتناظرين ، و لما انتهى المتناظرون من مواد امتحانهم

قال العلامة شيخ الاسلام محمد بيرم الرابــع لرفاقــه فى النظارة انى سمعت منذ ايام طالبا صغيرا لا اعرف اسمه يقرىء درسا يفوق هذه الدروس التى ألقاها المتناظرون. وبحث المشائخ النظار عن ذلك الطالب الصغير فاذا هــو الاستاذ الكبير الشيخ عمر ابن الشيخ ، فأولى مدرسا مــن الطبقة الثانية سنة 1268 ، و بقى على تدريس الطبقــــة الثانية خمسة عشر سنة ، فارتقى الى الطبقة الاولى سنة 1283 . و استمر على التدريس نحوا من ستين عاما كـــان فيها قائما بتدريس اهم الكتب الدراسيــة فى برنامـــج التعليم الزيتونى . و تخرجت من دروسه طبقات لا تحصى من اهل العلم و شيوخ الجامع حتى أتى عليه عهد و ليس بجامع الزيتونة من لم يتتلمذ له مباشرة أو بواسطــة الا افرادا من قرنائه ، فأصبح لا يذكر اسمه الا مقرونا بلفظ السيادة مستغنيا عن اللقب (سيدى عمــر) . و كانــت اشهر دروسه وادلها على مقدرته الفائقة واجمعها للطبقات درسه للمواقف بشرح السيد الذى ابتداه فى حدود سنة 1285 . فقد كان هذا الدرس شغل طلبة العلم الشاغــل انقطع الاستاذ له انقطاعا عديم النظير و أظهر فيه من الضلاعة فى العلوم الحكمية و دقة الفهم و براعة التقرير معانى سارت بها الركبان . و قد كان يعقد بمحله كــل ليلة مجلسا من طلبة الدرس و هم نخبة المدرسين بالجامع

للتذاكر فى مسائل درس الغد فيهتدى بتوقفاتهم و أفهامهم الى معاقد التحرير من الدرس ، و يفارقونه و المسائل عندهم و عنده لا تزال محاطة بشىء من الغموض محتاجة الى طريق فيصل فى تقريرها وتصويرها ، حتى اذا طلع عليهم الاستاذ من الغد مع شمس الضحى وجدوا معه من تدقيق تلك المسائل والاساليب الموصلة لحسن تقريرها أمرا عجيبا • و قد كان هذا الدرس نحوا من عشرين عاما تاجا لدروس جامع الزيتونة ، فقد حضره من عظماء التاريخ الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده فى زيارته الأولى لتونس سنة 1300 ، و أعجب بقيمة الاستاذ ودرسه أيما إعجاب ، و ناهيك بقيمة الشيخ محمد عبده فى العلوم الحكمية • و كان ختم هذا الدرس يوما مشهودا غصت فيه حلقة الاستاذ بطبقات العلماء الذين هم تلامذته و جرى نهر من بدائع الأشعار و غرر المدائح • و للاستاذ الى جانب هذه المكانة العالية فى العلوم الحكمية مكانة سامية فى العلوم الشرعية النقلية و تثبت فى الرواية و ضبط فى النقل مع سعة الحفظ فى الحديث و الفقه وعناية بالرجال و الاسانيد على قلة العناية بهذا الفن بين علماء عصره ، يشهد لذلك اعتناؤه بجمع ثبت الاسانيد التى يتصل بها من طريق شيخه الشيخ الشاذلى ابن صالح ، و هى أسانيد البيارمة عن الشيخ المكودى •

و قد آجاز هذا السند كثيرا و طبع اجازته بقصد تعميم الاسناد وتسهيل الاجازة عند الطلب •

و لم تكن براعة المنزلة العلمية واقفة فى مترجمنـــا عند حد هذا الدرس و المطالعة بل كانت له ثقافته العلمية عدة لخوض غمار الحياة العامة بنظر صائب و فكر دراك لعواقب الامور غائص على حقائقها • فكان ذا عقل آشرب قواعد المنطق حتى اصبحت له ملكة ، لا يروج عليه الزيف و لا ياخذ بمكان انفعاله القول المزخرف ، علاوة على ما رزق من قوة البيان و وضوح الحجة و التقرير البـــارع القاتل لكل غرض يطرقه تحقيقا • فلذلك كان فى طليعة الاساتذة الزيتونيين الذين انصرف نحوهـــم المصلـــح الكبير الوزير خير الدين باشا معتمدا عليهم فى برنامجه الاصلاحى العظيم الشامل لنواحى الرقى الاجتماعى كلها • فانتخب آولا عضوا فى المجلس الاكبر للمملكة المؤسس بقانون عهد الامان لما اسندت رئاسة ذلك المجلـــس الى الوزير خير الدين سنة 1278 ، فأظهر براعة فائقة فى فهم حقائق الامور وافهامها والاخذ برجال المجلس فى طرق الاصلاح الحقيقى و البعد بهم عن مسالك المغالطة والتمويه • و من هنالك اصطفاه الوزير خير الدين لمعاضدتـــه فى انجاز التراتيب المهمة التى نجمت عـــن عهـــد وزارتـــه

السعيد وفى مقدمتها تنظيم التعليم بجامع الزيتونة ٠
فقد كان من اعضاء اللجنة التى سنت القانون ، ثم كان
المعين للقيام بتمثيل مستشار المعارف داخل الجامع
فى اقامة القوانين واجراء النظام ٠ فكانت بيده الادارة
العملية لتعليم جامع الزيتونة ، و كان بمقامه الموقر فى
عموم الزيتونيين الحافز لنهضتهم لمسايرة النظم
العصرية المدخلة على معهدهم العظيم ، و القائم بتفقد
الدروس و الاعمال الادارية ٠ و استمر على هذا العمل
العظيم الى ان تخلى عن مباشرة وظائفه بالاستعفاء سنة
1382 ٠ و قد اعترضت الوزير خير الدين فى ابتداء
عهد وزارته مشكلة معضلة هى مشكلة عزل الوزير
مصطفى خزندار واستصفاء ماله ، فقد أثارت قضية
خزندار جدالا طويلا و حركت بعض الصحافة الاوروبية
بالانتصار للوزير خزندار و الدفاع عنه ، و وجد الوزير
خير الدين نفسه فى موقف حرج ، و هو أنه صار متهما
بالعداوة الشخصية لخصمه السياسى ومتقدمه فى منصبه
الوزير خزندار ، فكيف يستطيع أن يجرى فى حقه عملا
باسم الدولة التى هو وزيرها الاكبر و المتصرف باسمها
بدون أن يحمل ذلك العمل على ما يخالف مبادئه فى
العدالة من قصد التشفى و الانتقام ٠ فرأى لذلك أن
يعهد بهذا المشكل لنظر مجلس حكمى يؤلف من اثنين

من الوزراء ، واثنين من شيوخ المجلس الشرعى تحت رئاسة ولى العهد ، وأن تتقدم الدولة لذلك المجلس بمطالبها على الوزير السابق و يتولى الوزير الدفاع و يتناقش وكيله مع وكيل الدولة الحساب • وقد تطلبت مهمة الوكيل عن الدولة لدى هذا المجلس ضلاعة شرعية و براعة حسابية و حجة قوية و فكرا ثابتا ، فكان المنتخب لهذا المهم الجامع لشتات هذه الصفات هو صاحب الترجمة الشيخ عمر ابن الشيخ • فقام بعمله قياما أخرس عن القدح فيه كل لسان • وفى تلك السنة ترشح للانخراط فى سلك المجلس الشرعى لما انتقل استاذه الشيخ محمد الشاذلى ابن صالح من خطة قضاء باردو الى خطة الفتوى فخلفه صاحب الترجمة فى قضاء باردو • و كان قاضى باردو يعتبر ملحقا بالهيئة الشرعية العليا يحضر المجلس الشرعى وليس له فيه صوت و يكون ذلك تهيئة له فى الغالب للفتيا و قضاء الحاضرة • و قد بقى على وظيفة نيابة المستشار بالجامع لعزة من يخلف الاستاذ فى ذلك المنصب الدقيق • ولما انتصبت الحماية الفرنسية بتونس وابتدا السفير كامبون اجراء تنظيماته كان فى مقدمتها الاصلاح القضائى ، فاهتم أولا بتنظيم نوازل التسجيل و ما يطرا من الخلافات فى شأنها بين التونسيين و الاجانب ، و اقترح تأليف القانون العقارى فكان

الاستاذ المترجم من العمد فى تدوينه • و صدر به الامر العلى سنة 1303 ، و بمقتضاه تأسس المجلـس المختلـط العقارى ، و كان الاستاذ رئيسا للقسم التونسى من ذلك المجلس • ثم شارك فى لجنة النظر فى لائحة مجلة العقود والالتزامات التونسية بأسلوب أعجب به اساتذة الحقوق فى الجامعات الاوروبية •

وفى سنة 1308 سمى مفتيا مالكيا فـدخـل الهيئـة الشرعية العليا مع بقائه على ماموررياته السابقةمن رئاسة المجلس المختلط و النيابة عن الدولة بالجامع • و أظهر فى منصب الفتوى ما عهد منه من الضلاعة الفقهية مـع براعة فائقة فى التطبيق و عارضة قوية فى التفقـه فى النوازل وغيرة متناهية على المحق و الضعيف •

ودام الاستاذ على تقدم سنه مضطلعا بهـذه الاعبـاء الشاقة اضطلاع الشباب ، فكان وقته موزعا بين أشغال ادارة التعليم بالجامع ، و النظر فى نوازل المحكمة الشرعية ونوازل المحكمة العقارية ، و تحرير التقارير المستفيضة، والتدريس بالجامع بما عهد منه من التدقيـق وسعـة البحث والتثبت ، زيادة على أشغاله الخاصة فى أملاكـه وأنس بمجالسة احبابه الذى كان له من وقته نصيـب وافـر •

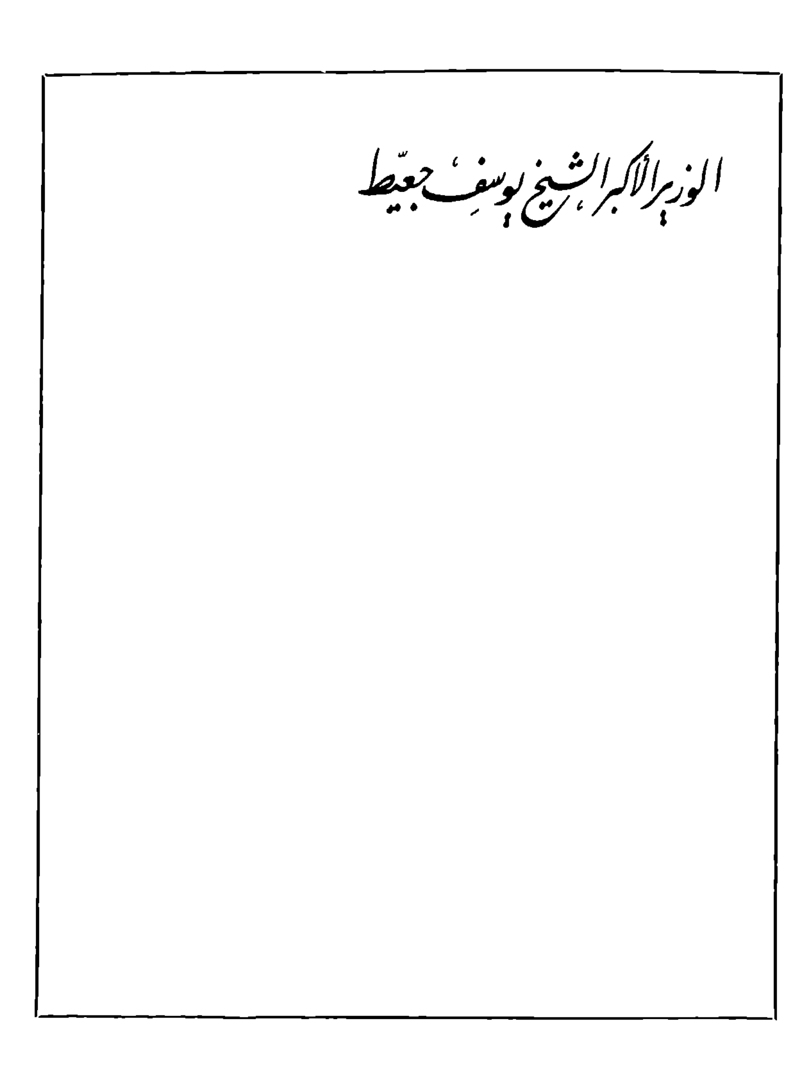
الى ان كانت سنة 1325 وقد بلغ الاستاذ ما ينيف عـلى

الخمسة و الثمانين سنة فمالت نفسه الى الراحة وسئمت تكاليف الوظائف فاستعفى من وظائفه جميعا ملحـــا آن يقبل منه هذا الاستعفاء الا من التدريس الذى كان يراه عنوان قيمته و آشرف تكاليفه ، فسمى مفتيا شرفيا و نائبا شرفيا عن الدولة لدى النظارة العلمية ، وبقى على خطة التدريس لكنه لا يباشرها لشيخوخته ، وقد أبت له همته العالية وفضله العميم ان يقبل مرتب التدريس عن غير مباشرة فكان متخليا عن مرتبه ليضم الىمداخيل المباشرين للتعليم بالجامع تطوعا • ولئلا تنقطع بينه و بينهم هذه العوائد فقد قام بتحبيس املاك ذات بال على متطـوعى الجامع الاعظم لا يزال عمله غير منقطع بها و بالعلـــم الذى بثه فى صدور الرجال •

وقد كان آخر كتاب درسه بالجامع هو تفسير البيضاوى وانتهى فيه الى قوله تعالى « شهد الله أنه لا اله الا هــو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا اله الا هو العزيز الحكيم » •

وكانت وفاته ــ قدس الله روحه ــ ليلة الثلاثاء ثالث محرم سنة 1329 عن صحة تامة و عقل ثابت • ودفن بتربة السادة الاشراف الهنديين من مقبرة الزلاج لمكان علاقته المتينة بالبيت المحسنى ــ رحمه الله رحمةواسعة ــ وجعل لنا من حياته عبرة نافعة * •

(*) الثريا : السنة الاولى ، عدد 1 ، ديسمبر 1943


الوزير الأكبر الشيخ يوسف جعيط



الوزير الاكبر الشيخ يوسف جعيط

يلاحظ الصاعد من شارع باب البنات الى القصبة عن يمينه نهجا صغيرا يساير قصر العدلية التونسية من حيث مدخل المحكمة الابتدائية لدائرة تونس ـ محكمة الدريبة ـ يحمل اسم نهج الرئيس يوسف جعيط ·

ذلك النهج اعربت به الحاضرة التونسية في جهد المقل عن ذكراها لعلم من اعلام تاريخها الحديث ومفخرة من مفاخر مجدها الطريف لم يكن حظ الحياة القضائية من عظمته ونبوغه اوفر من حظ العلم والادب والادارة والسياسة ·

فلقد كان ذلك الرئيس شيخا من شيوخ التعليم واديبا من ادباء العربية وفقيها فذا من فقهاء القضاء الاسلامي وكاتبا من مهرة كتاب الدولة سياسيا ، من الذين لم تغلبهم الازمات في احرج الاوقات · شع نور ذكائه بين حلق جامع الزيتونة الاعظم فأشرق في نوادي العلم والادب، واتقد في مهمات الكتابة بقصر باردو ، وسطع في مقطع

العدل بدوائر الاحكام ثم أضاء وعلا مناره تحت قبة الوزارة بسراية المملكة ·

فاتخذه التاريخ مثالا لصلاح التكون الدينى وآية لشرف الفكر الزيتونى·وكان للقرن الرابع عشر كنزا من الكنوز التى ورثها عن القرن قبله عدة له فى مواجهة ضائقات وازمات بما شهد لهذا الوطن الكريم بان له من المثل العليا فى الثقافة والاخلاق ما ارتوى بتاريخه ونما على تقاليده وتغذى بروحه فسمح له ان يقف فى جبهة الكون مفاخرا بأفلاذ كبده وتربية يده ·

ولد سنة 1246 بمدينة تونس فى وسط دينى شديد المحافظة ، فى عائلة استقرت من اوائل الدولة الحسينية على الوجاهة البلدية والمنزلة الفقهية والسعى التجارى والعمل الفلاحى والسعة المالية ·

فكان والده الشيخ احمد بن عثمان جعيط من اعيان عدول الحاضرة المبرزين من عدول الغابة وهى خطة نبيهة ينتخب لها صفوة الموثقين من عدول تونس ·

وجد مترجمنا لأمه هو الكاتب الحاج بالضياف بن عمر العونى رئيس كتبة بيت خزندار فى دولة الامير حموده

باشا الحسينى والمشهور باختصاصه بالوزير يوسف صاحب الطابع .

وقد اتصل المترجم اتصال اختصاص بخاله الوزير الكاتب الشهير لسان الدولة الشيخ احمدابن ابى الضياف، فكان المتولى لتربيته وتوجيهه تولى الاب لابنه حتى انه لم يكن يذكره حيث يتحدث عنه فى رسائله الخاصة الا بابنى يوسف .

واتم تعلمه القرآنى الابتدائى برعاية خاله ثم دخل جامع الزيتونة الاعظم حوالى سنة 1260 فاقبل على التدرج فى مراتب العلم بجد فائق واغترف من فيوض الاعيان المعدودين وجه طبقة التبحر والتحقق فى ذلك العصر امثال شيخ الاسلام محمد ابن الخوجه وشيخ الاسلام محمد معاوية والعلامة الاكبر الشيخ محمد النيفر والعلامة الضليع الشيخ محمد بن حمزه الشاهد والمحقق الفذ الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور .

وقد كانت امتن صلاته بين هؤلاء الاعلام بشيخ الاسلام الخوجى الذى انقطع للاخذ عنه دراية ورواية ولازمه ملازمة المريدين ثم صاهره على ابنته . وبشيخه نور الشباب العلمى المحقق ابن عاشور ، فقد تخرج عليه

تخرج التلميذ ولازمه ملازمة الصديق وعظمت محبته فيه وقويت عصبيته لطريقته حتى اصبح ملءالدنيافي نظره، ووقف على بحثه وتحقيقهزمامفكره وعلى ادبه ومحاضرته متعة نفسه. واكتملت ملكته العلميةتحصيلاو تحقيقا، فكان من الافراد المعدودين فى متانة الاساس ورشاقة البحث والغوص فى الفهم والتحقيق فى النظـر والبراعـة فى التقرير ، كما اكتملت ملكته الادبية ممارسة للغةوسلامة ذوق فى آدابها ورقة شعور بدقائقها فى النقد والانتاج. فكان من افراد العصابة التى رفعت شـأن الادب العـربى بتونس فى النصف الثانى من القرن الثالثعشر. وقويت صلاته فى ذلك المنهج بعماد النهضة الادبيـة الشاعـر الكبير الشيخ محمود قبادو ، وبصديقه امام اللغة والادب شيخ الاسلام سالم بوحاجب ، وفارس الشعـر والتاريـخ والمحاضرة الشيـخ الرئيس محمد البـاجى المسعودى. وانتصب للتدريس فى اواخر العقد السابع من القـرن الماضى ، وظهرت بواكر نتائجه لولا ان الوظيف الـدولى قطع ما بينه وبين التدريس. فقد اصطفاهالانتخابالذى كان يصطفى مثله من افراد المحصلين لمنصـب الكتابـة بديوان الانشاء الملكى وقوى تأثير جاذبية خاله الوزيـر ابن ابى الضياف على توجيه ذلك الانتخاب فدخل كاتبـا بديوان الانشاء للدولة التونسية سنة 1272 فى اوائـل

دولة المشير الثانى محمد باشا ، وتدرج بمواهبه فى سلم الامتياز وشب على عهد التنظيمات الدستورية التى وضعت اصولها بقواعد عهد الامان ، حتى اذا انتهت تلك الاصول الى التفريع والتخريج كانت لمترجمنا اليد الطولى فى تحرير القوانين الراجعة الى اصول عهدالامان رجوع التفاصيل الى ضوابطها الكلية . فكان كاتبالمجلس الذى تألف من شيوخ من المجلس الشرعى ورجال من الوزارة واركان الدولة فى ربيع الثانى سنة سنة 1274 لشرح قواعد عهد الامان ، ووضع لوائحالقوانينالمتفرعة عنها . وزادت مكانته رسوخا فى عهد الدولة الصادقية . فسمى عند تنظيم الوزارات والاقسام سنة 1277 رئيسا للقسم الرابع الذى هو قسم وزارة الخارجية، وقد كانت يومئذ منظمة الى الوزارة الكبرى فى شخص الوزير مصطفى خزندار . ولما انتظم المجلس الوقتى للنظر فى النوازل المتعلقة برعايا الدول الاجنبية انتظارا لتوقيع الاتفاقات النهائية بشان ابتداء نظر المحاكم التونسية على الاجانب بعد قبول ذلك المبدأ بمصادقة الدول على قانون عهد الامان . وكان تاسيس هذا المجلس فى ذى الحجة سنة 1277 ، كان المترجم احد اعضائه وكان له مجالا لمعاينة حقيقة الوضعية السياسية ومنفذا لتعرف ما يحف بها من مقاصد بسبب المشاكل والمراجعات الدولية

التى نشأت حول ذلك المجلس ، فجعلت مأموريته المصادق عليها نظريا ممتنعة فى حيز الواقع التطبيقى ٠

ولما اختل امر البلاد بنشوب الثورة الكبرى المعروفة بثورة ابن عذاهم فى ذى القعدة ستة 1280 وكان ما كان من احداثها المهولة التى اضطربت لها اسس الدولة وتزعزعت قوائم العرش الحسينى وكانت ميدانا للمسابقة فى الغايات السياسية المرتبطة بالمسالة الشرقية ، راى المشير الثالث محمد الصادق باشا ، بعد انقشاع سحب الثورة واستقرار سفينة الامن ، توجيه سفارة فوق العادة الى الخلافة العثمانية تكون غايتها تترير العلائق بين الايالة التونسية والسلطنة العثمانية على اصول واضحة تدفع عن البلاد التونسية المخاوف التى كانت تنتابها فى ذاتيتها ، وتضمن للسلطة العثمانية حقوقها على الايالة التونسية بصورة تقطع المطامع وتكف المشاغبات ، فاختير الوزير خير الدين لهذه السفارة واختير مترجمنا كاتبا لها ٠ فسافر فى معية الوزير خير الدين فى جمادى الثانية سنة 1281 ، وكان له مما حف بهذه السفارة من المشاكل قبل السفر وبعده ما ظهر من الوزير خير الدين من ثبات الموقف ورباطة الجاش درس سياسى يعز ان يجود الزمان بمثله ٠

وفى هذه المأمورية سعد مترجمنا بمقابلة امير المؤمنين السلطان عبد العزيز ، وشاهد من عظمة السلطنة وجلال دار الخلافة ما زاد فى علو نظره السياسى،كما شاهد من محادثات دهاقين السياسة العثمانية ومناهجهم ولا سيما الصدر الاعظم المشير فؤاد باشا ما وضح بين عينيه الوجهة السياسية التى يتجه نحوها الصادقون • ورجع من هذه الرحلة فى شعبان سنة 1281 متقلدا النيشان المجيدى•

واستمر فى رئاسة كتابة الخارجية فى ذلك الطور العصيب طور تحديد الروابط فى جو التزاحم والتلاعب والدسائس الخفية التى اصبحت هدفا للعلائق بين الدولة التونسية وكثير من القنصليات الى ان استفحل امر اللعب السياسى فى وزارة ابن اسماعيل واريد تشكيل الخارجية التونسية بتوجيه معين فصل المترجم عن رئاسة القسم الرابع ونقل الى رئاسة القسم الثانى الذى هو قسم الاحكام المدنية • فسمى رئيسا ثانيا مع الكاتب الشهير الشاعر المؤرخ الشيخ محمد الباجى المسعودى الى ان توفى سنة 1297 ، فاستقل المترجم برئاسة القسم الثانى ، وبتلك الصفة كان احد الذين اشتمل عليهم مجلس امضاء معاهدة الحماية بالقصر السعيد فى 12 جمادى الثانية سنة 1298 •

واستمر عمدة الاحكام العدلية قبل صدور المجلات وقوانين المرافعات . فكان باعه فى خدمةالنوازلوانظاره الفقهية الرشيقة وتحقيقه لمناط الاحكام اعظم قوةرسمت بها صبغة القضاء الاسلامى فى هيكل العدلية التونسية عند ذلك الطور ، واصبح نواة تفرع عنها الطور الموالى عند سن القوانين العدلية . فكان رئيسا للدائرة المدنية الى سنة 1302 ، ثم نقل لمجلس الجنايات عند تشكيل اقسام الوزارة فى شكل محكمة ، ثم صار رئيسا اعلى للدوائر الجنائية ودائرتى الاستئناف المدنى والاستئناف الجناحى لمحكمة الوزارة ، وبذلك اعتبر اكبر شخصية فى الدولة بعد الوزيرين .

وكانت مكانته عند صديقه الوزير الاكبر الشيخ محمد العزيز بوعتور وما يربط بينهما من عهود ويؤلف بينهما من توافق فى الوجهة وتضامن فى الموقف يبرز منزلته ويعلى مقامه الى الصف الوزيرى. فكان يعتبر تاليا لوزير القلم وينفرد من بين رؤساء الاقسام بمرافقة الوزير فى كثير من المظاهر وحضور مجلس الطابع السعيد. وبذلك كان المرشح المتعين لتقلد وزارة القلم عند ارتقاء الوزير محمد الجلولى الى الصدارة . فسمى وزيرا للقلم والاستشارة فى 15 محرم سنة 1325 ، وقلد الشريط

الاكبر من نيشان الافتخار، ولم يطل مقامه فى وزارة القلم حتى توفى الصدر محمد الجلولى فى ذى القعدة سنة 1325، فارتقى هو مسند الصدارة وتقلد وسام البيت الحسينى الرفيع وكان فى ذلك المنصب العظيم مظهرا لما تكون فيه من خبرة ولدتها اطواره الماضية من الضلاعة والصلابة، ونال بذلك عند الحضرة الناصرية ـ طيب الله ثراها ورفع ذكراها ـ من العناية والاعتبار ما هو اللائق بالروح الاسلامية العالية التى كانت تعمر ذلك الصدر الشريف.

وسافر فى صحبته الى باريس فى رحلته الرسمية شهر رجب سنة 1330. وعلى ما كان عليه من تأخر البدن وتقدم السن فان عزيمته لم تفتر وقناته لم تلن، وثبت موقفه رشيدا سديدا فى الادوار الحرجة التى ملأت عهد وزارته وارتبطت فيها الظروف الداخلية بالظروف الخارجية متسلسلة عن مقاطعة الترامواى الى حرب طرابلس وحوادث الزلاج الى حرب المغرب الاقصى الى اعلان الحرب العظمى. فلم يعط الدنية ولم يمكن يدا من دائرة نفوذه ولم يجازف بالمسؤولية القومية التى بين يديه، وان اشتد ما يلقى من طائفة تألبت ضده فى رجال القصر ورجال الادارة كان يغذى حركتها الكاتب العام للدولة التونسية الوزير اوربان بلان الى ان لقى الله متين الديانة وفيا

بالامانة في ذى القعدة I333 بمحل اصطيافه من جبل المنار . ونقل جسده الشريف الى تونس فاحتفل بجنازته في موكب ملكي عسكري حضره الملك المقدس محمد الناصر ، ودفن بالتربة الحسينية . تقبله الله قبول المتقين كما وقع ذكره بين الصادقـين * .

(*) المجلة الزيتونية : المجلد 9 ، الجزء 2 ، ص : 83 ، سنة I955

الشيخ محمد المكي ابن عزوز

الشيـخ محمد المكـى ابن عـزوز

لشد ما يألم ذو الشعور الحى و النفس اليقظة من ذلك الكابوس العجيب الذى نزل على التاريـخ التونسى فى أحداثه و آثاره ورجاله ، فلزه الى زاويـة الاهمـال ، وكساه ثوب الذبول والخمول • وضرب عليـه التلاشى والضياع ، وألزمه انعدام المصادر وفقـدان التأليـف ، و تعطل البروز حتى أصبحت الجهالة بأحواله سنة متبعة، والنكران لرجاله شرعا سائغا ، والطمس لمعالمه حقـا مرعيـا •

و لقد كنت ، حين ألاحظ أمر هذا الكابوس ، يشتد عجبى و يحتد غضبى من كونه عم بلا استثناء حتى دس الجهل فى أوساط العلم و أساغ النكران فى شارع المعرفة وفرض الطمس عند حق الاشارة ، فكنـت أرى مـا فى الفهارس من اهمال و تحريف و تنكير للاعلام التونسيين و كتبهم ، وما فى المراجع من الضرب صفحا عن رجال ما تزال صورة الأدب العـربى منقوصـة حـتى تطلـع وجوههـم فيها ، و آندهش لمـا يعتـرى رجـال البحث

والتنقيب والتحقيق من فتور عن دأبهم وقصور عن شأنهم حينما تمر مباحثهم عن ناحية من نواحى التاريخ التونسى فلا تلم و لا تعوج ، حتى كنت أتصفح منذ عهد قريب كتابا من أنفس الذخائر التى قربت الطباعة بينها وبين مستحقيها ، وهو كتاب جمهرة الأنساب للامام الحافظ أبى محمد بن حزم القرطبى ، وقد قام بنشره أحد علماء المستشرقين • فاذا هو يذكر فى مقدمته النسخ التى اعتمدها لتحقيق طبعته و تصحيحها ، فيصف نسخة كتب عليها تملك رجل اسمه محمد المكى بن مصطفى بن عزوز بالآستانة • ثم يقول : والظاهر أنه مراكشى الأصل انتقل الى استانبول •

يا لها من هفوة فى جانب شخصية تونسية من أبرز عناوين العلم و الفضل و النبل بين القطرين التونسى و الجزائرى ، ويا لشدة التهاون بأمر الكنز الذى بعثت منه تلك الذخيرة ، فما هو الا مكتبة من أندر و أعز و أنفس ما عرف التاريخ الحديث من الخزائن الخاصة فى العالم الاسلامى • ولولا الكابوس الآخذ بخناق التاريخ التونسى لما كان لمثل ذلك الناشر المستشرق أن يتهاون بذلك العظيم فى خزانة كتبه •

فلقد كان الشخص الذى أجراه الناشر مجرى النكرات علما من أعلام العلم والادب والمعرفة الواسعة ، وفذا من الافذاذ فى معرفة الكتب و الحرص على اقتنائها وجمعها، ومظهرا جليا من مظاهر الحياة العلمية المنبثة فى البلدان والقرى والبوادى ، و عنوانا على صنف من أصناف التربية العالية و النشأة السامية و السلوك المستقيم و الادب الغض و الخلق الكريم ٠

فهو محمد المكى بن مصطفى بن محمد بن عزوز بن عزوز، ينحدر من بيت عريق فى الديانة و الفضل والمنزلة الجليلة المنقطعة النظير و الصيت المطلق فى الخير و الهداية و الصلاح ٠

أصلهم من قرية تسمى البرج من قرى وادى سوف بواحات العرق الشمالى الشرقى من الصحراء الكبرى الداخل بين القطرين التونسى والجزائرى فى جنوبى خط السباخ المتصل بشط الجريد ٠ و لقد ارتكزت قيمة هذا البيت على ما شهر به جد مترجمنا الشيخ محمد بن عزوز من الورع والصلاح والقدم الراسخة فى السلوك الشرعى ، اذ تخرج على الصوفى الأشهر الشيخ محمد بن عبد الرحمان الأزهرى الجزائرى ناشر الطريقة

الرحمانية الخلوتية ، وعم ذكر فضله بانتشار الطريقة التى عظمت بها سمعته و علت شهرته ٠

و كان والد مترجمنا الشيخ مصطفى أول من استقر من فروعه بالبلاد التونسية ، فبنى على ما سبقه اليها من السمعة الطيبة زاويته العظيمة بمدينة نفطة ٠ وكانت مظاهر نفوذه متصلة غير محدودة فى المناطق الوسطى و القريبة من المملكة ، بما كون حوله عصبية متينة من الاعضاد والاتباع ، قائمة على الزوايا المنسوبة اليها المتفرقة فى أطراف المملكتين : التونسية والجزائرية ٠

فبين يدى ذلك الوالد ، و فى ذلك الوسط الملىء بالصلاح والمرؤة والعزة ، نشأ مترجمنا ٠ فولد بنفطة فى حدود سنة 1270 ، و تولى والده تربيته وتعليمه وتوجيهه ٠ وكانت نفطة و توزر يومئذ آهلتين بالعلم ، زاخرتين بالادب ، ناشطتى حركة التدريس والحوار والتأليف حتى اشتهرتا باسم الكوفة والبصرة ٠

فكان مترجمنا بما أوتى من المواهب و ما اكتسب من جميل النشأة وطيب التوجيه ، مقرا لتلقى نتائج العلم التى استقرت عند المشار اليهم من علماء الجريد أمثال عمه الشيخ محمد المدنى ابن عزوز و الشيخ النورى بن

بلقاسم النفطى ، و الشيخ ابراهيم البخترى التوزرى • ثم ارتحل الى تونس مكتمل التحصيل كما يرتحل الطلاب الى العواصم الجامعية الكبرى ، فأخذ بجامع الزيتونة الأعظم عن أعيان أعلامه شيخ الاسلام محمد الشاذلى ابن صالح ، وشيخ الاسلام أحمد ابن الخوجة ، وشيخ الاسلام سالم بوحاجب ، والعلماء الكبار : عمر بن الشيخ، ومحمد النجار ، ومصطفى رضوان ، وشيخ الاقراء محمد البشير التواتى • فتأصل علمه و علت منزلته واشتهر بامتيازه بالتفوق فى الفنون الأدبية والبراعة فى العلوم الرياضية•

و دعاه الى القطر الجزائرى نازع العرق و رحم الخؤولة و صلة العرين فسافر مترددا عليه ، واتصل هنالك بالأستاذ المربى الأشهر الشيخ محمد ابن أبى القاسم صاحب زاوية بوسعادة بين سلسلة جبال الزاب والسبخة المعروفة بزاوية الهامل ، فاتخذه شيخ سلوك وتربية وتوجيه • و اتصل بعلماء الجزائر و أخذ عنهم، ثم رجع الى تونس مكتمل الصبغة الصوفية السنية الادبية ، فكان معدودا فى طليعة الادباء الشعراء متعلقا بمنهج الرواية والاسناد وخدمة السنة ، مقبلا على ما كاد يعد منقطعا من علوم الرياضيات ، مجددا لعهدها مروجا لكتبها ، فكان فى جامع الزيتونة معدودا فى النوابغ

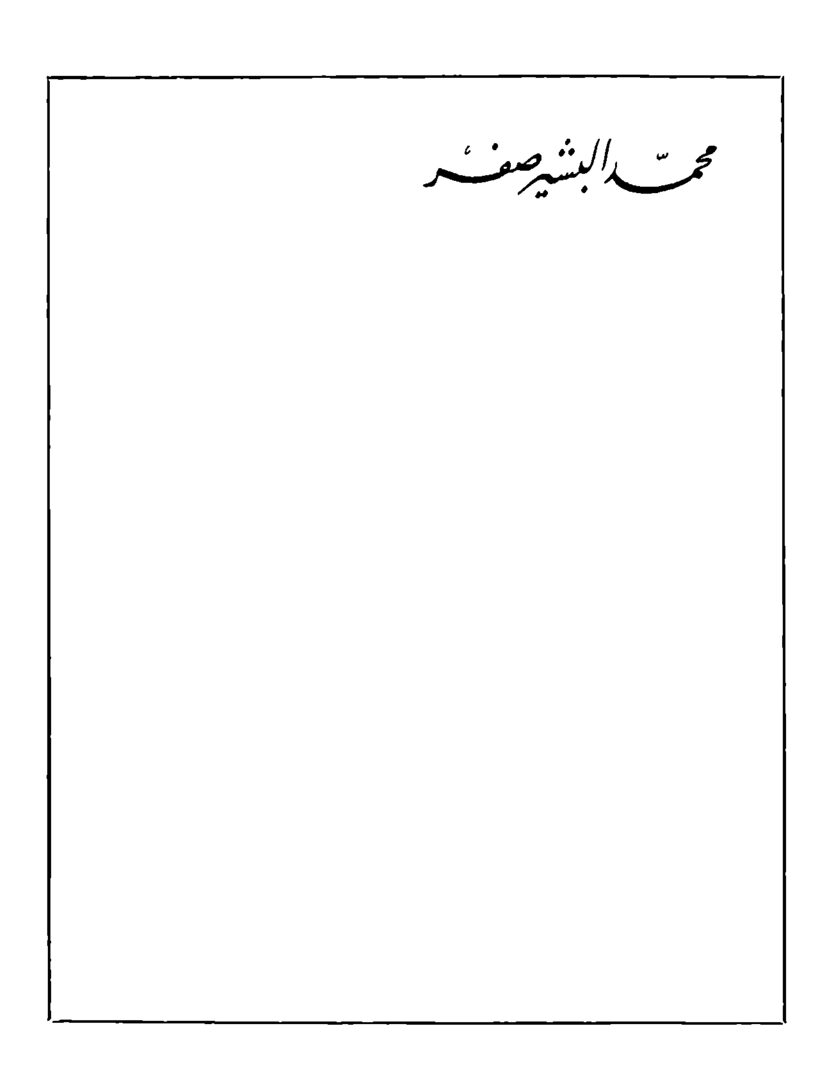
مشتركا بين الطلب و التدريس ، حتى انتخب فى عهد الوزير خير الدين لخطة الفتيا بنفطة وهو يومئذ فى عنفوان شبابه ، فأقام على تلك الخطة الى سنة 1298 . ثم اعتزلها اختيارا و رجع الى الحاضرة التونسية فانتصب للتدريس بجامع الزيتونة . و كان منهلا موروردا امتازت دروسه بكثرة الاقبال و غزارة المادة وفصاحة القول وعلو الاسلوب وجاذبيته . فكان المترددون على دروسه من عامة المستفيدين غير الطلبة لا يقلون أحيانا عن عدد الطلبة الكثير المتزايد . فكان معدودا فى طليعة العلماء البارزين ، على أنه لم يتقلد منصبا رسميا من مناصب التدريس . و كانت مراميه القومية و العلمية و الاصلاحية مرامى سديدة رشيدة ، فكان ذلك مجلبة لما حفه من المحبة والوقار بين عموم أهل الحاضرة ولاسيما الطبقات الحية منهم . وكانت اقامته بتونس سامحة له بتوسيع خزانة كتبه التى ضمت النفائس التى آلت اليه من كتب جده و والده ، ثم اقتنى هو من الفرائد التى كانت تصل الى يده بالجزائر أو بالجنوب التونسى . و فى سنة 1313 انفصل عن البلاد التونسية واستقر بدار الخلافة العظمى و نقل معه خزانة كتبه كلها متكلفا فى ذلك المشاق .

و نال بدار السلطنة العثمانية ما يليق بمثله من أهل

العلم والفضل فسمى مدرسا للحديث الشريف بدار الفنون ثم مدرسا بمدرسة الواعظين • و كان مرموقا من عموم أهل الآستانة بعين اعتبار عزيز المثيل و لا سيما فى الوسط العلمى و الدوائر العربية •

وهنالك تمكن من توسيع مكتبته الخاصة الى الحد الذى بلغ بها المبلغ الذى أشرنا اليه فى صدر الحديث بما كان لمدينة القسطنطينية من المركزية التى تجعل نفائس الكتب تأوى اليها من المشرقين و المغربين •

و توفى سنة 1334 مخلفا مجموعة نفيسة من التآليف والرسائل التى حررها وطبع الكثير منها فى حياته شاهدة على سعة علمه وسمو مداركه و بعيد تطلعه الى مقامات التحرير و التحقيق فى العلم والضبط فى الأسانيد والآثار • تقبله الله تقبل الأبرار •


محمد البشير صفر



محمــد البشيــر صفــــر

اهتزت مدينة تونس بأكملها و باتت فى حزن عميق، واشتركت طبقاتها كافة فى الحداد لنبا جاءها من سوسة ينعى رجلا له كل ما يعنون عليه لفظ الرجل من الكمالات، هو محمد البشير صفر • ثم هرع الناس يتسابقون الى مشاهدة جنازته ، يرى كل واحد على نفسه حقا فى اجلال الميت و وفاء بذمة له عنده فكان يوما تاريخيا مشهودا • وكان درسا عاليا فى تقدير مقام المخلصين و الوفاء بعهد العاملين • فقد غرست له حياته الحافلة بالجد النيــرة بالاخلاص بذور المحبة و الوقار و الثقة فى كل قلــب • كان كل من اقترب منه يحبه لما يرى فيه من نبل العواطف وصدق اللهجة و حفظ العهــــد و الغيــرة عــلى الحــق والمؤاساة الخالية عن التكلف و المؤازرة البعيــدة عـــن العصبية السالمة من الغش والرياء • و كانت محبة عارفيه تكسبه الوقار عندهم و عند من لم تتح لهم معرفته بمــا يؤثر عنه بلسان التواتر من المواقف الصادقة المشرقــة والاعمال الخالصة من كل شائبة ، البريئة عن كل تهمة •

و كانت الآثار الجليلة البادية فى اعماله تزكى تزكيــة عملية تلك الشواهد السلبية القائمة على سلامة ظاهرة وطهارة باطنة ، حتى اكتملت فيه ثقة الناس فاطمأنــوا الى عمله و إنقادوا الى رأيه و رفعوا سلوكه مقاما عليــا فوق تهمة التقصير و احتمال الطمع و الانتفاع · فلـم يعرف الا بوجه واحد فى الوظيف و فى الحياة الحرة · و لم يختلف تقديره عند اكبر طبقة من رؤساء الدولة عن تقديره عند أصغر اللاهجين بسمعته من عموم طبقات الامــة ·

أصل هذا الرجل الكامل من عائلة شهيرة مــن مدينــة المهدية من سلائل الجنود الاتراك · و كان والده اميــر اللواء مصطفى صفر قد تدرج فى سلك الجند النظامى التونسى من عهد المشير الاول احمد باشا حتى كان من كبار الضباط فى عهد الدولة الصادقية المشار اليهـــم بالكفاءة و الاستقامة ·

فولد المترجم بتونس سنة 1280 · و نشأ بها فى منزل والده من حومة طرنجة من الربض الشمالى للعاصمـــة خارج باب قرطاجنة · و كانت نشأته الاولى فى صيانــة اخلاقية تامة ·

ابتدأت نشأته الثانية فى المكتب القرآنى لحومته حتى فتحت المدرسة الصادقية سنة 1293 فكان من اول الداخلين اليها . و منذ دخلها أصبح المثل المضروب بين اساتذتها و طلبتها للسيرة المثلى و النجابة الفائقة و التحصيل الواسع . و طالما لفتت هذه المحامد اليه نظر الوزير العظيم خير الدين باشا ، فاعتنى به و شجعه و دعاه الى مائدته مرات عديدة .

واستمر على هذه المنزلة السامية بين أقرانه حتى تهيأت نخبة من تلامذة الصادقية للسفر الى استكمال الطلب فى فرنسا بعد انتهائها الى غاية برنامج الصادقية .

فكان المترجم عين تلك النخبة ، وعين رئيسا لأقرانه و ناظرا عليهم وقيما على شؤونهم . و كان سفر البعثة سنة 1298، فاستقرت بباريس و تفرق أقرانها على اشهر المدارس الثانوية بها ، فكان المترجم تلميذا بمدرسة سان لوى .

و كان يتولى سائر أقرانه برعاية و اهتمام فائقين ويبذل فى سبيل مصالحهم كل ما أوتى من جهد و ما وهب من اخلاص حتى رسخت له فى نفوسهم المكانة المكينة فأصبحوا ينزلونه منزلة الأخ الاكبر لا يصدرون الا عن

رأيه و لا يلجأون الا اليه . و بذلك تكونت له زعامة غير منازعة بين الشبيبة الصادقية استمرت ثابتة له الى آخر حياته .

ورجعت البعثة الى تونس فى الراحة الصيفية سنة 1299 فكانت مطمح الانظار . واصبح اسم رئيسهاالبشير صفر ملء الأفواه و صادف رجوعها انتصاب الحماية الفرنسوية و ظهور الحاجة الاكيدة الى طبقة من متعلمى اللغة الفرنسوية تتولى التوسط بين الاقلام العربية فى الادارة التونسية و القلم الفرنسوى فى ادارة الحماية و تتصل من قريب بما يجرى فى المراجع العالية بما يتعلق بحقوق التونسيين . فكان من اقصى آمال الناس يومئذ أن تجد البلاد من أبنائها من يحقق هذا الغرض و يسد هذه الثلمة . و كانت الشبيبة الصادقية هى المرجاة لهذا الامل . و لكن مترجمنا لما عرضت عليه هذه الفكرة أنكرها فى أول الامر انكارا شديدا و قايس بين الدرجة العلمية التى يراد منه و من أصحابه أن يتهيأوا اليها ، و بين الدرجة التى ترمى اليها مقاصد مؤسس مدرستهم ، و أبى إباء كليا ان يقبل الدخول للوظائف هو أو احد رفاقه ، ملحا فى أن يسمح للبعثة بالرجوع الى معاهدها العلمية فى باريس عند افتتاح الدروس .

و لكن كتابا كريما ألقى الى المترجم من قلم حكيم هو قلم الوزير الخطير محمد العزيز بوعتور يشرح له الاسباب الداعية لطلب انخراطهم فى الوظائف و يبين له ما للوطن من المصلحة الاكيدة فى انتدابهم لذلك والتضحية بآمالهم العلمية فى هذا السبيل الذى يحمده المؤسس لو كان حاضرا و يرى أن من أكبر ثمرات مؤسسته اسداءها هذه الخدمة للوطن فى هذا الوقت الحرج .

وأمام هذا البيان الشافى اقتنع المترجم بوجوب تلبية داعى الواجب ، ودخل مع ثلة من رفاقه فى خدمة الدولة التونسية ، فسمى مترجما بالكتابة العامة سنة 1300 واظهر فى مباشرة وظيفه من خلاله الحميدة و تربيته الراسخة و أمانته النادرة ما أكسبه المقام الممتاز فى نظر رجال الدولة .

و بدأ فى دائرة قسم الترجمة يختص بخدمة محاسبات الادارة العامة حتى استقل بها ، فكان أول رئيس لقسم المحاسبات سنة 1307 . و انتدبته الدولة لوضع نظام يجمع بين مأموريته هذه و بين رئاسة قسم المحاسبات بالكتابة العامة مع المهمة التعليمية التى عهد بها اليه لما أنشىء

للمدرسة الصادقية فرع ابتدائي ببطحاء رمضان بـاى ، فكان مديره و معلما به سنة 1305 ٠

و لم تكن هذه الشواغل العديدة لتلهى مترجمنا عـن أن واجبا مفروضا عليه و على رفاقه نحو أمتهم و وطنهم فى العمل للنهضة الفكرية و بث المعارف بطرق النشـر و الخطابة العامة ٠ فابتدأ بتكوين نخبة من ذوى المقدرة الكتابية من ابناء الصادقية وانشأوا صحيفة أسبوعيـة سموها « الحاضرة » ٠ صدر العدد الاول منها فى 24 ذى القعدة سنة 1305 الموافق لثانى أوت سنة 1888 ٠ و كان مترجمنا فى هذه الجريدة ركـن التحريـر والتفكيـر بالاشتراك مع صديقه المرحوم على بوشوشة ٠

و كانت جريدة « الحاضرة » ميدانا فسيحا لقلمه السيال بما تدفق به من المقالات العلمية و الاجتماعية و السياسية العاملة لانارة الرآى العام التونسى بحقائـق الاحـوال الحاضرة و الغابـرة الى سلوكها مـع خدمـة القضايـا السياسية الشرقية و الاسلامية و بيـان نسبـة الآمـال التونسية من حركة النهضة العامـة بالعالـم الاسـلامى و الارشاد الى منهاج الرقى التى تدعو ضرورة الحيـاة الوطنية اليه ٠ وكانت هذه المقالات تحرر على أسلوب من السهل الممتنع فى جمل بليغة دقيقة واضحة و انتقال من

المناسبة الماثلة الى الذكرى الملحوظة والبرنامج المخطوط ، فى بيان ساحر و انتقال مناسب و سبك محبوك الاطراف بما جعل المترجم حاملا راية التحرير الصحفى بتونس فى عصره وقدوة المتعاطين بعده لفن المقالات الصحفية ٠

وقد زاد عمله لخدمة النهضة الفكرية بتونس اتساعا بسعيه فى تاسيس الجمعية الخلدونية سنة 1314 للقيام بدروس حرة و محاضرات فيما كان من العلوم مهجورا فى تدريس جامع الزيتونة الاعظم من العلوم الاجتماعية والرياضية و الطبيعية ٠ فقامت باداء مهمة خالدة فى تاريخ الثقافة بالبلاد التونسية ، و أقبل عليها طلبة الجامع اقبالا عظيما ٠ و كان المترجم يقوم بدروس التاريخ فكانت له محاضرات فائقة رنانة تغص بمستمعيها قاعة الخلدونية الكبرى ٠ و فيها ظهرت مواهبه و بدأ نبوغه بما جمعت تلك المحاضرات من القوة الخطابية الرائعة و الضلاعة التاريخية و المقدرة على ربط الحوادث و تعليلها و الرجوع بابعد التفاصيل التاريخية الى احدث المشاكل السياسية التى كانت تشغل الافكار يومئذ ٠

و بهذه المكانة العلمية البادية بين جمهور الزيتونيين الذين كانوا رواد دروس الخلدونية أصبحت للمترجم بين الزيتونيين زعامة لاتقل عن زعامته بين الصادقيين ٠

و أصبح لهم من الاجلال و المحبة له ما يوازى ما لاخوانهم من الشبيبة الصادقية ·

وقد زادت علائقه بالمتخرجين عليه من الزيتونيين لما اصبح ينتخب منهم موظفى ادارته بجمعية الاوقاف فكانوا حوله يخدمون المصلحة العامة ، مؤتمرين بامره ، و قد عرفوا من مقامه أستاذا ومن منزلته رئيسا ما جعلهم يفادونه بالارواح ·

و قد أبدى فى مدة مباشرته لرئاسة جمعية الاوقاف من سنة 1317 الى سنة 1327 تقديرا للغرض السامى الذى أنشئت له تلك المؤسسة المباركة و ذبا عن مصالح الاحباس وحرصا على تحقيق المقاصد منها بتوسيع المؤسسات الحبسية على نحو ما توجبه حالة الزمان · فقام باصلاح كثير من المكاتب القرآنية و أجرى من الاوقاف اعانات كثيرة لمؤسسات خيرية وعلمية · وكان أشهر عمل قام به بصفة رئيس للاوقاف احداث البناية العظيمة لتكية العجز فى مكانها اليوم بشارع باب البنات التى كان الشروع فى بنائها سنة 1321 فى يوم تاريخى مشهود ·

و بمجموع هذه النواحى من حياته العامة كان البشير صفر أبرز ذاتية عاملة للمصلحة العامة بتونس

و مؤسسة للمشاريع التى انبعثت عنها النهضة التونسية فى مختلف ميادينها ، حتى سمى عن حق : أبا النهضة التونسية .

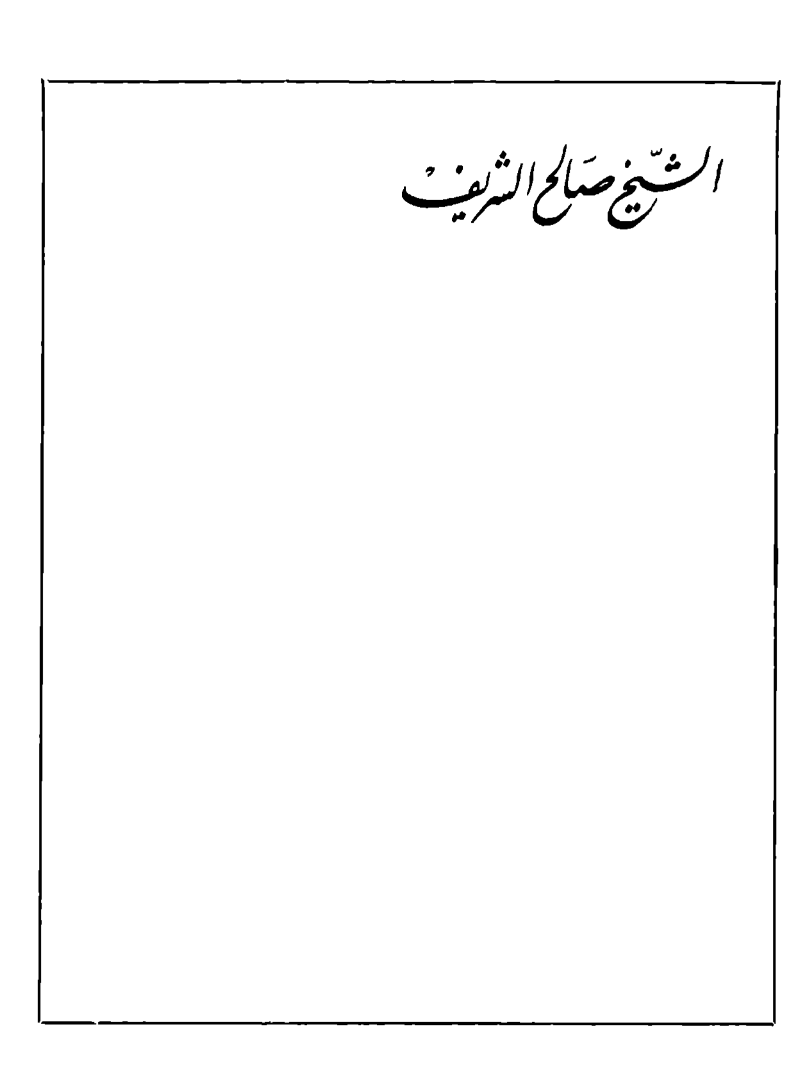
و قد عرف له هذه المنزلة الفائقة كل من عرفه . فاغتبط بمعرفته و الحديث معه من زعماء النهضة الشرقية أمثال الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده الذى عرفه فى زيارته لتونس سنة 1322 ، و زعيم النهضة الوطنية المصرية مصطفى كامل باشا الذى عرفه فى فرانسا ، و زعيم الوطنية المصرية و الوحدة الاسلامية محمد بك فريد الذى لقيه عند زيارته لتونس ثم اجتمع به فى مصر عند رحلة المترجم اليها فى ضيافة الاميرة نازلى . و بمكتبة الخلدونية شاهد ناطق بهذه الرابطة الودادية هو نسخة من « تاريخ الدولة العلية » لمحمد فريد ، عليها الاهداء بخطه لمترجمنا .

و فى سنة 1327 انتدبت الحكومة مترجمنا لتولى خطة عامل على سوسة ــ وهى اكبر أعمال المملكة التونسية ــ ففارق جمعية الاوقاف ، وفارق الحاضرة التونسية ومشاريعه بها . وكان لخروجه من تونس رنة أسف شديد بين عموم الطبقات التى ايقنت بصعوبة اخلافه على رأس تلك المشاريع ، حتى أن كثيرا من تلاميذ

الخلدونية و موظفى الاوقاف يعتبرون يوم فراق البشير صفر لتونس يوم حزن لا ينسى فى تاريخ حياتهم الشخصية • و قد أقيمت لتوديعه حفلة مؤثرة بالجمعية الخلدونية اشترك فيها عدد ذو بال من مقدرى فضله والمعجبين به •

وقد سلك فى خدمة الاعمال مسلكه المعتاد من الجدية والبساطة ، فاطرح جانبا تلك التقاليد التى كانت متبعة قبله عند العمال من الاغراق فى الحجاب و الاخذ بالرهبة، فأرى الناس معانى المسؤولية المحدودة ، وأعاد على منظوريه كرامتهم و حرمتهم ، ونجح فى ذلك نجاحا عظيما كان برهانا قاطعا على فساد الاعتقاد الرائج من أن خدمة العمال لاتستقيم الا بأساليب الارهاق و التعاظم • فأقام عمل سوسة تحت ادارته ناعما هادئا الى أن عظم المصاب بفقده فى سنة 1335 الموافقة لسنة 1917 ، فخسرت النهضة الوطنية فيه عضدا متينا ، كما خسرت الدولة مرشدا أمينا • تقبله الله بوافر احسانه ، وجزاه عن صدق لسانه ، وطهارة جنانه * •

(*) الثريا : السنة الاولى ، عدد 7 ، جويلية 1944 •


الشيخ صالح الشريف

الشيخ صالح الشريف

فى الشخصيات الاسلامية اعلام كلما رن ذكرها فى وسط من الاوساط المحدودة الضيقة انبعث طنينه عاليا داويا فى الاجواء، حتى تعود اصداؤه المتجاوبة الى الوسط الذى انبعثت عنه باصوات مجموعة مما تفور به الآفاق شرقا وغربا ، فاذا هى الاجواء البعيدة الممتنعة حاضرة مجلوة تشرق ببريقها وتشنف بوقعها ، واذا الوسط الذى كان ضيقا حرجا قد اصبح بما حملت اليه تلك الذكرى فى انشراح وسعة ، ينطوى على عالم من الاسرار والانوار قد تضخم به وجوده وعظم ، وأشرقت به حقيقته فاستضاءت واستعلنت .

لذلك ترى العواصم الشريفة جد حريصة على ان تتخذ وسائل الاحياء والتعريف لاعلام الرجال الذين خلدوا فى تاريخها ، لتجعل من اصداء اسمائهم حقائق حية لمعان ما كانت تعلق بها لولا اولئك الاعلام .

وما العلم الذى هو موضوع الترجمة الا واحد من ابرز هؤلاء .

فهو الاسم الذى كلما ذكرته البلاد التونسية علقت بذكره على واجهة المدينة معانى مرتبطة بذلك الاسم الشريف من تاريخ القطر الجزائرى الشقيق ومقام النسب النبوى الشريف فى جبال القبائل منه • وما لقيت به بيوت تونس الذين آووا اليها فى مهاجريهم ، ثم نشرت صحيفة من حياة العلم والبيان المطوية فى تاريخ جامع الزيتونة الاعظم ، وبعثت تيارا عن روح الجامعة الاسلامية كان يجرى فى حياة الجيل الماضى متدفقا بتونس وبالآستانة العلية وطرابلس الغرب والواجهة البلقانية وبالحرمين الشريفين ومصر والشام حتى بلغ اروبا الوسطى واختلط بمنابع نهر الرون • فكان بذلك كله لمدينته الخضراء عنوانا يشرفها عند نفسها ويعرفها عنه الناس •

فقد انحدر الشيخ صالح الشريف من ارومة كريمة صريحة النسب الادريسى الحسنى استقرت فى شمالى المملكة الجزائرية بمنطقة بجاية على المقام الاسمى الذى يحتله السادة الاشراف الادارسة من نفوس القبائل الكبرى بجبال جرجرة •

وانتقلت هذه العائلة الكريمة الى تونس ، اثناء النصف الاول من القرن الماضى ، على منهج الفضل والطهر والصلاح والعلم الذى سلكته فى تاريخها الجزائرى •

ففى سنة 1256 كان جد مترجمنا الشيخ محمد العربى الشريف احد الخمسة عشر عالما من المالكية الذين نظمهم المشير الاول المقدس احمد باشا فى سلك التدريس الرسمى بجامع الزيتونة الاعظم ، بمقتضى النظام الذى احدثه بالمعلقة ، ثم كان ولده الشيخ محمد المختار ـ والد مترجمنا ـ من افاضل الفقهاء العدول المرموقين فى الحاضرة وبخاصة فى ربضها الجنوبى بعين اجلال وتكريم •

وولد مترجمنا فى حدود سنة 1285 على مهد المروءة والطهارة تحوطه مثل الفضيلة وذكريات العزة، فارتضع افاويق البيان العلوى والحكمة الحسنية ، وفطم على حلاوة الايمان ، وحنك بكلمة القرآن العليا، ثم دب الى كعبة الدين والعلم جامع الزيتونة الاعظم اواخر القرن الماضى فانقطع الى الجلة الاعلام الفحول الذين تخرج بهم ، من امثال العلامة الكبير عمر ابن الشيخ وشيخ الاسلام سالم بوحاجب والعلامة الكبير حسين بن حسين والعلامة الكبير محمد النجار وشيخ الاسلام محمد بن يوسف • فكانت عنايتهم تحوطه لما لمع من بوارق ذكائه ودوى من رعود جده واقباله • وكان والده يتولاه بعناية وحرص خارجين عن الحد المعهود • واتصل من بين شيوخه اتصالا محكما وثيقا بالعلامتين عمر ابن الشيخ وحسين بن حسين فلازمهما

دروسا ومجالس ، واستفاد منهما علما ومناهج وتوجيهات، فاحرز على شهادة التطويع سنة 1304 وانتصب للتدريس باشارة شيخه العلامة عمر ابن الشيخ ورعايته واشرافه

حدثني سيدى الوالد ـ امد الله نوره ـ انه لما دخل لطالب العلم بجامع الزيتونة سنة 1310 كان العلامة المقدس سيدى عمر ابن الشيخ هو الذى انتدب لترتيب دروسه وتعيين مشائخه الاولين ، فكان اول اسم ذكره له من اسماء الشيوخ الذين انتخبهم له اسم مترجمنا ـ قدس الله ذكراه ـ

ولقد بدت على هذا المترجم العظيم منذ انتصابه للتدريس معان من المقدرة والجاذبية اوقرت محبته والتعلق به فى نفوس الطلبة ، والتفت حوله منهم نخبة من اعيان الاذكياء احاطوا به احاطة الهالة واختصوا به اختصاص البنوة والصحبة، فكان ذلك زائد فى شحذ همته العلمية ، وصقل موهبتيه النقلية والبيانية ، حتى اصبح وليس له شغل الا الدرس والمذاكرة ، فكانت دروسه فياضة غزيرة كثيرة فى جامع الزيتونة وغيره من المساجد والزوايا بالحاضرة ، حتى اربى عدد دروسه التى يلقيها يوميا على السبعة ، ملأ فيها حصص الليل والنهار وانقطع اليها عن كل شيء بما كان يشجعه من طرف والده على

ذلك ويعينه من كفاية والده اياه كل مهم مـن مهمـات الحيـاة ٠

فاصبحت حياة الدراسة حياته كلها وطلبته عائلتـه ومعاهد الدروس بيته ومرتعه ٠

وبدأ زكاء اخلاقه يجنح به الى تحقيق المثل العليا في الحياتين الفردية والاجتماعية بما كان يأخذ به تلاميذه من طرق التربية والايقاظ وسلك الى نفوسهم بما وهبه الله من فصاحة نادرة مسالك التوجيه الى الواجبات العليا على ما تقتضيه اصول الدين وعزائم الاخلاق ٠

فكان خطيبا مفوها قراع المواعظ بليـغ الاثـر فى النفوس ، ومدرسا مدربا ضرب مثلا نادرا فى قوةالعارضة العلمية ٠ وفى سنة 1310 تقدم الى مناظرة التدريس من الطبقة الثانية ، فكان مجليها ووليها ، ثم انتقل بعد ذلك إلى التدريس من الطبقة الاولى سنة 1311 فاشتهر وعـم نفعه واصبحت دروسه محط الرحال فأقرأ أعلى الدروس وارفع الكتب كتفسير الكشاف وشرح السعد على العقائد النسفيـة ٠

وفى سنة 1316 شارك فى لجنة اصلاح التعليم بجامـع الزيتونة الاعظم المنقعدة برئاسة الصدر العلامة المقدس

الشيخ محمد العزيز بوعتور ، فكان سيفامسلطاعلى محاولى الاخلال باستقلال كيان الجامعة الزيتونية بما جعل مدار تلك اللجنة عليه ونجاحها فى فصل الحياة الجامعية عن كل تبعية ادارية راجعا اليه ٠

وبما كان له من اليقظة الشعورية كان تعلقه شديدا بحياة الجامعة الاسلامية واحكام الارتباط بالخلاقة العثمانية ، فابتدأت فكرة الرحلة الشرقية تحوم حول فكره حتى استقرت ورسخت ٠

فبدأ فى تمهيد طرق الارتباط التونسى العثمانى متعاونا مع زعيم الناشئة الوطنية يومئذ محمد البشير صفر ومع الاحرار من الاتراك المهاجرين ، الذين كانوا يمثلون شق انصار الجامعة الاسلامية من حزب الاتحاد والترقى الشق الذى كان يتزعمه الشهيد انور باشا ٠

ابتدا يزاول اللغة التركية فى دروس كان عمل على اعدادها لذلك بمدرسة الجمعية الخلدونية ، واحكم صلاته فى الشرق بواسطة المتعاونين معه من عمد النهضة السياسية بتركيا ٠

وفى سنة 1324 خرج من البلاد التونسية قاصدا الشرق

بنية الحج مع فكرة راسخة فى الاستقرار النهائى بالشرق • فقصد دار الخلافة العثمانية ووجد سمعته الطيبة وشهرة اخلاصه وعلمه قد سبقته اليها ، فنال من عناية رجال الاتحاد والترقى اكمل منال •

وكانت نار الانقسام بين العرب والاتراك قد بدا وميضها خلال الرماد فانتصب لاطفائها • وحج فى موسم سنة 1325 فكان فيضا منصبا بالدعوة الى الالتفاف حول الخلافة ، ثم استقر بمدينة دمشق فعلا مقامه وطار صيته واشتهرت دعوته الاسلامية فادخلته فى خصومات مع انصار فكرة الخلافة العربية • وكانت شدة خلافاته فى ذلك مع الاستاذ الكبير المقدس السيد محمد رشيد رضا قطب مجلة المنار •

وعاد الى الآستانة سنة 1337 فعين ملحقا بدائرة مشيخة الاسلام ، وكانت له فى ذلك آثار محمودة فى العمل لجلب عناصر العالم الاسلامى الى دائرة الخلافة بطريق الرباط الدينى المحض • ولما نشبت الحرب التركية الايطالية بسبب عدوان ايطاليا على طرابلس الغرب سنة 1329 سافر مترجمنا الى الواجهة الطرابلسية ، فكان مجاهدا واعظا عمل بيده فى رد الغارة الايطالية وبعلمه وبيانه فى جمع الكلمة وقتل عقارب الفتنة حتى اخترق خطوط النار

مرات فى سبيل الاصلاح بين العناصر الاسلامية المشتركة فى تلك الواجهة .

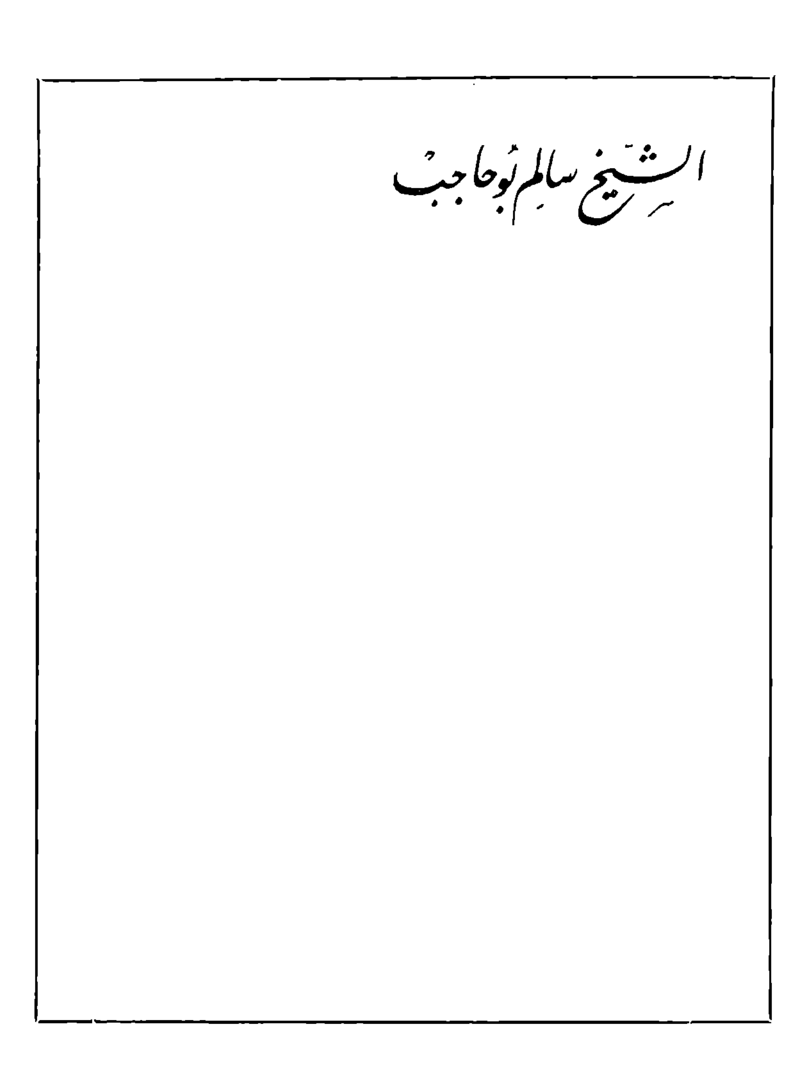
وقويت صلاته باثر هذه الاعمال الجليلة بالوزير الزعيم الكبير انور باشا فأبلى واياه البلاء الحسن فى الحرب البلقانية . وتزعم رحمه الله المظاهرة التى قامت عند الباب العالى ضد حكومة كامل باشا ، لما عزمت على تسليم ادرنه ، ثم لما قامت الوزارة الاتحادية برئاسة طلعت بك وكان انور باشا وزير حرب فيها سمى المترجم له مستشارا بوزارة الحربية .

ونشبت الحرب العظمى وهو على ماموريته تلك فكان فى اثنائها سفيرا مفوضا على راس بعثة مدنية عسكرية لاصلاح ذات البين فى الخلاف الذى نشب سنة 1333 بين سلطنة السعوديين بنجد وامارة آل الرشيد فى حائل وقد هيأه لذلك مقاماه النسبى والعلمى . ولكنه لم يستطع الاتصال بالملك عبد العزيز آل سعود وان كان يحمل اليه كتاب تفويض فى المذاكرات من الحكومة العثمانية عندى صورة منه .

وعند حدوث الاضطراب بنهاية الحرب العظمى خرج المترجم من تركيا الى سويسرا واقام بمدينة لوزان فى رفقة من اللاجئين السياسيين ، أخصها به زعيم الاسلام

وامير البيان شكيب ارسلان، الى ان توفى فى جمادى الاولى سنة 1338 ووصل نعيه الى تونس بواسطة برقية الى عائلته من سفير تركيا ببرن • ثم نقل جثمانه الطاهر الى البلاد التونسية فى ذى القعدة سنة 1338 فقبر بمقبرة الزلاج • لقاه الله اجر العلماء العاملين والمجاهدين الصادقين ، ورفق قدره فى عليين ، كما طهر ذكراه فى العالمين * •

(*) المجلة الزيتونية : المجلد 8 ، الجزء 2 ، أفريل 1952 •


الشيخ سالم بوحاجب



الشيخ سالم بوحاجب

شعلة من الذكاء النادر طلعت على قرنين من تاريخ هذه البلاد فأضاءت بها معالم الفضل واستنارت ربوع العلم وازدهت اسواق الادب و اشرقت نوادى الظرف ·

واشترك فيها القرنان الثالث عشر و الرابع عشر على نسبة معتدلة ، فرسخ لها بطول العمر مقام بين أبناء العصرين يوازى ما اتسع لطائر صيتها المالىء للخافقين · ذلك هو شيخ الاسلام سالم بن عمر بوحاجب المولود بقرية بنبلة من قرى المنستير من والد ينتمى الى ابناء سيدى مهذب من عروش الخيام الضاربين جنوبي صفاقس ، وأم من القلعة الكبرى من قرى عمل سوسة من عائلة سلامة المنتقلة فيما بعد الى حاضرة تونس ·

وكانت ولادته سنة 1244 · ونشأ هنالك فى ظلال زياتين الساحل نشأة قروية لقى فيها الشمس حارة ، و انتشق الهواء نقيا ، و تعرف الى البحر طاهرا كريما ، و خدم الارض و رعى الغنم · ثم تلقى تعليما ابتدائيا ،

وحفظ القرآن الكريم و انتقل الى الحاضرة فسكن عند عمه الذى كان معلما خاصا لأبناء الوزير مصطفى آغـه بقصره بباردو • ولم يكن قدومه الى الحاضرة قصد طلب العلم و لكنه صادف التفات همة المشير الاول أحمد باشا الى تاسيس التدريس الرسمى بجامع الزيتونة سنة 1258 • و تسامع الناس بذلك فحرك منه ذلك داعيا للتوجه الى طلب العلم بجامع الزيتونة • فدخله أواخر سنة 1258 • وأقبل على أخذ العلم بعناية وجد ووقف عليه ما جمع الله له من الحسنيين فى اكتمال الذكاء و قوة الحافظة • و انقطع الى شيوخ هم أقطاب العلم فى ذلك العصر ، فأخذ عن العالم الصوفى الشيخ محمد ابن ملوكة بزاويته خارج باب القرجانى ، و حضر درس الموطأ على العلامة الصالح شيخ الاسلام سيدى ابراهيم الرياحى بسقيفة داره ، وأخذ علوم العربية عن الاستاذ المحقق سيدى محمد ابن عاشور المشهور بحمدة و لازمه فى الجامع و فى زاوية جده خارج باب المنارة ، و عن العلامة شيخ الاسلام محمد معاوية •

و أخذ العلوم الشرعية عن العلامة المفتى الشيخ محمد الخضار و العلامة شيخ الاسلام محمد ابن الخوجة و العلامة قاضى الجماعة محمد النيفر • وقد كان ذكاؤه العجيب

و اعتناؤه النادر و محبته فى البحث وجراءته فى مراجعة الشيوخ تجلب اليه الانظار حتى اشتهر فى الاوساط العلمية كافة وأشير اليه بالنبوغ وعلو المنزلة العلمية وسلمت له رشاقة الابحاث وصواب الآراء ٠

وقد تعلق من رواية الشعر العربى و ضبط اللغة بما أصبح به منقطع القرين ، فكان يشد الرحلة الى باردو راجلا لمطالعة نسخة من القاموس بقصر الوزير مصطفى آغة حتى اصبح قيما على القاموس محيطا به يكاد يحفظه عن ظهر قلب ٠ و لازمته هذه الثروة اللغوية الى آخر حياته نامية غير ناقصة ٠

وصادف أنه فى حدود سنة 1264 توجه الى الشيخ سيدى ابراهيم الرياحى مستأذنا فى استعارة نسخة من حاشية عبد الحكيم على المطول من خزانة الجامع الاعظم على حسب نظام الكتب فى استئذان شيخ الاسلام فى اخراجها ، فامتنع سيدى ابراهيم من الاذن له اعظاما لشأن الكتاب و استصغارا لقيمة هذا الطالب الذى جاء مستأذنا فى اخراجه ، فراجع الشيخ سالم سيدى ابراهيم فى هذا الامتناع بأبيات لطيفة ورفع اليه قصيدة تتضمن أن له بحثا مع عبد الحكيم احتاج لاجله الى مراجعة نص عبارته ٠ و فى هذه القصيدة عرض البحث على الشيخ

وطلب جوابه . فكانت هذه المناسبة داعية لعظيم اشتهاره و الاعتراف بعلو مقداره . و بها قربت منزلته من أعيان الطبقة العليا من علماء العصر ، فاستدناه العلامة شيخ الاسلام محمد بيرم الرابع واختص به و أنس بأدبه وفتح له مكتبته العزيزة الجامعة . واتخذه صديقا يطارحه الأدب و يساجله الشعر . و فى حماه تعرف بشاعر تونس و لغويها الشيخ محمود قابادو فاتثق اتصاله به و زاد ذلك فى فتق مواهبه الأدبية . كما انعقدت أواصر الصداقة بينه و بين العلامة نقيب الاشراف سيدى محمد الطاهر ابن عاشور ، و أصبح من ملازميه و آهل وده الذين سقطت بينه و بينهم حجب الكلفة .

وبذلك آصبح مترجمنا عمارة لاعظم النوادى العلمية وعينا لأرقى المجالس الادبية يملأها بفصاحته الباهرة ونكته اللطيفة و أذواقه الرفيعة و ابتكاراته العالية ، حتى تعدت سمعته أوساط اهل العلم الى أوساط رجال الدولة . فابتدأ اتصاله بالمستشار امير الامراء محمد البكوش و أمير اللواء حميده ابن عياد لمكان صداقتهما لصديقه سيدى محمد الطاهر ابن عاشور واجتماعهما به عنده ، حتى أصبح امير الامراء البكوش أخص احبابه

واصبحت سانيته بأريانة وداره بشاطىء دار الصناعة قرب سيدى أبى سعيد منتدى أدبه و مربع أنسه بعد انقراض نادى الشيخ بيرم الرابع و الشيخ ابن عاشور . كما تكونت صلاته برجال الدولة من طريق آخر وهو أن شيخ الاسلام محمد بيرم الرابع انتخبه لكتابة المجلس البلدى عند تاسيسه سنة 1275 . و هنالك تعرف بالوزير حسين ، و منه تعرف بالوزير خير الدين فأصبح لكل منهما صديقا حميما .

أما الوزير حسين فقد استرسلت علاقاته المتينة معه وطالت معاشرته اياه حضرا وسفرا . فتكونت له به صلة تشبه القرابة العائلية حتى أنه أوصى بثلث ثروته بعد موته لأبناء صديقه الشيخ سالم بوحاجب .

وأما الوزير خير الدين فقد استحكمت بينه و بينه أسباب المودة ، ووجد كل منهما فى صاحبه ما يثير الاعجاب . فكان صديقه في وقت العمل ، وصديقه فى طور الانقطاع لما تباعد عنه ذوو الاطماع . فكان المتولى لاعانته على تحرير كتاب « أقوم المسالك » و المنقح له مسوداته ، كما صرح بذلك فى خاتمته اذ قال : «مستعينا فى تحريره ببعض ابناء الوطن » .

وبهذه الصلات فتح للاستاذ المترجم باب واسع للاشتراك فى العمل السياسى و الادارى . فانتخب عضوا فى المجلس الاكبر سنة 1277 ، و سمى رئيسا لاقلام التحرير فى الخدمة الادارية التابعة للجنة الدولية المشتركة لمراقبة المالية التونسية سنة 1270 . وسافر سنة 1288 الى الاستانة فى البعثة السياسية التى برئاسة الوزير خير الدين لتنظيم العلائق بين تونس و الدولة العثمانية ، وكان المتولى للمفاهمات فى تنظيم العلائق من الناحية الدينية مع شيخ الاسلام .

أما من الناحية العلمية فقد كان صاحب الترجمة يعتبر مجدد معالم العلم و محيى رسوم التحقيق و باعث النهضة الفكرية بين العامة و الخاصة .

تصدى لتدريس العلم بجامع الزيتونة فى سنة 1265 الى سنة 1330 ، فكانت مدة تدريسه خمسة وستين سنة ، ويوافقها بحساب الجمل لفظ (صه) ، ولذلك انقطع عن التدريس سنة 30 امتثالا لهذا الامر ، لما كان مشغوفا به من مثل هذه المناسبات اللطيفة . و كان تدريسه أولا تطوعا ، ثم سمى مدرسا من الطبقة الثانية سنة 1275 ، ثم مدرسا من الطبقة الاولى سنة 1281 . وقام فى خلال هذا الزمن الطويل بتدريس كتب مهمة مثل الموطا و صحيح

البخارى ، و شرح العضد على مختصر ابن الحاجب الاصلى وشرح الاشمونى على الفية ابن مالك،و المزهر للسيوطى.
وتخرجت من دروسه طبقات عديدة متفاوتة ، حتى كان من تلامذته الحديثى الطبقة من تلقى عمن يأخذ عنه بثلاث وسائط مثال ذلك قاضى الجماعة العلامة سيدى محمد البشير النيفر ، فقد قرأ على صاحب الترجمة ، و قرأ على سيدى الوالد شيخ الاسلام محمد الطاهر ابن عاشور الذى أخذ عن العلامة المرحوم الشيخ عمر ابن عاشور ، و هو ايضا من تلامذة الشيخ سالم ، و أخذ عن شيخ الاسلام المقدس محمد ابن يوسف و هو من تلامذة الشيخ سالم ايضا ، و أخذ عن العلامة المفتى المقدس سيدى محمد النجار الذى هو من الطبقة الاولى من تلاميذه.

وبذلك أصبح نبغاء المتخرجين عنه لا يدخلون تحت حصر ، وان شئت فهم جميع المذكورين من اهل العلم الى منتهى النصف الاول من هذا القرن. فما منهم الا أخذ عنه مباشرة أو بواسطة و بذلك حمل حقا فى حياته لقب شيخ الشيوخ.

و قد كان يأخذ فى تدريسه بطريقة هو فيها نسيج وحده ، فكان معرضا عن كثرة النقول ، ميالا الى تحقيق

الغايات و الاسرار من المسائل العلمية ، نزاعا للنظر الى الاصول العالية فى كل فن،مستقل الفكرة فى بحثه،ولوعا بمناقشة الآراء و استنباط الافكار و ابتكار الانظار . وله قوة نقدية خارقة للعادة سمت بها منزلته العلمية . وتضاعفت قيمة دروسه ، فكان الطالب يجد فيه مؤلفا محققا للعلم لا مدرسا موصلا الى كلام غيره من العلماء . و قد اكتسبت دروسه من بارع أدبه ولطيف محاضرته و فائق ذكائه ما جعلها محط رحال الطالبين ، الجديرة بأن تضرب لها آباط الابل .

و قد انتهت به هذه الطريقة النقدية التحقيقية الى مصاف كبار المصلحين الاسلاميين . فكان من أول المنددين على ما أصبح عليه متاخرو الفقهاء من التمسك بظواهر النصوص والاعراض عن تحقيق المناط ، و من الداعين الى تحقيق النظر فى مقاصد الشريعة و تطبيقها على الاحوال الحاضرة ، و فى مقدمة المنتبهين الى مدى التغير الذى شمل الاوضاع العالمية كلها وامتد الى بلاد الاسلام ، فقضى بعناية خاصة بأساليب تطبيق الاحكام الشرعية على الحياة الجديدة و تنقيح أساليب التعليم الدينى بما يكفل تهيئة الاكفاء لهذا العبء العظيم . فلذلك اظهر انتصارا قويا لادخال العلوم الرياضية

والطبيعية فى برنامج التعليم بالجامع الاعظم • وأيد فى هذا السبيل تأسيس الجمعية الخلدونية تاييدا عظيما • و قام يوم افتتاح الخلدونية بخطاب عظيم فى بيان حاجة العالم الشرعى الى تلك العلوم ، وفائدتها العامة ــ جعل موضوعه دائرا على تفسير قوله تعالى « و علم آدم الاسماء كلها » وقد كان لذلك الخطاب وقع عظيم فى الأوساط العلمية و تأثير كبير على الزيتونيين فى التوجه صوب تلك العلوم التى كانوا عنها بمعزل • و لتشبعه بهذه الافكار الاصلاحية فى تلك المسالك النظرية كان أول المؤيدين للاستاذ الامام الشيخ محمد عبده عند حلوله بتونس ، المنتصرين لأفكاره الاصلاحية التى دار الحديث حولها فى اجتماعاته بأهل العلم من التونسيين و التى شملتها محاضرته البديعة على العلم و طرق التعليم • و قد انقلب الشيخ محمد عبده من تونس معجبا بهذا الاستاذ أى اعجاب ملاحظا أنه لو كان متصلا بحركة الاصلاح الدينى فى الشرق عند ابتداء أمرها لكان لها بمقامه العلمى وأفكاره النيرة شأن عظيم •

و قد زاد فى اتساع نظره و بعد غوره سعة رحلته فى الشرق و الغرب علاوة على معارفه الواسعة الجامعة و مواهبه الفطرية الغريبة • فقد كان رحل الى الآستانة و هى

عاصمة الشرق و قلب الاسلام ، و ارتحل الى اروبـا فى رفقة صديقه الوزير حسين سنة 1290 لمحاسبة القائـــد نسيم شمامة الذى كان القابض العام للدولة التونسية ، فخرج من تونس مطلوبا للدولة واقام بايطاليا و مات بها . و قد أقام مترجمنا لهذا الغرض فى ايطاليا ست سنيـن عالج فيها بمشاركة صديقه الوزير حسين هذه النازلـة المعضلة علاجا دل على مقامه الفكرى العظيم و مقدرتـه الفائقة فى اجراء هذه النازلة على أقوم طرائق آساليب النشر المشتركة بين الدول . و فى اثناء إقامته بايطاليا ارتحل الى فرنسا ، وزار معرض باريس سنـــة 1295 ، واجتمع هنالك بصديقه الكاتب الشهير الشيخ محمد بن مصطفى بيرم صاحب « صفوة الاعتبار » . فكانت اقامته الطويلة باروبا و تردده بين أقطارها فاتحة لنظره اليقظ لحقائق الامور ، و باعثة له للعمل لانهاض الفكر الاسلامى الذى أيقن بغفلته عما تمضى فيه الامم حوله من مسالك الجـد .

و كما وقف دروسه العلمية على انهاض افكار الطلبـة والسمو بهم الى هذه الغايات الاصلاحية السامية ، فقـد اتخذ من صفة الخطاة طريقا لايصال مبادىء هذه النهضة الاسلامية . فكان آول مصلح عملى لطريقة الوعظ الدينى

بالخطب المهمة التى أنشاها فى أهم الاغراض الدينية العملية والاخلاقية ، وخطب بها على منبر جامع سبحان الله من ربض باب سويقة ، وطبعت فى المجموعةالمشهورة المتداولة التى لم تزل الى اليوم أحسن مثال لما يتوجه فيه الواعظ الحقيقى الى عامة المسلمين من أغراض ٠

و قد كان مع دروسه اليومية بالجامع و خطبه الجمعية يقيم كل سنة موسمين علميين حافلين بدرسى الحديث اللذين يلقيهما فى شهر رمضان من كل سنة بجامع سبحان الله و بالمدرسة المنتصرية بمناسبة ختم رواية الحديث الشريف ٠ وكانت هذه الأختام مزيجا من الارشاد العام والتحقيق العلمى و الأدب الغض و النكت البارعة ، و هى جميعا مكتوبة بقلمه و تنيف على الستين درسا على موضوعات مهمة من الموطأ و من صحيح البخارى ٠ والى جانب هذا المقام المحمود من العلوم الدينية و أسرارها كان الاستاذ من علوم العربية بالمكانة المكينة التى لا يشق له فيها غبار ٠ فكانت له اليد الطولى فى الاحاطة باللغة واستحضار شواهدها و ادراك اسرار تراكيبها و التملى من الاذواق العربية و الارتواء من الأدب الجاهلى و عوائد العرب و أنسابهم ٠ فكان ياتى فى هذا الباب بالعجب بما جعله مضرب المثل فى رسوخ القدم من العربية

حتى كان محل إعجاب كبار علماء اللغة فى عصره ومن أشهرهم الشيخ احمد فارس الشدياق ناشر « لسان العرب » وصاحب « الجاسوس » على القاموس ، وكتاب « سر الليال فى القلب والابدال » وغيره من الكتب اللغوية الفائقة ٠

و لم تكن احدى ثقافتيه الشرعية و العربية لتستقل احداهما عن الأخرى ٠ فكانت مباحثه فى اصول الفقه والتفسير و الحديث تحاك على نيرين و يظاهر لها بين قوتين بما يخلع عليها من الاستدلالات اللغوية العجيبة و التخريجات الأدبية اللطيفة ، حتى سلم له التفوق فى استظهارات عديدة جارى فيها فحولا من أيمة السنة و العربية فى العالم الاسلامى فجلى عليهم ٠

و قد كانت متانة ثقافته الأدبية تبدو فى شعره الجيد الكثير ، و هى فى مقطعاته أظهر منها فى قصائده ، فكان يجمع فيها غرابة الغرض و توليد المعنى والزينة اللفظية البديعية المطربة ٠ وكثير من شعره مشهور سيار ٠ وسائره مجموع بعناية صاحبه فى ديوان يقع فى جزئين لم يزل فى المخطوطات ٠

و لا شك ان شخصية علمية كهذه الشخصية النادرة يجدر ان تزدان بها مجالس الشريعة ومناصب الفتيا ٠

فتقلد مترجمنا خطة الفتيا المالكية سنة 1323 وتدرج في سلمها حتى بلغ مقام مشيخة الاسلام في رجب سنة 1337 وأقام عليها الى وفاته في ذي الحجة سنة 1343 . فتوفي عن تسع وتسعين سنة كامل الصحة موفور النعمة ثابت الحفظ الى اواخر حياته .

وكانت وفاته بالمرسى . واحتفل بدفنه بتونس في موكب رسمي ، وصلى عليه في ساحة القصبة بحضور الامير المقدس المولى محمد الحبيب باشا ، ودفن في مقبرة الزلاج .

رحمه الله رحمة واسعة ، ونفعه بمابث من العلوم النافعة * .

(*) الثريا : السنة الاولى ، عدد 5 ، ماى 1944 .

الرئيس محمد الأصرم



الرئيس محمد الاصرم

ان الامة التى تراجع الالواح المنقوشة من تاريخها المخبوءة فى قرارات النفوس وخفايا المشاعر يهولها ما مر بها من الساعات المظلمة الكريهة ، ساعات أحدقت فيها بهذا الكيان الخالد غيلان مرعبة من عوامل الانحلال الماحق • فهنالك يحدثها الشعور بالذات حديثا غير مؤول ولا مردود عن بقائها و ثباتها فى وجه المهلكات ، بل عن سر العصمة الالهية المتجلى فيها ، حديثا يدفع بها الى التقدم نحو مستقبلها واثقة بعظمته مطمئنة الى نجوى سعادتها و بسمة آمالها حين تستفيد من درس الخلاص وتقرأ حساب التقدير بين مظاهر الفناء الذى مد اليها يديه ، نتيجة لازمة للاطوار المارة بها لولا عصمة الله ، وبين مظاهر الوجود الحر الحار المتوثب التى تفيض على جوانب حياتها الحاضرة •

فيكون مغزى ذلك الدرس و فذلكة ذلك الحساب أن تهتز النفس اهتزاز اكبار و اجلال لاستحضار ذكرى الرجال الذين سمحت الاقدار بهم فى ظروف الخطر

المرعب ، فكانوا المضطلعين بالمجهود العجيب الذى يهول ذوى الجأش القوى ، والذى احتملوه بقـوى خارقـة للعادة ، هى القوى التى مكنتهم من أن يضعوا فى العرق العليل الجاف الذى امتد اليهم من الحياة البائـدة لقاح الحياة الجديدة التى تسير بنا نحو الآمـال الساميـة . وما هؤلاء فى نهضة الاسلام الحاضرة الا الافذاذ النوادر من ذوى المواهب و القيم ، الذين جعلوا مواهبهم و قيمهم وقفا على خدمة الحياة العامة على أصول مبتكرة لم يعهدها القرن الثالث عشر قرن الكوارث والادواء ، فأصبحـت منابع للحياة الجديدة التى فاضت على العالم الاسلامى فى قرننا الرابع عشر ، قرن النهضة و الانتعاش وخروج الحى من الميت .

فاذا كنا اليوم نأوى الى ظل ظليل من منظماتنا الاجتماعية ومؤسساتنا القومية فما هو الا ظل البناء الشامخ الراسخ الذى وضعت تصاميمه و أحكمت أسسه أيدى السابقين الأولين من رجال النهضة القومية الذين هاموا بالاصلاح الاجتماعى ، ثم تعرفوا الى طرقه ، ثم افترعوها فمهدوها وأقاموا معالمها التى نسير اليوم على هداها ، فلا تقـع خطوة من خطانا فى تلك السبل إلا أثناء على هممهم و تمجيدا لذكراهم ، كما يتمجد فى كل لحظة تنمـو فيهـا حياتنا

الفكرية الحرة ذكر أحد الأفذاذ الذين انشأوها إنشاء ، وهو مترجمنا الخالد الذكر الرئيس محمد الاصرم ·

نشأ فى أعلى وسط من أوساط الحاضرة التونسية ، ناهيك بالبيت الاصرمى بيت النبل والسيادة والمنزلة العليا من الوجاهة فى الامة و المكانة فى الدولة ، منزلة بيت أصيل النسب العربى استقرت فيه رئاسة عموم اقلام الدولة من انتصاب العائلة الحسينية الى آواخر القرن الثالث عشر · فهو محمد بن محمد المشهور حموده ابن الوزير الكاتب الشهير محمد بن محمد بن محمد الاصرم المشهور غلبة بالشيخ باش كاتب المتوفى سنة 1277 بعد أربع وعشرين سنة فى وزارة القلم ·

وكانت ولادة المترجم سنة 1283 · فدرج على مقتضى تقاليد الفضل ، وتولى العناية بتربيته أخوه الاكبر المرحوم الحاج أحمد و هو من أعيان الحاضرة و أماثلها المشار اليهم · وابتدأ تعلمه تعلما قرآنيا بيتيا · فلما تم انشاء المدرسة الصادقية سنة 1292 توجه منشئها العظيم الوزير خير الدين برغبة خاصة الى السيد الحاج أحمد الاصرم ليضع أخاه و متبناه فى حجر المدرسة الصادقية ، كما توجه بذلك الى كثير من ذوى المنزلة العليا من بيوتات تونس · فدخل مترجمنا المدرسة الصادقية

متدرجا فى أقسامها الابتدائية ، ثم استمر فى مرحلـة التعليم الثنوى جامعا بين دروس الصادقية و بين دروس يتردد عليها فى جامع الزيتونة الأعظم حـــتى انتـــهى فى برنامـــج تعليـــم الصادقيـــة الى نهايتـــه · فكـــان ممن اقتضى لهم نبوغهم وقوع الانتخاب عليهم للانخراط فى سلك البعثة الصادقية المعينة للسفـــر الى أروبـــا · فاختاره مدير الصادقية أمير اللواء محمد العربى زروق من آفراد الفوج الثانى الذى وجهته المدرسة الصادقية الى المدارس الفرنسية لاكمال التعليم الثنوى سنـــة 1298 · فكان مترجمنا ثانى اثنين وقع تعيينهمـــا للتخـــرج فى صناعة التعليم ، فالتحق بمدرســـة ترشيـــح المعلميــــن الابتدائيين فى سان كلو من أحواز باريس القريبة ·

و فى سنة 1301 انقطع عن التعليم بفرنسا واستقــــر بتونس بالوطن العربى ، كما انقطع اخوانه رجال البعثة الاولى و البعثة الثانية لما اقتنعوا بواجب الاستجابـــة الى استنجاد الحكومة التونسية بهم فى ســـد عـــوز الادارة التونسية فى طورها الجديد ابقاء على سيادةالبلادبين يدى أبنائها · فكان المترجم معينا من أول الأمر لمنصب التعليم بالمدرسة العلوية عند انشائها · و تخرج عليـــه هنالـــك

طبقات من ذوى الثقافة الجديدة الذين ملأوا بعد مناصب التعليم و الادارة .

و لما استقر على رأس ادارة الفلاحة مديرها الشهير بول بورد سنة 1313 و شرع فى تنظيم ادارته ، قرر ضم مصلحة الغابة التى كانت من المصالح المحدثة بالتنظيمات الخيرية فى شكل تعاضدية بين ذوى المقدار الزهيد من الزياتين المتكون منها غابات الزياتين القديمة المحيطة بالحاضرة التونسية .

و كان هذا الضم الذى طمع فيه مدير الفلاحة يلزم ان يكون قائما على مراعاة النظام الموجود يومئذ ، شأن كل مصلحة منظمة يكون لها نظامها حرزا من الضم الابتلاعى . و ذلك من أبرز مزايا الوزير خير الدين فى ما أبقى من المنظمات التى لم تزل متميزة الذاتية الى الآن كالمدرسة الصادقية لهذا الوطن و جمعية الاوقاف .

لذلك تقرر أن يقع انتداب مترجمنا لتولى عملية ضم ادارة الغابة الى الادارة العامة للفلاحة بصورة تضمن اندراج هذه فى تلك بكيفية تحفظ سلامة كيان ادارة الغابة و احترام المصالح القومية المنوطة بها .

وقد أعان على التوجه اليه فى هذا أنه من صميم الوسط البلدى الذى ترتبط مصالحه بادارة الغابة •

فلذلك انقطع عن مهمة التعليم وانتقـــل الى الادارة العامة للفلاحة بصفة مدير الغابة •

واستمر على رأس هاتيك المصلحة المميزة تجنى مـــن اخلاصه المتناهى واستقامته وحزمـــه ورأيـــه فوائـــد فى احكام نظامها و سلامة أساسها الى سنة 1329 بعدخروج المدير بول بورد ، حيث دبت عقارب السعاية به حـــول مناصب ما كانت ترضيها أساليب الجد والحزم الـــتى أخذ بها ، ففصل باستقالة عن تلك الادارة ، وكـــان أول تونسى تقلدها وآخره • و لقد كان منصبـــه فى ادارة الغابة سامحا له بفتح الباب لأمجد أعماله وأتمها خلودا •

فلقد كون له هذا المنصب صلة خاصة بمدير الفلاحـة بول بورد قلبتها مداركه السامية وصفاته العالية الى ود متين وتعاضد وثيق • و كان بول بورد قوى الصلـــــة بالسفير رينى ميلى قسيما لافكاره السياسية المبنية عـــلى التفهم و التسامح • فكان ذلك طريقا معبدا لمترجمنـــا لاقناع أعلى مرجع مسؤول عن سياسة الحماية بحقيقـــة اتجاه الشبيبة التونسية واستقرار مبادىء النهضـــة فى

المجتمع التونسى اقناعا فتح المجال لقيام الشبيبة التونسية فى تلك الحقبة بانشاء أهم المشاريع العظيمة الفائدة الطائلة العائدة التى يقع فى مقدمتها مشروع انشاء الجمعية الخلدونية .

وانه لمشروع اتصل به اسم مترجمنا اتصالا جعله يعرف بالخلدونية و تعرف به . فقد كان من أبرز رجال العصابة الزكية التى فكرت فى تكوينها و أبرزتها للوجود. ثم كان من يوم تأسيسها منقطعا للعمل فيها بعزم وجد. فمنذ سنة 1317 عين رئيسا لمجلسها ، فأصبح طرفا ثانيا من المحور الذى يدور عليه وجود تلك المنظمة العلمية العظمى هو وصديقه العظيم محمد البشير صفر ، فاستمر نحوا من عشر سنين لا يخلو مقعد الرئاسة عن أحدهما الا ليكون مديرا لاقسام التعليم ويكون الآخر رئيسا .

و بذل من عنايته و اهتمامه لهذا المشروع العظيم ما كان به أشهر العاملين فى سبيل الدعاية له وتمتين سمعته . ففى كل مناسبة من مناسبات التعريف والدعاية والنشريات والمجامع يكون للرئيس محمد الاصرم مناسبة ليعرف بمشروعه و يفتح أبصار القريب والبعيد لأهميته وحميد أثره بما كون للخلدونية مكانتها العالمية

الممتازة فى أوساط الثقافة ورفع درجته هو بين أهـل الفكر •

فأصبح المتبادر اسمه للاشتراك فى أهم المؤتمـرات العلمية و الثقافية • فقد اشترك فى مؤتمر المستشرقين بباريس سنة 1323 ، و اشترك فى مؤتمر افريقيا الشمالية بمرسيليا سنة 1325 ، ثم فى باريس سنة 1326 • و رسخت فى نفسه داعية الاشتغال العلمى ، فأقبل عـلى التحريـر و الترجمة ، واعتنى عناية خاصة بترجمة كتب التاريخ التونسى الى اللغة الفرنسية ، فكتب سنة 1318 بمعاضدة الاستاذ ساراس ترجمة لكتاب المشرع الملكى فى سلطنة أولاد حسين بن على تركى لمحمد الصغير بن المهدى البـاجى • وزاد انقطاعا الى الحياة العلمية منذ كان فصله عن إدارة الغابة مناسبة لرجوعه الى التعليم • فقد عين فى تلـك السنة ـ وهى السنة التى نظمت فيها دروس الترجمة فى شكل معهد تحت هذا الاسم ـ أستاذا بالمدرسة العليا للغة والآداب العربية • فشمر عن ساعد الجد لان يخلع عـلى دروس العربية المسندة اليه روح العروبة الصافيـة الأصيلة بما بعث فى تلاميذه همة كبرى لخدمة اللغة العربية وآدابها وانتباها فائقا الى ما تكنه تلك اللغة العظيمـة من كنوز الفكر والحضارة والبيان العذب •

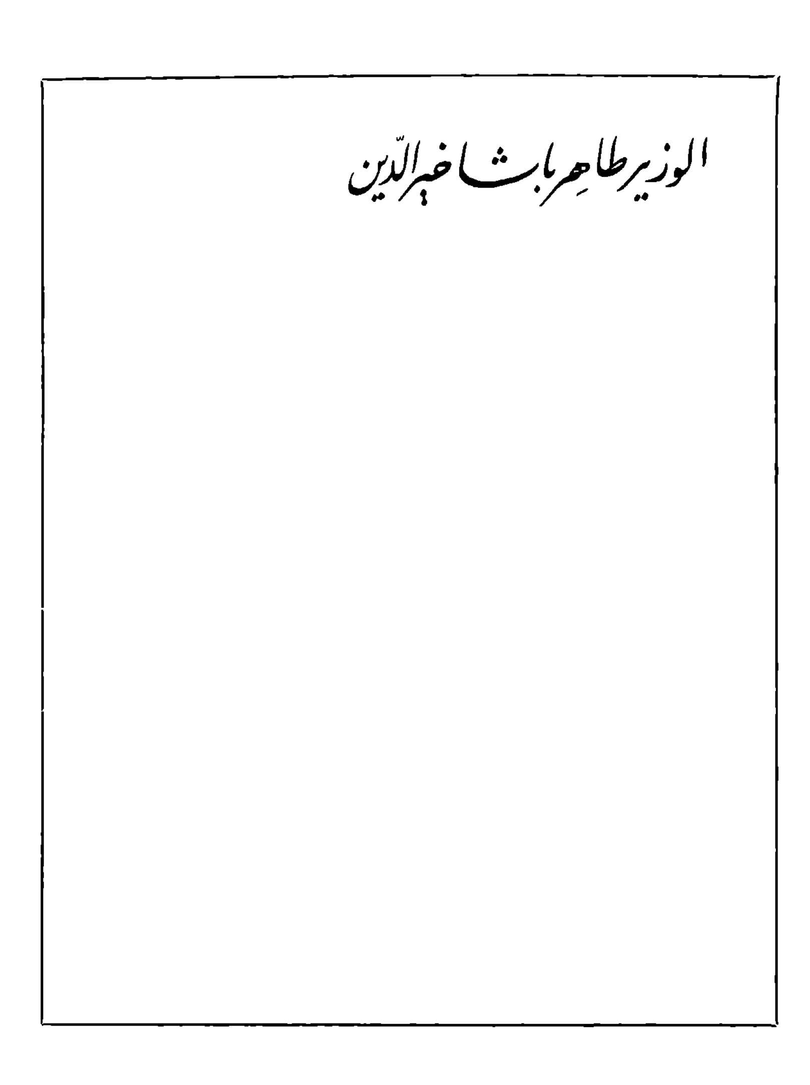
و في سنة 1334 انتدب لتدريس الترجمة بالمدرسة الصادقية ، فرجع الدر الى معدنه ، و فتحت لتلامذة الصادقية مناهل من فيض العربية اغترفوا منها ما شفى الغليل ، و عفى على الطرائق المرذولة والأسلوب العليل التى كان تعليم الترجمة عاكفا عليها و على كتبها. واستمرت صلاته مع صديقه بول بورد طريقا له الى خدمة ملته . فقد انقطع بول بورد الى حياة النشر والصحافة ، فكان يكتب فى أكبر الجرائدالفرنسية-وهى جريدة الطان-وينشر الرسائل الحافلة فى مسائل الاقطار المرتبطة بفرنسا . فكان مترجمنا سنده فى أكثر ما يكتب ، وكان ذلك له طريقا لخدمة القضيتين أو القضية الواحدة قضية تونس والجزائر بالمقائل و الرسائل التى أفادت فائدة عظمى فى الرأى العام الفرنسى . وتجددت علائقه المتينة مع جمعيته وابنة انشائه الخلدونية حين رجع الى رئاستها سنة 1333 ، فكان المحافظ على رمقها عندما ركدت رياحها و خبا مصباحها ، و مجدد شبابها عند انتعاش الحياة بنهاية الحرب العظمى سنة 1335 .

وحاطته الثقة الاجتماعية ، فكلما اختلفت الاتجاهات وتبدلت الجماعات كان الرئيس محمد الاصرم جامع

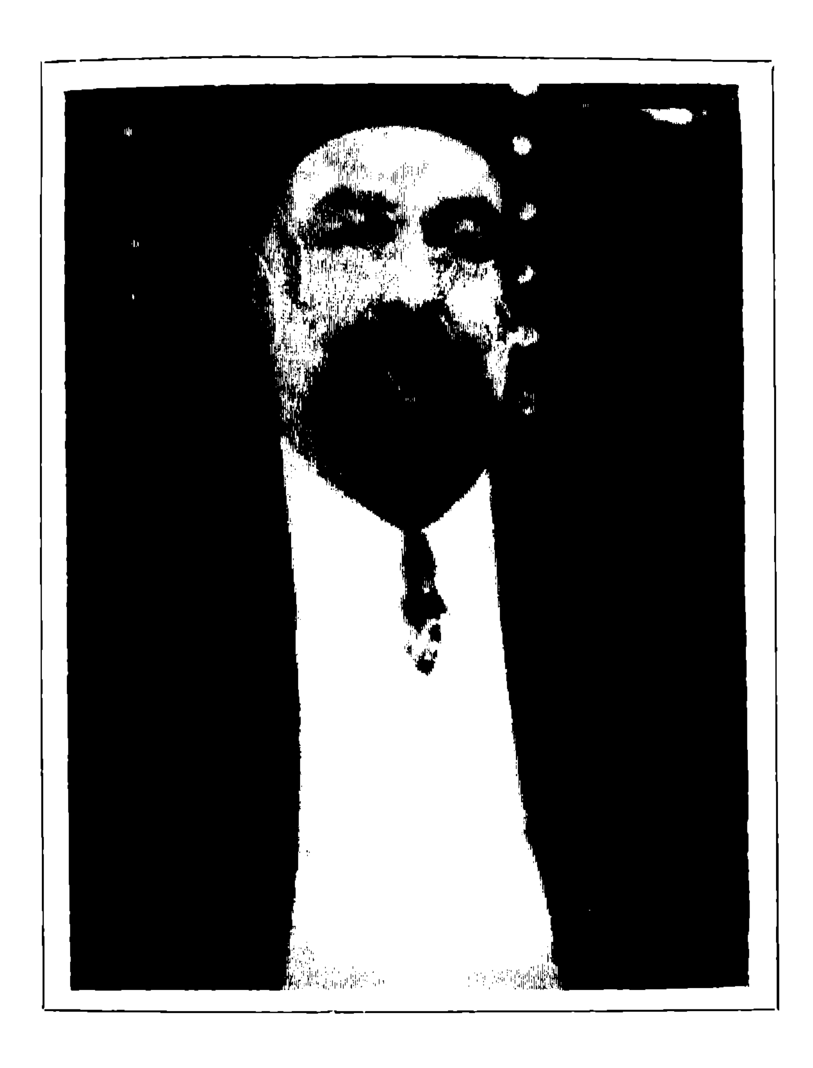
الكلمة و قطب الرحى · فأصبح روح التكتل و الاتحـاد طافحا عن مواقفه فى كل ميدان ، كما كان جامع كلمـة الجمعيات التمثيلية لما استحكم الخلاف بين جمعيتى الآداب والشهامة العربية ، فجمعهما فى جمعية التمثيل العربى تحت رئاسته سنة 1339 ·

وقوى نشاطه فى أخريات أيامه بنسيم مـن العنايـة الدولية هب عليه فزاد مضيا فى الخدمـة و ظهـورا فى ميادين العمل ·

وانتخب عضوا بجمعية الاوقاف سنة 1340 · وشارك فى لجنة اصلاح التعليم بجامع الزيتونة الاعظم التى انعقدت برئاسة قرينه وصديقه طيب الذكر الوزير مصطـفى دنقزلى سنة 1343 ، وساند حركة الاصلاح السياسية من وراء فى عزم لم تعقه عوارض الاعتلال التى انتابـت صحته ، و كان مهيا لمأموريات سامية فى خدمة الدولة لما أسلم الروح فى شهر شعبان سنة 1343 الموافق شهر مارس سنة 1925 · و كان موكب جنازته عظيما كمل شرفـه بحضور ملكنا الجليل سيدنا محمد الامين باشا شهـده بنفسه اذ كان ممثلا لصاحب العرش يومئذ والده محمد الحبيب باشا · ففى ذمة الغفور الرحيم صفحة من المجد الصميم و العمل العظيم ·



الوزير طاهر باشا خير الدّين



الوزير طاهر باشا خير الدين

لعل الايادى البيضاء والمنن الجسام التى أسداها الى هذا الوطن التونسى وزيره المصلح العظيم خير الدين باشا قد كونت فى التربة التونسية المباركة تعلقا بذلك الرجل و شوقا الى آثاره انبعثت جاذبيتهما من المغرب الى المشرق حتى رجعت الى أحضان الوزارة التونسية بابن الوزير خير الدين وأدرجت اسمه فى سجل تاريخها اعلانا بأن ابنها خير الدين الشهير لا يزال عالق الذكر بها موصول الارتباط بحظوظها ، و كان ذلك فى شخص الولد الثالث من أولاد خير الدين وهو الوزير العالم الاديب طاهر باشا .

ولد هذا العبقرى و والده فى عنفوان نشاطه لانجاز الاصلاحات التونسية التى اشتهرت به . و كانت ولادته فى قصر والده بمنوبة فى ذى الحجة سنة 1291 . و كان ابن اربع سنين لما خرج مع كافة عائلته للالتحاق بوالده فى الآستانة ، اذ قرر الاستقرار بها . فكان وصولهم الى الآستانة فى الثامن من ذى الحجة 1295 ، أى ليلة تقليد

والده منصب الصدارة العظمى . و قد تم انتقال تلك العائلة الكريمة فى مركب من المراكب السلطانية حضر لتونس لهذا القصد . وكان يرافقهم فى الرحلة سليمان باشا معين الحضرة السلطانية الموجه لهذا الغرض كما رافقهم من تونس العلامة الشيخ احمد الورتانى كاهية رئيس جمعية الاوقاف يومئذ .

و ابتدأ تعليمه تحت اشراف والده الذى أعد له برنامجا واسعا شاملا لتعليم دينى عربى و تعليم اروبى ، وتعليم تركى ادبى ، و تعليم عسكرى رياضى . فكان يقضى النصف الاول من النهار بالمكتب الخاص الذى أعد لابناء السلطان عبد الحميد و أمراء البيت السلطانى فى قصر يلدز ، حيث كان من أقرانه فى ذلك المكتب جلالة الخليفة عبد المجيد الثانى والامير محمد سليم اكبر أبناء عبد الحميد و كثير من أبناء امراء العرب و الترك . و اذا كان هذا المكتب لا يقوم بالتعليم الا النصف الاول من النهار فقد كان النصف الثانى من النهار مع جزء من الليل مرصودين للدروس الخاصة المنظمة بقصر الصدر الاعظم خير الدين لابنائه لاكمال النقص الذى فى تعليم مكتب الامراء السلطانيين .

و لما حدثت حوادث أفضت الى اغلاق المكتب السلطانى

انتقل مترجمنا طاهر باشا مع اخوته الى الليسى الفرنسي بحي غلطة من الآستانة مع الاستمرار على اكمال ما ينقص برنامج الليسى فى قصر والدهم ، خصوصا فى العلوم الشرعية واللغة العربية التى كانوا يتلقونها عن علماء من تونس و من تركيا و من الشام .

ومن الاقسام العليا بالليسى انتقل المترجم الى المكتب الحربى سنة 1304 ، فأقام به ست سنين تخرج فى آخرها بالشهادة العليا فى شعبان سنة 1310 . ودخل فى خدمة الجيش برتبة صاغ قول اغاسى ، و انتخب معينا لجلالة السلطان عبد الحميد ، فأقام فى حاشيته مقربا منه آثيرا عنده سبعة عشر عاما اتصل فيها بأهم اطوار القضية الشرقية بمقامه فى قصر يلدز الذى كان محور السياسة العالمية و قبلة آمال الشرق الاسلامى باسره . و لم ينقطع اثناء ذلك عن مهمته العسكرية ، فقد كان من المحاربين فى الحرب الشهيرة بين تركيا و اليونان المعروفة بحرب تساليا ، وفى ميدانها ارتقى الى رتبة قائمقام .

و كانت ترقياته العسكرية قد انتهت به الى رتبة أمير لواء لما أعلن الدستور العثمانى سنة 1327 . فترك العسكرية والحاشية السلطانية و دخل حياة الصحافة والسياسة منضما الى نخبة من مفكرى السلطنة العثمانية

مثل الامير صباح الدين و الصدر الاعظم كامل باشا . فأسسوا حزب الائتلاف الحر لمقاومة سياسة جمعية الاتحاد والترقى .

و قد كان عند دخوله الى حياته الجديدة مزودا بثقافة سياسية أدبية واسعة ، اذ كان ضليعا فى آداب اللغة التركية ، و من كبار كتابها ، أديبا فى العربية والفارسية مكينا فى اللغة الفرنسية و آدابها ، مشاركا فى اللغتين الانقليزية و الالمانية ، علاوة على ما أكسبته تجربته الطويلة من الخبرة السياسية ، و ما أكسبته مطالعاته التى لا تنقطع من الاحاطة باحوال الامم فى الحاضر والغابر . فكان النجاح حليفه فى حياته الصحفية ، و ملأ ذكره أوساط السياسة ، وطارت شهرته العلمية و الخطابية فى أنحاء السلطنة ، حتى انتخبته عاصمة الخلافة نائبا عنها بمجلس مبعوثان (مجلس الامة) سنة 1329 . فكان ميدانا فسيحا لمقدرته السياسية وقوته الخطابية ، حتى اصبح المشار اليه بين رجال حزب المعارضة للحكومة الاتحادية وأشدهم وطأة على زعماء الاتحاديين . وقد أكسبته مواقفه فى المعارضة ثقة زعماء البلاد العربية التابعة للسلطنة العثمانية لما كانوا ينقمون على الاتحاديين من منهجهم السياسى القائم على الملية التركية وعلى مناواة العرب

والسعى فى تحويل علاقاتهم بتركيا من علائق الخلافة الاسلامية الى علائق الاستعمار التركى • فلذلك لما تفاقمت المشاكل العربية بين داخلية و خارجية كان صاحب الترجمة من الرجال المدعوين الى حلها • فأسندت اليه ولاية القدس الشريف على عهد وزارة كامل باشا سنة 1330 ، فأقام على تلك الولاية مدة ، و ان لم تكن طويلة ، الا انه استطاع اثناءها تسوية الخلافات الكثيرة التى تكونت بين الحكومة و بين عرب فلسطين من جهة ، و بينها و بين انقلترا وفرنسا من جهة آخرى •

و لكن الشقاق الحزبى فى عاصمة الخلافة قد كان يعمل عمله حتى نشأت عنه حادثة الباب العالى الشهيرة على اثر سقوط ادرنة فى الصلح بين تركيا و بلغاريا فى صفر سنة 1331 ، و كان ما كان من اقتحام الاتحاديين للباب العالى بقيادة أنور باشا و قتل ناظم باشا وزير الحربية وسقوط وزارة كامل باشا وتولى الاتحاديين الحكم برئاسة محمود شوكت باشا • وكان من نية الحكومة الاتحادية الجديدة ابقاء المترجم على ولاية فلسطين ، و لكنه أبى الاستمرار على العمل مع خصومه السياسيين اباء تاما و صمم على التضامن مع حكومة حزبه المتخلية ، فقدم استقالته و خرج من القدس الشريف فى 25 صفر

سنة 1331 ملتحقا بالآستانة للعمل فى الدوائر الحزبية المعارضة للحكومة والقيام باعماله الصحفية ٠

و عندما وقعت حادثة قتل الصدر الاعظم محمود شوكت باشا اغتيالا ، و حملت مسؤولية ذلك الحادث على حزب الائتلاف الحر الذى كان المترجم من أكبر عمده ، و حكم بسبب هذه التهمة على أخيه الاصغر الداماد صالح خير الدين بالاعدام و نفذ عليه الحكم نفى المترجم نفيا اداريا الى بلدة سينوب على ساحل البحر الاسود فى طائفة كثيرة من زعماء الائتلافيين ٠

و بعد مضى شهرين على نفيه استطاع ان يستثمر جنسيته التونسية ، فخرج فى خفارة السفارة الفرنسوية بالآستانة مع اخيه العالم المتفنن محمد خير الدين والتحقا بمسقط رأسيهما من البلاد التونسية فى سنة 1910 ٠

و قد اقام المترجم كامل مدة الحرب العظمى فى ضواحى تونس بين منوبة و جبل المنار فى ضيافة اقاربه و اصهاره من آل زروق ٠ فكان معروف المنزلة عند نخبة من أهل الحاضرة ، عرفت فيه جمال المحاضرة و صواب الفكر وسعة المعلومات و طلاوة الحديث الادبى و بعد الغور

السياسى ورفعة الاذواق الفنية . أما من لم يعرفه ذاتيا وهم الاكثر فقد كانت طلمعته الجميلة المهيبة ونظراته القوية الوديعة و رفعته البادية فى تواضعه لا تبقى لناظره شكا فى أنه أمام رجل عظيم مفروض احترامه .

و قبيل انتهاء الحرب سافر المترجم الى سويسرا فاتصل بكثير من ساسة تركيا ، و كان لرحلته تلك أثر فى توجيه تركيا الى المسلك السياسى الذى نجت به من اهوال الحرب الكبرى بآخر رمق من حياتها . ورجع من رحلته الى تونس، وعند انبرام الهدنة سافر الى الآستانة و حظى بملاقاة جلالة السلطان محمد وحيد الدين ، فعرض عليه الاشتراك فى وزارة ائتلافية كانت واحدة من الوزارات التى تعاقبت على تركيا فى اضطراباتها . و لم يطل اشتراكه فى الحكومة حتى ثبت فى نفسه اليأس من الخلاص بالسلطنة العثمانية تركية و عربية على نحو ما كان يصبو اليه . ففارق الآستانة مودعا و صح عزمه على الاستقرار بالبلاد التونسية بصفة باتة . فرجع فيها الى عزلته و مطالعاته ومحاوراته العلمية والادبية مع خواصه المألوفين .

و لكن تطورا فى السياسة التونسية خرج بالباشا الجليل من عزلته الفلسفية الى منصب وزير تونسى .

وذلك أن البلاد التونسية قد منحت استقلالها القضائى و تقرر فيها فصل السلطة العدلية عن السلطة الادارية ، فاحتاج ذلك الى تكوين وزارة تمثل السلطة التنفيذيـة الادارية ، و تجمع شتات المحاكم التونسية المنوعةالمفرقة، وهى وزارة العدلية • فانتخب لها المترجم و تلقىولايتها من المولى المقدس محمد الناصر باشا فى شعبان سنـة 1339 • فكان به تأسيس وزارة العدلية التونسية ، وكان به فصل العدلية عن الادارة •

و قد أقام فى وزارة العدلية أربعة عشر عاما ، خلـع فيها على تلك الوزارة الناشئة من قيمته الذاتية ما أرسخ مقامها فى الاعتبار الى جانب المناصب التى توالتعليها الاجيال • وقام بتنظيمات مهمة فى المحاكم الشرعيـة على أساس الهيكل الذى شيده والده العظيم • وقد كانت آثاره فى اصلاح المحاكم الشرعية تكون أوفى وأكمـل لو كانت الظروف مواتية لانجاز برامجه • و كان وجوده ضمن الوزراء التونسيين رائد تسديد ورشاد فى سبيل تفهم الحقائق و حسن المواقف و رفـع قـدر الذاتيـة التونسيـة •

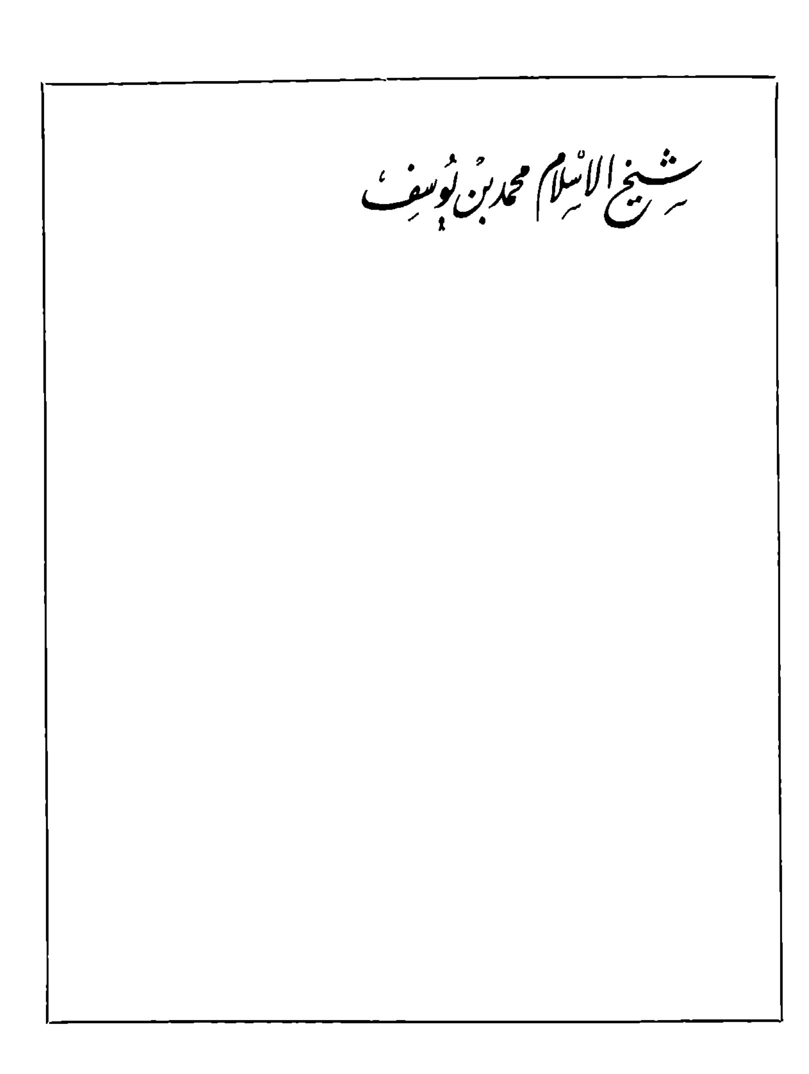
وفى سنة 53 استقال من وزارة العدلية لما حصل له من الاتعاب البدنية التوتر العصبى بسبب تراكم الاشغال •

فأقام عامين بعيدا عن تونس ، بين فرنسا وسويسرا ، ثم رجع الى تونس • فاذا هو شوق التربة التونسية الى سلالة خير الدين يناديه ، و اذا وقفة فجائية فى حركة القلب تختم حياة حافلة بالجد و المجد عندما يصل من فرانسا خبر تقليده الصنف الاول من وسام الشرف الفرنسى • فنقل الى تربة الزلاج من منزله فى عوالى ربى الخضراء • وفى عشية ممطرة من رمضان سنة 1355 انشقت الارض التى كان اعدها خير الدين تربة له فاحتضنت ابنه الذى لم تزل تطلبه من بعده ، والناس تنشد حولها قول ابى العلاء :

لاطبقت اطباق المحارة فاحتفظ

على درة المجد الحقيقة بالحزن (*)

(*) الثريا : السنة الاولى ، عدد 12 ، ديسمبر 1944 •


شیخ الاسلام محمد بن یوسف



شيخ الاسلام محمد بن يوسف

تلك الصورة الجليلة الانيقة و النظرة المهيبة الرقيقة التى لم تزل خالدة فى نفوس كل من عرف مترجمنا هى خير ما يعبر به عن مسلكه فى العلم و سيرته فى الحياة ومقامه فى الاذواق و منزلته فى الادب ، حيث كان فى هذه النواحى كلها مظهر الاتقان والرفعة ورقة الاحساس وسلامة الذوق و دقة النظر . و كان ما فطر عليه من الحس المرهف و الادراك السريع كفيلا له بتجهيز تلك الصفة التى امتاز بها ، صفة الحرص على الاتقان التى تفرعت عنها كمالات عديدة فى النواحى المختلفة من عظمته . فمن حرصه على الاتقان كان محققا فى علومه مبدعا فى تقريراته ، و من حرصه على الاتقان كان قوى الملكة النقدية سريع الاهتداء الى نقطة الضعف من كل رأى و محل المهاجمة من كل كلام ، و من حرصه على الاتقان كان أدبه شعرا و نثرا متين السبك بارع الأداء موفور البديع ، و من حرصه على الاتقان أيضا كان شديد الغيرة على نتاجه كثير الازدهاء بعمله لما يبذل فى سبيل

اتقانه من مجهود حتى يندفع بطبعه الى انشاد ذلك البيت الذى كان كثير التردد على لسانه :

و دع كل صوت غير صوتى فاننى
آنا القائل المحكى و الآخر الصدى

ولد هذا العبقرى كما سمعت من فمه ـ طيب الله ثراه ـ سنة 1274 بمدينة تونس فى حومة حوانيت عاشور . و كان والده يوسف بن ابراهيم جنديا من ضباط خزانة الامن العام بالمدينة ، ينتمى الى اصل جركسى من المدود المتلاحقة على الجيش العثمانى المرابط بتونس .

و قد ابتدا تعلمه فى الخامسة من عمره بالمكتب القرآنى القريب من بيته فى الناحية المشهورة بكوشة طاباق . و كان والده قد وجهه الى المكتب على نية متابعة السير به الى طلب العلم بجامع الزيتونة . و كان فى مكتبه قريبا للصنوين الجليلين الكاتبين الرئيسين الشيخ عبد العزيز تاج و الشيخ حموده تاج حفيدى الكاتب الوزير الشهير الشيخ أحمد ابن ابى الضياف ، واستمر قرينا لهما سائر مراحل الحياة . و لما أتقن حفظ القرآن الكريم و المبادىء الضرورية لطلب العلم دخل جامع الزيتونة صحبة رفيقيه سنة 1289 ، و هنالك انضم اليهم رفيقان آخران همـا

العلامة القاضى الشيخ اسماعيل الصفائحى ، و العالم المدرس الشيخ على الشنوفى . فأصبح هؤلاء الخمسة يكونون مجموعا متعاضدا فى العمل متسابقا فى الوصول يسير فى طلبه على منهج موحد بخطى متناسقة . و كان ذلك فى العهد الذى تحركت فيه الهمم العلمية بما شمل الجامع من العناية بالاصلاح و التنشيط للنبوغ العلمى بالمساعى الخالدة التى طلعت بها على معهد العلوم وزارة المصلح التونسى الاعظم خير الدين باشا . فأقبل صاحب الترجمة على الطلب اقبالا فائقا و انقطع له انقطاعا كليا حتى اتخذ لنفسه بيتا بالمدرسة الباشية بسوق القشاشين اقتصادا فى اوقات الذهاب و الاياب بين منزله والجامع وانقطاعا عن الشواغل والتكاليف . فكان يقضى يومه بين الجامع والمدرسة والمكتبة العبدلية ، وهى يومئذ حديثة عهد بالخزائن الصادقية التى عمرتها . ولم يكن يدخل بيت والده الا ليلا عند انتهاء اشغاله العلمية .

و كان أخذه عن اشهر أساطين التدريس بالجامع لذلك العهد أمثال شيخى الاسلام سالم بوحاجب واحمد ابن الخوجة ، و المشائخ المفتيين عمر ابن الشيخ و حسين ابن حسين و محمد النجار و محمود بيرم،و الاستاذة عمار

ابن سعيدان و محمد الشاذلى ابن القاضى • و كان اكثر ملازمته واشد تأثره باثنين من هؤلاء الشيـوخ همـــا الشيخ حسين بن حسين والشيخ الشاذلى ابن القاضى • فلم يفارق دروسهما و لا مجالسهما الخاصة ، و كثـرت مراجعته لهما و اعتناؤه بتحريرهما و اقتداؤه بطريقتهما فى النظر و البحث و التدريس • و قد اجازه الشيخ ابن حسين سنده عن والده عن سيدى ابراهيم الرياحى ، كما اجازه الشيخ محمد النجار بسنده عن الشيخ الشاذلى ابن صالح عن البيارمه عن الشيخ المكودى • و دخل لامتحان التطويع سنة 1297 فجلى و نـال الاعجـاب و التقديـر واستقرت منزلته العالية فى نفوس المشائخ النظـار الى أن حصل شغور فى التدريس من الطبقة الثانية ، و لـم تمض على نجاح المترجم فى امتحان التطويع اشهر عديدة فانتخبه النظار لخطة التدريس من الطبقة الثانية سنة 1298 • و كان رحمه الله يصرح لنا بأن الفضل فى ذلـك لقاضى الجماعة الشيخ محمد الطاهر النيفر الذى اتينا على ترجمته قريبا • فلم يدرس مترجمنا بالجامع بصفـة متطوع بل ابتدأ عمله فى التدريس من أول مرة بصفة التدريس الرسمية • و قد قال لنا ان منة المشائخ النظار فى تسميته مدرسا بعيد التطويع قد حسبت عليه ، فلم

ينتقل الى الطبقة الاولى الا بعد ثلاثة عشر عاما اى سنة ١٣١١ .

و كانت مباشرته للتدريس أربعة و خمسين عاماتناول فيها كتبا معتبرة فى فنون مختلفة وخرج فيها طبقات عديدة من أعلام التحقيق والتدريس . فكان من أهم الكتب التى اعتنى بتدريسها و خدمتها تفسير البيضاوى وشرح القسطلانى على البخارى وشرح الخفاجى على الشفاء ، و شرح المحلى على جمع الجوامع و التوضيح لصدر الشريعة وشرح الزيلعى على الكنز وشرح السعد على التلخيص و شرح الاشمونى على الخلاصة . و كانت طريقته التى يأخذ بها فى التدريس آية اعجاب لما تقوم عليه من تحقيق مسائل العلم و بيان غاياتها و ربط أواصرها ، مع الالمام السريع و البسط الواضح و المقدرة البيانية الفائقة فى القاء المسائل و أبحاث الكاتبين و الآراء الشخصية و الانتقادات و التتبعات و الابتكارات الخاصة التى لم يكن يخلو منها درس من دروسه . و كان فى كل درس ينتخب كاتبا من محققى الكاتبين على مادة التدريس يجعل اعتماده عليه و تعصبه له و عنايته بتدوين آرائه و الانتصار لها ، كاتخاذه المحقق الشربينى عمدة فى درس الاصول بالمحلى ، و العلامة عبد الحكيم

السيلكوتى فى درس البلاغة و درس التفسيـــر • و فى تقريراته المحكمة البينة البديعة لاستظهاراته الشخصية أو ابحاث المختارين عنده من الكاتبين كان يسلك طريق الحماس فى الانتصار . فكلما ورد عليه بحث من أحـد الطلبة هب لرده فى ثورة اسد يحمى عرينه • و لكن ذلك لا يمنعه من اظهار الاعجاب بالابحاث الرشيقة والرجوع الى الثناء على الافكار النيرة والسرور بمظاهر الذكـاء الذى يحبه و يهيم به ، حتى أنه كان يوجه الى المعروفـين بمحبة البحث من تلاميذه نظرات الاستطلاع و التطلـب لما عندهم • و يا ما أعز تلك النظرات عليهم وأمكنها من قلوبهم • و قد استمر على التدريس بعد ولايته مشيخـة الاسلام التى ارتقى بولايتهـا عـن مصـف المدرسيـن، فلم ينقطع عن التدريس نهائيا الا سنة اثنتين وخمسين وثلاثمائة والف بعد أن ختم سورة البقـرة بتفسيـــر البيضاوى •

و كانت همته العلمية لا تعرف الكلل و شغفه بالمطالعة والتدريس والمذاكرة لا ينتهى الى مداه • فمجالسه مجالس علم واسع وأدب غض و اختلاؤه فى منزله اختلاء مطالعة و تحرير • و لطالما أعجب عواده وهو على فراش مـرض من الكتب التى كانت حوله ، و التى كان أيسرهـا فى المطالعة من أدق الكتب ، و أعقدها موضوعا و تحريرا •

و الى جانب هذه المنزلة العلمية التدريسية كانت له منزلة ادبية سامية اكتسبها بذوقه اللطيف و طبعه السليم و مطالعاته الادبية المتفننة • فقد كان ممن يهزه الشعر ويطربه البيان • يصغي للشعر مهتزا ، وينشده متمايلا، و اكثر ميله الى الناحية الفنية ، فلذلك كان يتعصب للشعر الاندلسى و يعكف على مطالعة نفح الطيب ، و يذهب مذهب الاندلسيين فى تفضيل طريقة البحترى على طريقة أبى تمام ، و أبى الطيب • فكان يرى أن العمل الفنى الشعرى هو العمل الذى يعد ابتكار المعنى من اختيار الالفاظ و الذوق فى تركيبها و صبغ التركيب صبغة يحسن بها تلقى النفوس للمعانى التى يريد الشاعر أداءها • فذلك هو الفن الشعرى عنده و ذلك هو عمل الشعراء الذين تفاوتوا فى اجادته • و كان يرى أن للاذن حكما لا يرفض فى هذا الغرض • و له فى بيان هذا رسالة من الطراز الادبى العالى حررها جوابا لاحد اصدقائه برد مذهبه فى تفضيل المتنبى على البحترى • و يوضح أن مدار جودة الشعر فى نظره على الرقة و السلامة • وله فى مثل هذه المحاورات الادبية و المجاذبات النقدية مجالس عالية و محاضرات ممتعة يشهدها ببيته صفوة الادباء من تلاميذه • و قد بلغ من شغفه بالأدب و حرصه على بثه فى الاوساط العلمية أن

قام بتدريس مقامات الحريرى بجامع الزيتونة الاعظم في حدود سنة 1315 ، و على أصوله النقدية هذب نثره وشعره ، حتى أتى فى النثر بالمتين المعجب و فى الشعر بالرقيق المغرب . و وراء هذا وذاك من المنزلتين العلمية و الادبية فقد كانت للاستاذ ـ قدس الله روحه ـ مظاهر من التفوق فى ميادين مختلفة خارج الجامع جلبت السمعة الطيبة من كل حدب . فقد اشتغل بالتوثيق حتى عد من أشهر المؤلفين و أفقههم بالاجراءات على المذهب الحنفى. وزاد اشتهارا بذلك عند ولاية صديقه الشيخ اسماعيل الصفايحى خطة القضاء الحنفى واعتماده عليه فى تهيئة النوازل للقضاء .

وخدم الاوقاف خدمة جليلة فترقى من عدل بجمعية الاوقاف الى ناظر العدول بها الى خطة كاتب أول . و هو الذى كان يتولى ادارة الخدمة الداخلية للجمعية ونظر الموظفين ، و يتولى الوساطة بين المامورين وبين مجلس الاوقاف قبل تاسيس وظيف المدير . ثم سمى عضوا فى مجلس الجمعية على عهد الرئيس الشهير محمد البشير صفر . فكان القطب الذى يدور عليه ذلك المجلس و العضد الايمن لرئيسه الذى كان يجل الشيخ اجلالا فائقا ، و يقدر قيمته حق قدرها . و لهذه الشهرة

الفائقة كانت الحكومة كثيرة الاستعانة بآراء الشيخ ، وعلومه و خبرته • فقد دعى سنة 1316 للسفر الى باريس لتمثيل المعهد الزيتونى فى مؤتمر المستشرقين • و كان سفره لهذا الغرض برفقة صديقه المفتى الشيخ محمود ابن محمود والمستشرقين الفرنسيين برنار روا الكاتب العام للحكومة التونسية ، و لوزير ماشويل مدير العلوم للدولة التونسية• و فى هذه الرحلة قلدوسام العلوم من الدرجة الاولى • كما سمى عضوا فى مجلس اصلاح التعليم بالجامع الاعظم مرتين الاولى سنة 1328 و الثانية سنة 1342 ، و عضوا فى لجنة اصلاح نظام العدول التى انعقدت برئاسة المقيم الوزير لوسيان سان و صدر عنها الامر المؤرخ فى محرم سنة 48 المعمول به الآن فى نظام الاشهاد العام •

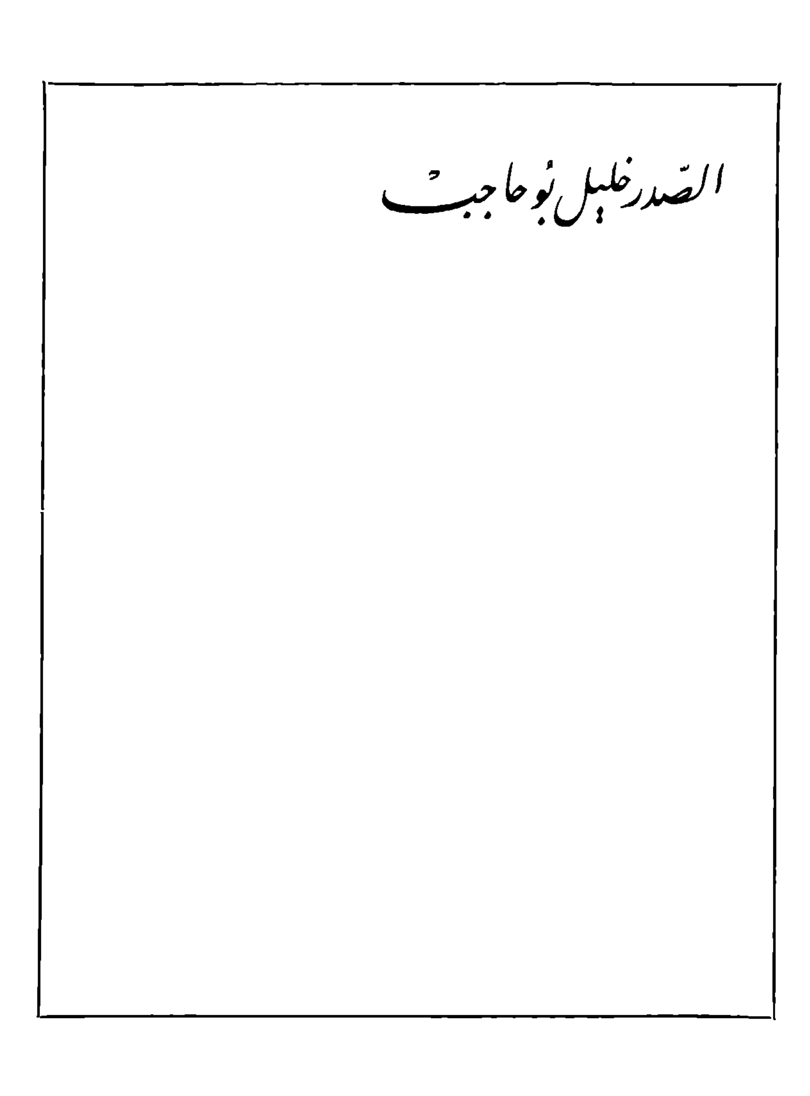
و كانت للشيخ فى حدود سنة 1317 رحلة شرقية زار فيها مصر والقسطنطينية العظمى و لقى مشاهير من علماء الاسلام منهم الشيخ محمد بخيت مفتى الديار المصرية الذى كان الشيخ يحبه و يعجب به •

آما عمله فى دار الشريعة فقد ولى خطة الفتيا سنة 1331 فاظهر ما هو متوقع منه من البراعة فى التطبيق والضلاعة فى جلب النصوص الفقهية و النظر الدقيق

فى طرق الاجراءات و سير النوازل . و كانت له مواقف شهيرة فى العمل لمخالفة طرائق ألفها القضاء لا يقرها التحقيق و لا التطبيق . و لما أسندت اليه مشيخة الاسلام الحنفية سنة 1351 قام بأعبائها سبع سنين فى نشاط لائق و حكمة فى ادارة المجلس الحنفى و دقة فى اجراء النوازل لا تبقى وراءها مجالا للنظر . واستمر قائما باعباء هذا العمل الهام الى أن اختاره الله لجواره صباح الخميس الخامس و العشرين من شوال سنة 1358 عن اربعة و سبعين عاما حافلة بالفضل ثرية بالانتاج . ورفع جثمانه الطاهر من منزله صباح الجمعة بمحضر المولى المقدس احمد باشا الثانى ، فصلى عليه بساحة القصبة ثم دفن بمقبرة الزلاج و أمطار دموع المستفيدين من عمله حول نعشه ، و ما منهم الا منشد قول الزمخشرى فى رثاء شيخه أبى مضر :

وقائلة ما هذه الدرر التى
تساقط من عينيك سمطين سمطين
فقلت لها الدر الذى كان قد حشا
أبو مضر أذنى تساقط من عينى *

(*) الثريا : السنة الثانية ، عدد 1 ، جانفى 1945 .


الصّدر خليل بُوحاجب



الصدر خليل بوحاجب

ان للحياة التونسية ، في النصف الاول من هذا القرن، اعلاما ، يعتبرون فى طرائق الحياة الاجتماعية ، ومنازع الذوق ، ومناهج التمدن ، قادة السلوك ، واساتذة التوجيه ، مما لا يقل عما كان لقادة الفكر ، واساتذة العلم ، من تاثير تأصل فى النصف الاول من هذا القرن ، فأظل النصف الثانى منه • واننا حين نعتبره اليوم ، بما فى حياتنا الحاضرة ، من مثل تولدت عن ازدواج مظاهر المدنية العصرية بتقاليد حضارتنا الاسلامية المتينة ، لنتوجه بانظار الاعتبار ، الى الذين دهمتهم الغمرة الاولى من تيار هذا الانقلاب ، فخاضوها مزودين ببقايا الاحساب وخوالد الآداب ، وخرجوا منها منتصبى القامات لم ترهقهم أعباء رسالة المجد التى احتملوها عن الماضى فأدوها الى مستقبلهم الذى هو حاضرنا فى قوالب آداب الانتهاج التى اخرجت الصورة الحاضرة لتقاليد حياتنا اجتماعية لا تقدح فى شرف الماضى ولا تغض من نور الامجاد الاصيلة الساطع عليه •

ولقد كان مترجمنا مثالا نادرا من مثل الشبيبة المتمدنة فى صدر هذا القرن الذين هيأهم شبابهم لأعلى منازل الرجولة وحاطهم فى مظاهر سلوكهم المستقيم ما رفع منزلتهم عند الشيوخ الذين تفصلهم عنهم فوارق السن والبيئة والمؤثرات حتى كان الاعجاب بطهر منابتهم واستقامة مسالكهم خير ما زكى مآخذهم من التمدن الحديث فى نظر الجيل السابق،فقربت الحضارة الحديثة من تقديرهم وارتبط الجيلان برباط الثقة والاطمئنان.

ثم كان فى حياته العامة كما خدم من المشاريع القومية ونصح للحياة الاجتماعية ، وعف فى الحياة القضائية وبرع فى النظم الادارية ، وزان من المناصب الملكية تحقيقا لحسن الظن به ، وحجة لمقدرة التونسى على اظهار استعداداته متشكلة بمقتضيات الاطوار وبرهانا على انه الحقيق بشرف بنوته لذلك الوالد العظيم شيخ الاسلام سالم بو حاجب وناهيك بها .

ولد سنة 1280 بدار ابيه بسفح جبل المنار ، وهو ثانى اولاده الذكور ، فنشأ فى حجر عنايته وتربيته . وقدكان مثالا فذا فى رقى المدارك وحرية الفكر وسمو المرامى فى توجيه أبنائه وانشائهم على تصريف المواهب وتربية الغرائز وتوسيع الملكات.وتلقى مترجمنا فى طور تعلمه

الاول تعليما قرآنيا بالكتاب وعند انشاء المدرسةالصادقية ـ وكان والده احد منشئيها والمشرفين على مبدأ ظهورهاـ كان المترجم فى طليعة من دخلها فى اول يوم فتحت فيه ابوابها من المحرم سنة 1292، واتصل فى تلك المدرسة بالمحيط الواسع ، وتعرف الى عصر النهضة فى اشد الاوساط اهتزازا به ، واغترف من تيار العزم الاصلاحى فى اصفى منحنى رقرقت فيه روح الوزير خير الدين، وكان والده بما يمتاز به من نضج الفكر وسمو النظر المتوغل فى حياة النهضة الاروبية خير مرجع له فى صقل تلك التأثرات واقرارها وحسن توجيهه بها • واتصل بالجامعة الزيتونية العظمى فتردد على دروسها ، وتأكدت صلاته بأبناء عصره من نخبة النجباء طلبة والده ، فكان مشتركا فى اعمالهم ومناهجهم وبحوثهم ومحاوراتهم بما زاده اقترابا من روح الثقافة الاسلامية وانطباعا على مناهجها •

وفى سنة 1297 كان قد انهى تعلمه بالصادقية الى غاية مراحل اقسامها ، فسافر مع اخيه الاكبر الاستاذ عمر لاكتمال دراستهما الثنوية بفرنسا ، ولم يكونا ضمن البعثة التى سافرت على نفقة الدولة ولكن سفرهما كان بعناية والدهما الخصوصية • وكان فى اقامته بفرنسا كثير التردد على ايطاليا لمقام الصديق الحميم لوالده بها

وهو الوزير حسين الذى كان من صداقته مع الشيخ سالم بو حاجب ما عقد بينه وبين ابناء الشيخ صلات اشبهت علاقة التبنى ، كما كان امتزاجه شديدا فى حياته الاروبية باخوة نشاته ابناء امير الامراء محمد البكوش الذى كان ايضا من خاصة اصدقاء والده ولاسيما كبيرهم الرئيس محمد الصالح والاستاذ محمد الشاذلى . فكان هؤلاء الاربعة اول المسافرين لاستكمال التعليم العالى فى اروبة على نفقة اوليائهم .

وفى سنة 1299 عاد مترجمنا الى تونس بعد ان عاداليها ابناء البعثة الرسمية من خريجى الصادقية فانخرط فى سلك الهيأة التعليمية عند تاسيس ادارة العلوم والمعارف سنة 1301 ، ولم يطل مقامه فى الهيأة التعليمية حتى انفصل عنها سنة 1306 ، فانخرط فى السلك الادارى بقسم الترجمة الذى كان لذلك العهد خط الوصل بين الوزارة الكبرى والكتابة العامة ، وكان مؤلفا من موظفين هم لامعو طلبة المدرسة الصادقية فى عهدها الاول واكثرهم من افراد الارسالية العلمية الراجعة من فرنسا . فكان متين الصلات بزعيم نهضة الشباب يومئذ محمد البشير صفر ومن ابرز العاملين حوله فى المصالح الكبرى واعظمها تاسيس الخلدونية .

وفى حياته الادارية توثقت صلاته الشخصية بوزير القلم امير الامراء محمد الجلولى فكان بمنزله الملحق الخاص بديوانه متصلا بعمله الادارى وشؤونه الخصوصية مرافقا له فى رحلاته واهمها رحلة باريز سنة 1308 لافتتاح القسم الشرقى بمعرضها العام المقام فى تلك السنة سنة 1889 ميلادية • وفى تلك السنة انتقل الى مجلس الاحكام الجنائية بصفة مترجم خاص للقسم ، فأصبح مدار الناحية الادارية من حياة المحكمة الجنائية ، واستمر كذلك الى سنة 1314 فبرز منصبه ذلك بتسميته رئيسا لكتبة المجلس الجنائى ، ونال اختصاصات رئاسة كتابة المحكمة على الوجه الاكمل ، فكان بذلك مؤسسا لقواعد الهيكل الادارى للعدلية التونسية •

وفى تلك السنة ايضا اتفقت له اغرب مصادفات حياته ، وابعدها اثرا فى تكوين الصبغة التى امتاز بها، وذلك ان اميرة من خلاصة الاسرة المالكة فى مصر ، هى الاميرة نازلى ابنة الصدر الاعظم مصطفى فاضل باشا ولى عهد المملكة المصرية سابقا وابن واليها العظيم ابراهيم باشا ، كانت قد عاشت فى مصر،ونبهت لثقافتها وذكائها ، فالتأم حولها اعظم ناد كان بعيد الاثر فى هئية النهضة المصرية يعمره الشيخ محمد عبده ، ومحمد

المويلحى ، وسعد زغلول ، وقاسم امين • ثم انتقلت الى الآستانة ، قبيل الاحتلال الانكليزى لمصر ، عندانتقال والدها على اثر الخلاف بينه و بين اخيه ، الخديواسماعيل فاتصلت بالخليفة المقدس السلطان عبد الحميد الثانى ، وبحركة الاحرار الوطنيين ، وقامت بينهما بادوارهامة• وكانت كثيرة التردد على باريز وايطاليا ،فتعرفت بالوزير حسين ، والشيخ محمد بيرم• ولاحظت ما فى هؤلاءالشبان التونسيين الذين رأتهم فى اروبة من السلوك المعتدل البعيد عن تنطع غيرهم من الشباب المستهتر فى مجارى الحضارة الغربية،فكان ذلك محرضا لها على زيارة تونس• فقصدتها بوصاية آل بيرم واستقرت اول امرها بقصر البكوش باريانة • وهنالك اتصلت المترجم واخيهووالده بما كان يربطهم من العلائق المتينة مع ارباب ذلك البيت• وبما لاحظت من مزايا المترجم الخلقية وكمالاته المعنوية رغبت فى التزوج به وكانت تتقدمه فى السن كثيرا ، فتزوجها سنة 1315 وسافر للبناء بها فى القاهرةعلىتقاليد البيت المالك المصرى ، فحظى بمنزلة فائقة عند الخديو عباس وقلده الكمندور من النيشان العثمانى على الطريقة المتبعة يومئذ من تصرف خديو مصر فى تقليد الرتب العثمانية بتفويض سلطانى • ورجع الى تونس تحيط بحياته هالة جديدة من البذخ الاميرى ، فسكن ببستانه

الانيق فى الشمال الغربى من ضاحية المرسى واصبح منتدى الاخيار من اهل العلم والنبل والادب والعفة ، وملتقى الاجيال من طبقة والده الذى كان يومئذ فى عشرة الثمانين الى الطبقة التى دون سن رب المنزل من طلائع الشبيبة النيرة . فكانت المجالس الفائقة والمآدب الرائقة شنشنة ذلك البيت ومجتمع الآراء والنكت والمعارف والمحاورات بما جدده فى تاريخ النهضة التونسية عهد نادى الاميرة نازلى فى تاريخ النهضة المصرية . وفى هذا الطور تأكدت صلاته الودادية مع الامير المقدس المولى محمد الناصر قبل ولايته العرش .

وبذلك كان بيته مقصد الوافدين على البلاد التونسية من اعلام الشرق ونقطة التقائهم بالمستفيدين من تلك الصلات من رجال التفكير التونسى . فكان الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رحمه الله عند زيارته الثانية لتونس سنة 1323 نازلا ذلك البيت ونورا لمنتداه .

وتوالت رحلات المترجم الى اروبة والى الشرق مستصحبا معه فى كل وجهة رجالا من اهل وده وانسه الذين هم اساطين النهضة الفكرية ، وكان هو الذى تسبب فى زيارة الرئيس الجليل محمد البشير صفر للبلاد المصرية وما تاكد له فيها من الصلات فى الاوساط الثقافية والسياسية .

وسمي سنة 1320 رئيسا لقسم البحث بالعدلية التونسية.
وتقلد في العام الموالي الصنف الاول من نيشان الافتخار.
وفي سنة 1331 توفيت زوجته الاميرة نازلي بمصر في احدى زياراتها لها منفردة عنه ، فسافر الى مصر ثم رجع الى تونس ، فاسندت اليه وكالة الحق العام بمحكمة تونس الابتدائية. فكان التونسي الواضع لمنهج مباشرة الادعاء العمومي لدى محاكم العدلية التونسية .

وقام بأعباء مشيخة المدينة في ظروف حرجة اثناء التونسية مع بقائه مكلفا بنيابة الحق العام، وتقلد الشريط الاكبر من نيشان الافتخار . وفي سنة 1335 تمحض لمشيخة المدينة وسمي امير امراء .

وقام باعباء مشيخة المدينة في ظروف حرجة اثناء الحرب العظمى فحمى الامن وقاوم الاحتكار وحفظ شرف المدينة وتقلد بتلك الصفة شريط عهد الامان .

وفي رمضان سنة 1341 انتخب لوزارة القلم اثر الحوادث التي افسدت ما بين الملك الناصر ـ طاب ثراه ـ وبين وزرائه . وكان في اثناء تلك الحوادث مرشحا للوزارة الكبرى ، ولكنه قصر عنه وزارة القلم ، باستقالة الصدر محمد الطيب الجلولي ، وولاية الصدر

مصطفى دنقزلى ، و بقى جامعا لوزارة القلم ومشيخة المدينة •

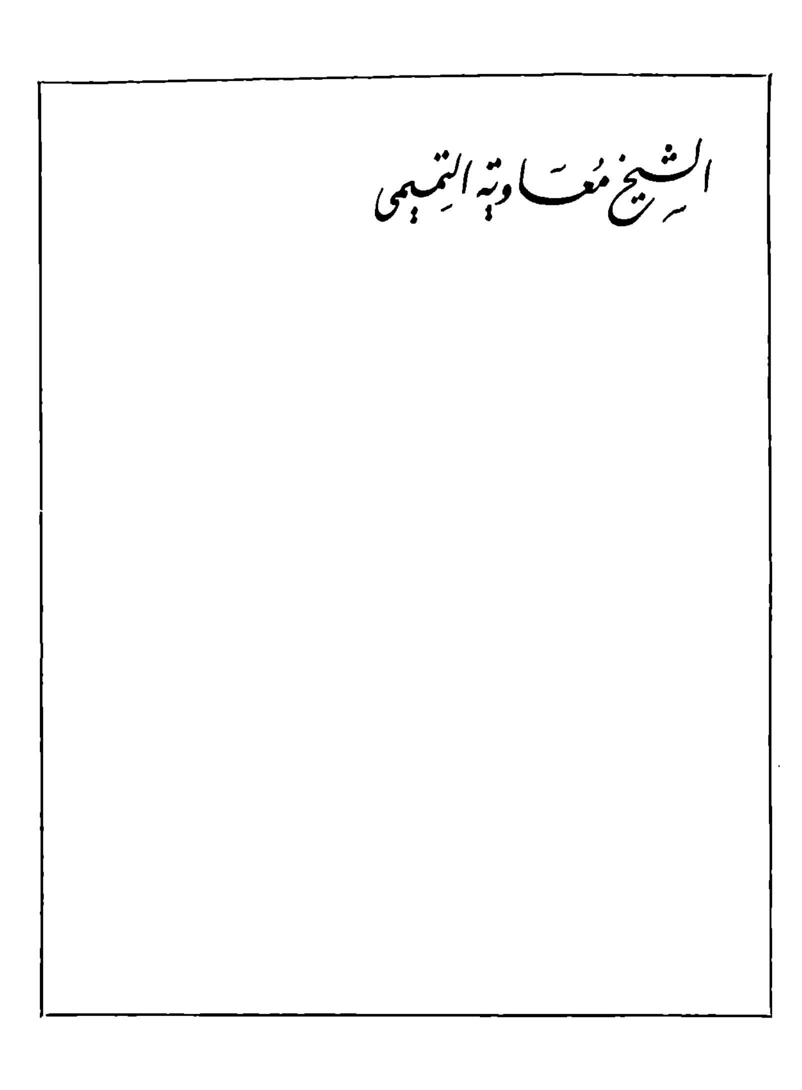
وقد اشترك فى تأسيس جمعية احباس الحرمين الشريفين ، فتوثقت صلاته بسبب ذلك باساطين العلم فى المغرب ، كما توثقت قبل باساطين العلم فى المشرق • وعرفت وفود المغرب العربى رفعة بيته ، وشرف منزلته، وكرم ضيافته • وسافر مرات على راس الوفود السامية الى الجزائر والمغرب الاقصى وباريز ، ورافق الملك المقدس المولى محمد الحبيب فى سفرته الثانية الى فرنسا سنة 1345 •

وانتقل الى مسند الوزارة الكبرى فى ربيع الثانى سنة 1345 • فكان فيها مثالا بارزا لحسن تمثيل الذاتية التونسية وتقلد بتلك الصفة نيشان الدم الحسينى الرفيع الشان •

واقام مع المولى المقدس محمد الحبيب على الوزارة الكبرى الى آخر ايام ملكه ، ثم كان وزير المولى المقدس احمد الثانى • فتقلبت علائقه معه بين ضياء وظلمة وقامت ضده واجهة من رجال القصر الملكى قوى منالها منه بالجو المكفهر الذى تكون حوله بمواقف المضادة بينه وبين

وزير العدلية طاهر باشا خير الدين، ثم بالارتباكات التى نشأت له عند رئاسة لجنة الاصلاح الزيتونى سنة 1349 ، واستهدافه لحملة صحفية كبرى كانت نهايتها استحكام العداء بينه وبين مخدومه الملك احمد الثانى. فاضطر الى الاستقالة فى شوال 1350 واقام معتزلا الحياة العامة فى حالة صحية متراجعة الى ان توفى فى شوال سنـــة 1358 . تلقاه الله باحسانه وتغمده برحمته وغفرانه * .

(*) المجلة الزيتونية : المجلد 9 ، الجزء 6 ، 1955 .


الشيخ مُعاوية التِميمى



الشيــخ معاويــة التميمى

ان فى مظاهر العظمة و معانى السيادة التى تملأ هذا المجمع الرهيب لخير ما يخفف آلام الحزن و يدفع لواعج الحسرة التى تملأ نفوسنا فى ساعة تجدد فيها ذكرى هذا العظيم العزيز الذى رزئنا به واقمنا هذا المجمع للاشادة بذكــره ٠

و اذا كان ظلام الاحزان والذكريات الاليمة قد خيم بهذه القاعة حتى ضاقت بها الصدور فان فوق هذا الظلام محيطا نورانيا يغمره وانا محاول ان استنزل من ذلــك المحيط بروقا تلمع فى أطراف هــذه الظلمــة فتشــرح الصدور للسلوى و حسن العزاء ٠

أو ليس فى نهوض الاخوان الزيتونيين للاشادة بذكرى فقيدنا العزيز بعد أن انقضى على يوم رزئنا بــه حــولا كاملا دليل على ان الوسط الزيتونى قد احس من حيــاة الاستاذ وسيرته بمعنى خالد ، أقام حيا فى النفوس، أوجب تجديد الذكرى بعد عام ٠ ذكرى لا يمجد فيها الجســد

الفانى من فقيدنا الراحل ، و لكن يمجد المعنى الحـى الخالد و المثل العالى الشريف الذى بدأ فى الحياةالروحية لاستاذنا العظيم • فما هو بمجمع تا بين ورثاء وندبة ، ولكنه مجمع تكريـم و اشادة يتوجـه فيـه القائلـون و المستمعون نحو مجد باق و عظمة حية كان ينوء بثقلها شخص واحد فتلقفتها عنه آلاف السواعد رفعت مكانها فى جو الوجود الخالد •

لو لم يكن الزيتونيون يقدرون ناحية العظمة الخلقية النفسية من الشيخ معاوية لما أقاموا لتمجيد ذكراه مـثل هذا المجمع الكبير ، و لكنهم حين اقاموه قد اقاموا برهانا عمليا على أن معانى الكمال النفسى و السمو الخلـقى تتنزل من نفوسهم بالمنزلة الممتازة ، وأنهم يدركون مـن شيخهم معنى يحبونه و يتفانون فيه • و جدير بجماعـة تفانت فى معنى من المعانى أن يضل خالدا عندها وقفـا عليها • و ذلك ما يحدو بنفوسنا نحو التعزى و الصبر الجميل حين ندرك ان المعنى الذى بكيناه فى الاستـاذ الفقيد لم يذهب معه ، و لكنه بقى حيا خالدا فى أبنائنا الزيتونيين يبشرنا بان ذلك المعهد العظيم لـم يفقـد الاستاذ معاوية حين حفظ ميزاته الذاتية بمنزلة الاجلال والتقدير ، وأقامها على سبيل الاسوة و الاهتداء حـتى

يخرج لنا المعهد الزيتوني من أفلاذ كبده الف معاوية .
و ما كان العنصر الاصلي الذي زكت به تلك الحياة
السامية الا عنصر الذوق الدقيق و الشعور المرهف الذي
امتلك مشاعر الاستاذ ، فوجه بها نحو ناحية الفضل
والرفعة و الجمال الروحاني في أطوار حياته كافة .
و ان من يعرف الاستاذ ليوقن أنه في كل مظهر من مظاهر
حياته قد كان يبدو شيئا ممتازا فيه من القابليات الممتازة
مما يدفع به نحو الجهات الخفية من حياة الانسان ،
جهات الحسن الملاكي و الجمال الفلسفي ، حتى يعود منها
بما يقوي فيه الجاذبية و يسوق نحوه كل شعور انساني
متجردا عن حجب التكاليف ، منخلعا عن قيود الاوضاع
الاصطلاحية . فقد بدأ الطلب بالكلية الزيتونية على
مناهج لم تكن تفتح للادب بين أجهزة التعليم منفذا واسعا
ولكنه سرعان ما لاحظ بشعوره الحساس جاذبية الادب ،
واستجلى جماله من وراء السجوف القائمة دونه من كتب
العلوم الآلية . فهام بذلك الجمال المحجب واقتاده العزم
الصادق في حبه الى ان يتجاوز حدود تلك العلوم ،
و يخترق حواجزها ، فيتوغل في مملكة الأدب السعيدة
التي كان رفاقه عنها ذاهلين ، حتى اصبح بين أقرانه
المشار اليه في التعلق بالآداب والاذواق ، وأصبح بعد
حين اديب المعهد الزيتوني غير منازع .

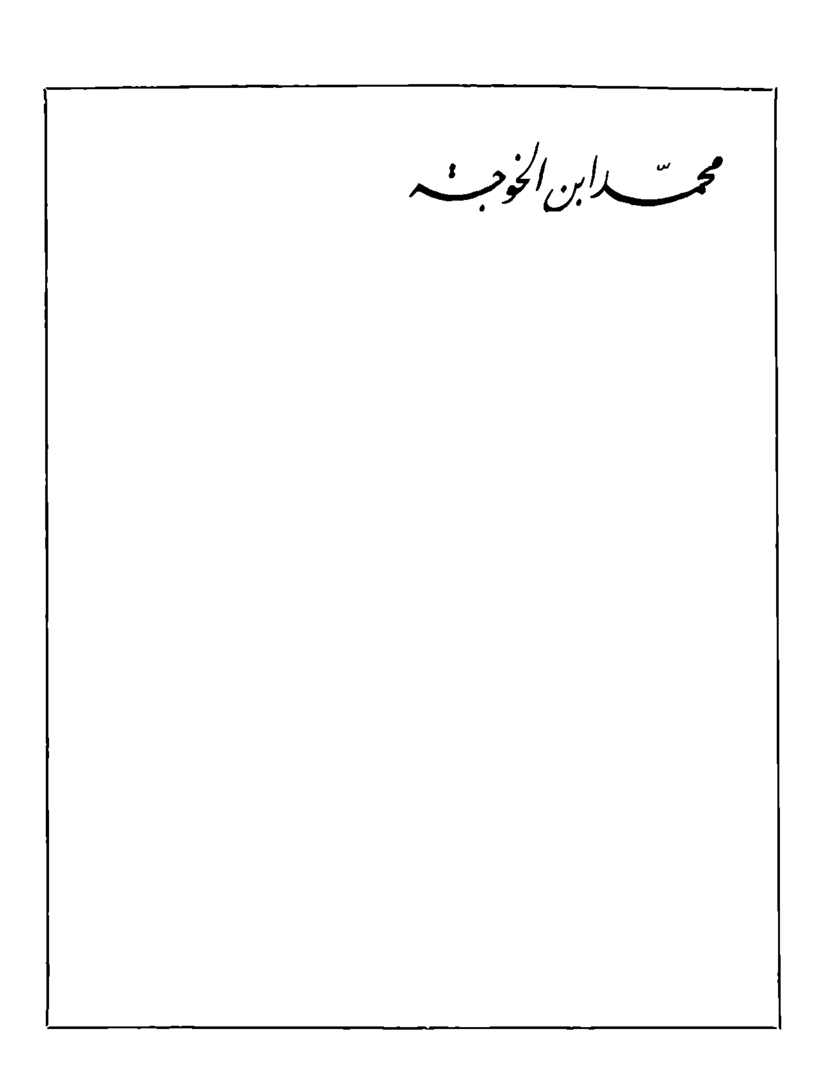
و كما جذبته أثمار الأدب اللائحة من ثنايا العلوم اللغوية ، فقد كان له في العلوم الشرعية أيضا لمحات من الانوار مر بها غيره ممن لم يرزق حسه المرهف ، فلم تأخذ بنفسه ولم يعرها التفاتا حتى ماست نفسه اليقظة الشاعرة فهزتها بكبريائها وجردتها نحو عالمها السامى • تلك هى انوار النظر العميق فى أسرار الشريعة و التدبر فى مقاصدها و معانيها تدبرا يسمو بتطبيق الشرع عن المقامات التى وقف به عندها جمهور ضعاف النظر من المتعلقين بالنسبة الفقهية ، فأصبح شغف الاستاذ بالمدارك الفقهية و الانظار الاجتهادية و التعليمات الشرعية يدفع به نحو مادة من المطالعة واسلوب من البحث كان فيهما نسيج وحده • و بمجموع هذين التعلقين أصبحت للاستاذ وجهة خاصة فى التعلق بالشيوخ الذين عرفت مناهلهم بالقصد الى هاتين الرايتين • و كان له معهم من العلائق المتينة ما زادته رسوخا معرفتهم بكمالاته وانجذابهم الى معنى السمو الخلقى الذى امتازت به نفسه الكريمة ، و الذى كان يدفع به الى ان يتعلق باستاذيه تعلقا أمتن و أسمى من التعلق المعتاد ، اذ لم يكن يطلب عندهم مدارك عقلية فحسب ، بل فى حلقتهم شيئا وراء هذا العالم المادى هو المعانى النفسية التى كانت روحه مندفعة نحوها اندفاعا عشقيا ، و بذلك كان

الاستاذ عين كل درس وواسطة كل حلقة ، و هو في عهد الطلب بما كان له من المنزلة السامية في نفوس أساتذته وان لم يفق اقرانه في الدرس جدا و تحصيلا •

و بهذه الجاذبية نفسها او أشد منها كانت تتكيف علائقه مع أقرانه في الدروس ، فتراه متجها نحو كل واحد منهم الى الناحية المعنوية ، و تراهم جميعا منقادين الى التعلق به بداع يجدونه من أنفسهم و لا يعرفون ما هو • و بهذا التبادل العجيب في التوجهات الروحية نشأ من علائق الاستاذ بقرنائه ما كان له أعظم الأثر في انشاء معنى الاخوة الزيتونية و اعطاء جامع الزيتونة حق سيادته الثقافية المطلقة على شمال افريقيا • فقد كان من قرنائه عالم الجزائر و زعيم حركة الاصلاح الديني بها من بعد الاستاذ عبد الحميد ابن باديس • و كان في حضور هذا الطالب بالجامع دروس الاسلام و العربية من مملكة ظن العالم بأسره انها قد انسلخت عن جامعة الاسلام و التحقت بالاندلس البائدة معنى ناطق لخلود الجزائر المسلمة لم تتوجه نحو ادراكه نفس كما توجهت نفس أستاذنا العظيم • فأقبل على ابن باديس يحبه ومنحه وده و أصفاه إخاءه ، و انطلق معه يضع اساس البعثات العلمية الجزائرية لجامع الزيتونة ، فكان طلبة الجزائر

يدخلون تونس من اول يوم باحثين عن الاستاذ معاوية ، فيجدون فيه المتفانى فى خدمة مصالحهم و تسيير طرق طلبهم و توفير وسائل الايناس و المجاملة لهم حتى أصبح حـظ الجزائـر مساويـا فى النسبة الزيتونيـــة لحظ تونس ، و فضل الاستاذ معاوية عليها قسيما لفضل صديقه ابن باديس • تلك هى مظاهر الشعور الذى امتاز به الاستاذ الفقيد ، و تلك بعض آثارها الجليلة ، علاوة عن مظاهرها الفردية فى ما ملك نفوس عارفيه من عموم الطبقات من أدبه العالى و نكته البديعة و فكاهاته المعجبة التى عدلها بالعفة والحكمة و الحرمة حتى سمـا بنفوس محبيه الى التطاول نحو التعلق بذاتـه الكريمـة تعلقـا لا كلفة فيه ، فمنحهم حسن التعلق السمح اللطيف و لـم ينزل لهم عن مقام حرمته قيد شبر* •

(*) خلاصة المحاضرة الارتجالية التى القاها الفقيد الشيـخ محمـد الفاضل ابن عاشور بمناسبة ذكرى الشيخ معاوية التميمى •
المجلة الزيتونية : المجلد 5 ، الجزء 11 ـ 12 ، ماى 1945 •


محمّد ابن الخوجة



محمد ابن الخوجة

رزئت البلاد التونسية رزءا لم تبق طبقة من الطبقات العليا الا أحست أثره، و كانت المجلة الزيتونية اكثر الهيئات حساسية بفداحة هذا الرزء لانه أصاب ركنا متينا من الاركان الفكرية التى قامت عليها من يوم بروزها ، ولانه نزل فى وقت كانت المجلة فيه لا تجد سبيلا لاظهار ما لقيت من ألم المصاب ، فكان لها مع الفقيد ما كان لأبى عطاء السندى مع صديقه ابن هبيرة ، وهما من انصار قضية واحدة اذ يقول فى رثائه معتذرا عن عدم بكائه :

ألا إن عينا لم تجد يوم واسط
عليك بجارى دمعها لجمود

ذلك هو المصاب بفقد رجل الفضل و السياسة ومظهر الادب والكياسة الكاتب الكبير و المؤرخ الشهير مستشار الدولة أمير الامراء سيدى محمد ابن الخوجة تغمده الله برحمته • فكان حقا علينا للوفاء بما تقتضيه منزلة هذا

الرجل العالية و ما له فى عنق المجلة و قرائها من المنن أن نخصص هذا الباب من ابواب المجلة باب التاريـــخ التونسى فى اول عدد يبدو من المجلة بعد احتجابهـــا للوفاء بعهده واحياء ذكراه فى مكان من المجلة كان طيلة حياتها ملتقى القراء بفوائده المهمة و بيانه العذب •

فى حى من اشهر احياء مدينـــة تونس خيـــم فيـــه الاحتشام وسكنته البذاخة و تجاورت فيه عائلات الشرف والمجادة و بيوت الوجاهة والسيادة هو حى حوانيـــــت عاشور ، و فى ركن بيت عتيق من ذلك الحى توالدت فيه ثلاثة اجيال من آل ابن الخوجة الذين تغنى سمعتهـــم فى العلم والفضل عن التعريف بهم ، فى جوارذلك الجامع الشامخ القباب الرحيب الرحاب جامع محمد باى المرادى الذى تسلسلت امامته فى آل هذا البيت المجاور له منـــذ عهد بعيد ، بيت تعمـــر داخلـــه التربيـــة والفضيلـــة والذكريات الطيبة و الاعتزاز بالسمعة الحسنة ويحوط خارجه الحرمة والاجلال والتكريم التى يدين بها اهـــل البلاد قاطبة لمن لم يزل ينسب اليه ذلك البيت لقرب عهد مفارقته له ، وهو العلامة الشهير شيخ الاسلام محمـــد ابن الخوجة المتوفى سنة 1270 • فى هذا البيت ولـــــد لأصغر ابناء شيخ الاسلام الشيخ محمد البشير ابن الخوجة

ولد هو رابع ابنائه اسمه محمد سنة 1286 ، فى العهد الذى تولى فيه من ظلمات الفتن والاضطرابات ما بشر بقرب انبلاج الفجر ، فجر الاصلاح و التجديد ·

فلم يفتح عين ادراكه الا و قد تمخضت الحوادث عن ظهور منقذ الوطن الوزير خير الدين ببرنامجه الاصلاحى العظيم الذى لم يغادر ناحية من نواحى المجتمع التونسى الا عالجها ·

فاهتزت الحضرة التونسية منتعشة بهذا النفس الحار الذى هب عليها وكان حى حوانيت عاشور الذى يسكنه الوزير وأغلب الرجال الذين عليهم مدار حركته احس نقطة من مدينة تونس بهذه الحرارة واكثرها انفعالا بها ·

وكان الوسط العائلى الذى نشأ فيه المترجم يتصل بجميع النواحى الهامة فى الحياة التونسية الحاضرة والغابرة · فالعلوم قد حطت فيه رحالها ، والرئاسة الشرعية قد ألقت اليه زمامها اذ كان زعيم البيت الخوجى هو اظهر رجال الشريعة فى بعد الصيت ورسوخ القدم فى المنهج الاصلاحى العظيم الذى تهيأت البلاد لانتهاجه ، وهو كبير اخوته العلامة شيخ الاسلام احمد ابن الخوجة كاهية شيخ الاسلام اذ ذاك ·

وكانت الرئاسة الادارية قد ضمت بين جدران ذلك البيت الى الرئاسة الدينية بمنزلة الشيخ محمد البشير ابن الخوجة والد المترجم الذى لم يكد يبتدىء المسلك المعهود فى آل بيته بولايته مدرسا من الطبقة الثانية حتى انتقل الى السلك الادارى فدخل ديوان الانشاء فى صدر الدولة الصادقية وزانه ، وأسرع به جواد التقدم فى ميدانه حتى بلغ رئاسة القسم الاول الذى هو القلب المحرك لسياسة المملكة الداخلية · و كان من الذوات التى شاركت فى ذلك العصر فى الاعمال التاسيسية المهمة الشاملة لهيكل الحكومة التونسية ، فشهد المشاهد العظيمة وحضر المجالس العالية التى لم تزل آثارها خالدة فى تاريخ البلاد ·

وكان هذا السيد يجنح فى حياته الخاصة الى طريق البذخ و الترف مخالفا لتقاليد بيته وسائر العائلات العلمية والبلدية ، موليا وجهه شطر حياة أهل المخزن الذين قربه منهم وظيفه واتصاله بالبيت الحسينى بواسطة اخته التى كانت زوجة الامير محمد الامين ابن مصطفى باشا التى كان له من الاختصاص بها ما يقرب من التبنى، مع ما له من سابق الخؤولة فى بيت الوزير محمود خوجة كاهية حلق الوادى الذى كان من أوجه بيوت السيادة

المخزنية و أعرقها فى التمدن والبذاخة • والى جانب ذلك كله فقد اشتهر الشيخ محمد البشير ابن الخوجة بين كتاب عصره بما له من الضلاعة فى التاريخ التونسى والميل الى البحث عن دقائق تاريخ الدولة الحسينية و الحرص على تقييد كل حادث هام يمر على مطالعته أو سماعه أو مشاهدته ، فكان فى ذلك ثالث اثنين من الكتاب المؤرخين فى ذلك العصر هما الشيخ محمد الباجى المسعودى و الشيخ أحمد ابن أبى الضياف ، على تأخره عنهما موتا مما يجعل لتقييداته وتحريراته التاريخية قيمة مفردة يكمل بها ما تركه الشيخان قبله من الاثر العظيم فى تسجيل التاريخ التونسى القريب •

و مجموع هذا يوضح أن البيئة التى نشأ فيها مترجمنا كانت أصلح تربة لنمو بذرة الثقافة العربية و المقدرة الادارية و محبة البحث العلمى والولوع بالتاريخ التونسى والاقتداء بسيرة أعيان الماضين والتعلق بمناهج المصلحين والتخلق بروح الترفع وذوق الحياة العالية و المحافظة على التقاليد ، تلك المعانى التى كانت تتمثل لكل من عرف من بعيد أو من قريب فقيدنا العزيز محمد ابن الخوجة •

فقد بدأت استعداداته تظهر منذ سنة 1293 لما بلغ

السابعة من عمره و بعد ان زاول تعليم القرآن فانخرط في سلك تلامذة المدرسة الصادقية في الرعيل الثاني من طلابها الذين قرت بهم عين مؤسسها العظيم · و سرعان ما ظهر منه النبوغ والجد في الطلب ووفرة التحصيل وتميز من بين اقرانه بالميل الى العربية و التطلع الى منازل الرجال الذين تبعد به عنهم سنه و تقرب به منهم مداركه ، و لم يزل طالبا في المدرسة الصادقية بأقسامها الانتهائية لما انتصبت الحماية الفرنسية ، فكان في من نقل من المدرسة الصادقية الى المدرسة العلوية التيأنشئت عام 1300 لانشاء معلمين يقومون بتعليم مبادىء اللغة الفرنسية في المدارس التي ستحدث لابناء المسلمين على البرنامج الذي وضعه مؤسس التعليم الفرنسي العربي المزدوج الاستاذ المستشرق لويز ماشويل أول مدير للمعارف في عصر الحماية · و لكن الشغف بالادارة لم يزل يتحرك في نفس الشاب محمد ابن الخوجة و قد رآى الحركة التي أدخلت كبار رفاقه من أبناء مدرسة الصادقية في منطقة الادارة على شبابهم وأدرك ما علق على ثقافتهم الحديثة من الامل في هذا الطور الحديث الذي تقطعه البلاد ·

و قد ابتدأ حياته الادارية سنة 1304 بصفة مترجم

بالكتابة العامة ، و كلف من ابتداء أمره بخدمة المحاسبات الادارية تحت رئاسة زعيم الشباب الصادقى و صديق صاحب الترجمة الاستاذ المنعم البشير صفر ، فكانا نواة قسم المحاسبات الذى اصبح قسما عظيما بعد أن بقى مدة لا يتركب الا منهما مندمجا فى قسم الترجمة • و كان الاعتناء يحوطه من طرف رئيسه المباشر الذى هو صديقه من قديم و من طرف رئيسيه الاعليين الوزير الاكبر العلامة الشيخ محمد العزيز بوعتور لمكان صلته بالبيت الخوجى وصداقته للشيخ محمد البشير ابن الخوجة والكاتب العام للحكومة التونسية الوزير رينولمكان صلته الادارية بوالده ايضا ، ولمنزلة عمه شيخ الاسلام فى نظر حكومة الحماية • و كانت سيرته الادارية مثلى واستعداداته الذاتية الفائقة تؤكد له استحقاق هذه العناية و تزيد فى لفت الانظار نحوه • فكان الوزير العزيز قدس الله روحه يبسط له من مجلسه و حديثه ما لا يبسط لغيره من أقرانه ، وذلك ما كان له أهم الآثار فى حياته الفكرية والادارية والعلمية ، فكان كثيراللهج بمحاسن هذا الوزير ، و التمثل بأعماله و كلامه ، شديد التمسك بأفكاره ، عظيم الاكبار لمعارفه و سياسته،و كانت نسبته العائلية تسمح له من الاتصال بعظماء الدولة بما لم يتأت لمن هم أكبر منه سنا وأعلى منزلة فقد عرف

السفير الشهير بولس كمبون و تحدث معــه مرات فى الزيارات التى كانت متبادلة بينه و بين عمه شيخ الاسلام والتى كان هو فيها واسطة الترجمة و بذلك عرف فى صغره من غوامض احوال السياسة التونسية ما لم يعرفه الا القليلــون ٠

و قد بدأ نجم تفوقه الادارى منذ سنة 1309 لما نقــل رئيسه البشير صفر الى جمعية الاوقاف فخلفه هــو فى رئاسة قسم الحساب وصادف أن أصبح على رأس الكتابة العامة رجل من شانه أن يقدر مواهب هذا المتوظف أكثر من غيره وهو المستشرق المؤرخ البحاثة الوزير برنار روا الذى قربته من المترجم ثقافته التاريخية واشتراكه معه فى الخدمات و المباحث التى سنتعرض لها من بعد حــتى أصبح له صديقا حميما و نال عنده من التقريب و الحظوة ما جعل منه طيلة خمسة عشر عاما عمدة الادارةالتونسية والطريق الوحيد بين المصالح الاهلية والكتابة العامة ٠ وعلاوة على ما كان يشغله بالاصالة من أعمــال قســـم الحساب الذى جعل منه مدرسة مقصودة لمبتدىءالمتوظفين للتخرج فى أعمال الحساب الادارى وفى اثناء هذاالطور أسندت الى عهدته نظارة المطبعة الرسميـــة ، فكانــت له ميدانا فسيحا للانتاج الادبى الذى سنتفرغ للحديث عنه

فيما يأتى ، علاوة على ما اسدى للدولة من الخدمات بالنشرات الرسمية التى كانت بعيدة الاثر فى الحياة السياسية فى ذلك العصر .

وبمجموع هذه الصفات أصبح من النادر جدا أن تدخل مسألة من المسائل معابر الادارة العامة و ليس للمترجم عليها وقوف وليس له فى تسييرها أثر ، وعلى هذا قضى الطور الاهم من حياته الادارية .

وعلى هذه المكانة وجده الوزير بلان لما أسندت اليه الكتابة العامة للأمور الادارية عند خروج الوزير روا منها الى الكتابة العامة للامور العدلية فاعتمد عليه اعتماد سابقه أو يزيد ورشحه لوسام الشرف الفرنسى عند زيارة رئيس الجمهورية فليار سنة 1329 .

وقد أمل الوزير بلان أن يكون تبدل الظروف سامحا بنقل هذا الذكى من ميدان الادارة الى ميدان السياسة وتوجيهه الى الاندماج فى المحافل العليا بتبوؤ منصب يسمح له بربط الصلات بين القصر الملكى والسفارة الفرنسوية العامة بتونس على اثر رغبة المقيم الجديد الوزير ألابتيت فى تأكيد صلة القصر بالسفارة مباشرة على خلاف النحو الذى كانت عليه فى عهد الكاتب العام

روا من جريان جميع العلائق على طريق الوزارة الكبرى والكتابة العامة . و كان أقرب المناصب الى تحقيق هـذا الغرض هو منصب مدير التشريفات الذى يرجع اليـه القيام على تهيئة المقابلات الملكية السفيرية و تقع عليه عهدة الترجمة فى تلك المقابلات الهامة ، ويتولى تنظيم جميع الاقتبالات من طرف الحضرة العلية لغير رعاياهـا ويترجم على لسانها الخطب المهيأة و التصريحات الشفهية و صادفت هذه الرغبة من الكاتب العام ارتياحا من الامير المقدس سيدنا محمد الناصر لما سبق له من مودة المترجم منذ شبابه بجبل المنار ، وما تكون له عنده من المنزلـة بتأليف الرحلة الناصرية . وزاد فى تمهيد الطريـق لدخوله للقصر تقدم طائفة من كبار اقرانه فى الصادقية الى المناصب الكبرى فى المعية الملكية ، وكانوا أيضا مـن اصدقاء الكاتب العام وأعضاده مثل المولى الوزير الاكبر الشرفى سيدى محمد الطيب الجلولى ، و كان يؤمئذ وزير القلم والوزير الاكبر المنعم سيدى مصطفى دنقـزلى ، وهو صهر مترجمنا و كان يومئذ شيخ المدينة . و قـد تهيأ سبب انجاز هذه الولاية رسميا بقرب شاغل المنصب يومئذ أمير الامراء جبرائيل بلنسى من سن التقاعـد ، فأحيل على التقاعد فعلا ، و سمى عوضه مترجمنا مديرا للتشريفات السنية فى شهر رمضان سنة 1332 ، و مـن

هنالك ابتدأ الدور السياسى فى حياته و بلغ قمةوجاهته الرسمية • وازدادت منزلته ظهورا بتلقيبه أمير لـواء سنة 1333 ، ثم أمير امراء • و قد اعتز بذلـك اعتزازا عظيما واعتزم الطريقة الافرنجية فى تسمية نفسـه بعنوان رتبته العسكرية بمرادفهـا الفرنسى مضمومـا للقبه بدون اسم (الجنرال ابن الخوجة) و كتبهـا فى أوراق زيارته واشتهر بها •

وقد باشر هذه المأمورية الدقيقة ، مأمورية مديـر التشريفات ، فى حقبة تضاعفت فيها أهمية ذلك المركز باشتعال نار الحرب الكبرى و ما نشأ عنها من مشاكـل فى السياسة الداخلية و الخارجية كان المترجم مندمجـا فيها خائضا غمارها • و كانت كلمته فى القصر الملكى نافذة الى أقصى حد ومنزلته فى السفارة الفرنسويـة مكينة راسخة • و فى خلال هذه المدة تقلد الشريـط الاكبر من نيشان الافتخار ، و تقلد أوسمة رفيعة مـن أوسمة المستعمرات الفرنسية والدول الاجنبية • و قد تم على يده فى هذه الفترة من حياته أمر عظيم الاهمية فى التاريخ الثقافى و السياسى للاسلام ، هـو تجديـد الصلات بين تونس والمغرب الاقصى •

فقد سافر فى صائفة سنة 1334 سفيرا عن حضرة المقدس

سيدنا محمد الناصر باى تونس الى جلالة المقدس مولاى يوسف سلطان المغرب لعقد أواصر المودة بين الملكين الجليلين وتمتين الصلات بين القطرين ·

فكانت سفارة ناجحة ، و لقى فى أثنائها من الاقبال و تقدير قيمته بين عموم الطبقات العلمية و المخزنية ما نفخ فى بوق سمعته الى آخر حياته ·

وانعقدت بتلك الرحلة علاقة محكمة العرى بينه وبين الماريشال ليوتى ، و كان مقيما عاما و قائدا ساميا للجنود الفرنسية بالمغرب · و فى هذه الرحلة قلد الصنف الاول من الوسام العلوى الشريف ، و ترقى عند رجوعه الى الصنف الثالث من وسام الشرف الفرنسى ·

و كان محاطا فى هذه الرحلة بضروب من الاحترام و العناية الرسمية و الفخامة بتونس و بالجزائر وبالمغرب كانت ذكرياتها من ألذ ما حفظت أحاديثه عن حياته الرسمية · و قد شهدت و أنا صغير موكب اقتباله عند الرجوع من المغرب بقصر المرسى فكان موكبا بهيجا رائعا قل أن شهد هذا العصر مثله

و فى اثناء هذه الرحلة انعقدت صلات المودة بينه و بين صديقه الوزير السيد الحاج عبد القادر بن غبريط ،

وهو يومئذ زميله فى ادارة التشريفات لدى السلطنة المغربية ، و باتفاقهما نشأت فكرة تاسيس جمعية أحباس الحرمين الشريفين • و بقى المترجم من عمدها ، فلم يتخلف عن اجتماع من اجتماعاتها الى آخر اجتماع انعقد لها الى اليوم ، و كان بعاصمة الجزائر سنة 1361 • و قد زاد حضوره هذه الاجتماعات السنوية مع نخبة الاعيان من ابناء الاقطار الافريقية الثلاثة فى انتشار سمعته و ذيوع فضله •

وباثر انتهاء الحرب الكبرى اضطر الى التخلى عن وظيفة مدير تشريفات ففارقها فى جمادى الاولى سنة 1338 ، وسمى عاملا على قابس ـ بانضمام جربة ـ فدخل طورا جديدا فى حياته ثقل عليه فى أول الامر جدا حتى هم بعدم قبول تسميته ، و لكن ذلك لم يمنع أنه وجد متعة فى حياة الآفاق و اتسع فكره الدقيق وذوقه الرقيق لاحتضان نظام خدمة العمال فشملها بأسلوبه الادارى العالى ، ووسع جهاز ادارات الاعمال على منوال الادارات المنظمة بالحاضرة ، و أظهر من ضخامة الرئاسة بين الحاضر و البادى ما زاد فى رفع قدر الذاتية التونسية • و من قابس انتقل الى الكاف سنة 1339 ثم الى بنزرت سنة 1343 • و قد زاد اعتباره وضوحا مدة اقامته فى بنزرت

بتكرر المناسبات التى لم تلك تصلح الا له و لم يك يصلح الا لها من الاقتتبالات العظيمة وزيـارات الاساطيـــل واقتبالات الملوك العظماء ٠ ناهيك بزيارة المولى المقدس محمد الحبيب باشا مدينة بنزرت يبحر منها الى فرنسا فى رحلته الثانية اليها سنة 45 ، و زيارة رئيس الجمهورية قسطون دوميرق سنة 49 ، و زيارة ملك اسبانيا الفونس الثالث عشر سنة 47 التى انقلب منها معجبا بمترجمنـا اعجابا زائدا ، ثم رحلة المولى المقدس أحمد باشا الثانى الى فرنسا سنة 49 الذى قلده فيها الصنف الثانى من وسام الشرف الفرنسى ، و قد كانت هذه المناسبات و غيرهـا مما يقرب منها مناسبات لمعرفة ما للمترجم من المكانـة السامية بسعة معارفه و طرافة حديثه و ذوقه العالى فى نظام التشريفات و مقدرته فى اظهار بذخة المجد ووجاهة الرئاسـة ٠

و قد بقى كامل مدة مباشرته للأعمـال عـلى اتصـال بالقصر الملكى بصفته عاملا لأعلى رتبة فى الحاشية ، فلم يزل دائبا على حضور المواكب الملكية كما بقى على تمام الاتصال بالادارة المركزية العليا ، فلم يزل يستتشـار فى المهمات و يدعى للمشاركة فى اللجان ، كما سمى مندوبا فى الوفد التونسى الذى سافر الى باريس للمشاركة فى

لجنة الاصلاحات التونسية التى عقدها الوزير ايدوار هيريو سنة 43 ، و عضوا فى الوفد الرسمى الذى مثل الحكومة التونسية فى حفلة افتتاح جامع باريس سنة 45 • فلذلك لما اقتضى قانون احالة العمال على التقاعد خروجه من سلك العمال سنة 1353 اعتبرت الدولة ما له من القيمة الفائقة التى لم تشارك فيها فصرحت بالحاجة اليه فى الاستشارات الدولية كما ورد ذلك فى البلاغ الرسمى الذى أعلن فيه باحالته على التقاعد • و سمى لذلك (مستشار الدولة التونسية) وبقى على ذلك عظيم المنزلة مشاركا فى مختلف اللجان الدولية مرجوعا الى رأيه ومعرفته فى العويصات * •

حياته الادبية

ارتمى الى ميدان العمل والانتاج صغيرا فى باكورة شبابه واستمر نشاطه فى ذلك الميدان الى آخر حياته • فكانت حياته الادبية طويلة مباركة خصبة موفورة

(*) المجلة الزيتونية : المجلد الخامس ، الجزء 5 ، نوفمبر 1943 •

النتاج ، وكان اقوى عنصر فى تكوين ذلك التراث الادبى الواسع الذى خلفه وراءه هو عنصر العمل، والعمل سجية راسخة فى المترجم كانت لا تنفك ظاهرة عليه متميزا بها فى مختلف نواحى حياته ٠

ولعل من اقوى مكونات هذه السجية فيه ـ بعد حرارته العصبية الطبيعية ـ ما كان يملأ الوسط الاجتماعى الذى نشأ فيه من حزم واندفاع الى العمل فى عهـد النهضـة الحازمة التى قاد المجتمع التونسى فيها خالد المفاخر الوزير خير الدين ٠ وقد رأينا ان المترجم كان على اتصال قوى بذلك الحافز الاجتماعى الذى يحرك شعوره فى البيت ، وفى الحومة ، وفى المدرسة ٠ ثم ان انتقاله من الوسط المدرسى الى الوسط الاجتماعى العام قد كان مقارنا لصلة جديدة بعنصر قوى من عناصر النهضة والعمـل ، وهـو الرئيس محمد البشير صفر الذى تأكدت علاقة المترجـم به منذ ابتداء عهده بخدمة الادارة ، فكان صديقـا لـه ورئيسا وموجها ومخرجـا ٠

فابتدأ عمله فى الميدان الادبى العـام بالانضمـام الى الهيأة المكونة لاول جريدة عربية حـرة بتـونس وهى جريدة الحاضرة التى ابتدأ صدورها فى ذى القعدة سنة

1305 بادارة الكاتب الشهير اللسن الرحالة المرحوم على بوشوشة .

ومنذ صدور جريدة الحاضرة وتوزع نواحى العمل بين منشئيها بدأ مترجمنا يتوجه الى الاختصاص فى الناحية التى رأينا فى طالعة المقال السابق ما توفر من العوامل على توجهه الى الاختصاص فيها وهى ناحية التاريخ .

فكانت مشاركته فى التحرير اولا قاصرة على ضبط الحوادث المحلية وما يرجع الى الاخبار الدولية مما يستمد فهمه وافهامه من الوضعية التاريخية للبلاد ويكسى صبغته التحريرية من ممارسته النصوص الرسمية وذوق المحافظة على ما يؤلف فيها من التقاليد .

وكان قراء الحاضرة فى ذلك العصر يلاحظون على هذا القلم الشاب المختص بضبط الاخبار المحلية نزعته السريعة الى احياء التاريخ التونسى وتراجم المشاهير من التونسيين بأيسر مناسبة .

ولكن هذا الاختصاص لم يكن حائلا بين المترجم وبين العمل فى ناحية الاصلاح الحاضر على نحو ما كانت تشعر به النخبة المثقفة من اقرانه من وجوب السعى للخروج بالطبقات التونسية العامة من ظلمات الجهل والغفلة حتى

تقوم على استنارة الراى العام بالحقائق وانتباهه الى الدقائق نهضة سياسية متينة الاساس ٠

فاشترك اشتراكا جوهريا فى تكوين الجمعية الخلدونية سنة 1314 بقصد ايصال المعارف العامة بالطرق السهلة الى مدارك المستعدين للمعرفة المتطلعين لها ممن كان يحول دون وصول المعارف العامة اليهم ان وسائل النشر والتدريس فى تلك المواد كانت قاصرة يومئذ على اللغة الفرنسوية ٠ فكان بهذا العمل المجيد وهو تاسيس الخلدونية من المؤسسين للتعليم العصرى فى اللغة العربية بتونس والواضعين لاساس التعليم العربى الحر ٠ وكان البشير صفر روح تلك الحركة وفكرها وكان المترجم من اعظم القوات العاملة فيها ٠ فهو المحرر للقانون الداخلى لعمل الجمعية الخلدونية واستمر عاملا فى مجلسها بجد الى ان فارقها صديقه البشير صفر سنة 1326 ٠

والى جانب العملين الجليلين فى الصحافة وفى الجمعيات فتح المترجم لانتاجه بابا ثالثا كانت منزلته الادبية فيه أرسخ خلودا واعم ذيوعا وهو باب التاليف ٠

فقد فتح هذا الباب لنفسه فى مظهر بسيط حقير ، ثم مضى فيه بعزم ثابت حتى انتهى الى النتائج المعجبة والمنازل السامية ·

وابتدأه بالحافز الذى وجهه الى العمل وهو الشعور الاصلاحى ثم ملك عليه الوجهة فيه دافع البيئة وظروف الحياة وملاءمة الذوق الفردى ، فاتجه شيئا فشيئا الى ناحية التاريخ حتى اشتهر بها ·

كان اول تآليفه صدورا سنة 1315 وآخرها صدورا سنة 1358 · فكان موسم نتاجه الفكرى ثلاثة واربعين عاما يستطيع الناظر فى كتبه ان يتبين ما قطعه خلالها من اطوار الرقى فى التفكير والتحرير · فقد كانت له ميزة عجيبة فى هذا الباب تبرهن عما له من كمال العزم وسمو الادراك، وهى انه دخل ميدان الانتاج ببضاعة من المعارف مزجاة، فكان شغفه بالتحرير وحرصه على الاصلاح ونشر الثقافة يدفعان به الى النشر · ولكن ذلك لم يكن يلهيه ابدا عن وجوب تكميل نفسه وترقية قيمة نتاجه · فكان لذلك لا ينفك منكبا على المطالعة والبحث متوفرا على الناحية الثقافية العامة فى مطالعاته ، فلم يكن يجنح الى الدراسات المتعمقة ولا الى التحارير ذات المناهج الادبية

الصرفة بل كانت وجهته الى الخلاصات العلمية والموسوعات يسد بها عوزه فى التعليم الثنوى والعالى ويخرج منهـا مادة عذبة سائغة لافادة قرائه على نحو ما يكافىء حاجتهم ويلائم اذواقهم من تلك المعارف .

فلذلك كان عارفه يلاحظ عليه انه مع اجادته للغـــة الفرنسوية فهو ضعيف الملكة الادبية فيها غيـــر متعلـــق باطوار الادب وتفاصيل حياة الادباء ومؤثرات آدابهـم

ولكنه الى جانب ذلك يدرك فيه وقوفا شامـــلا عـــلى معلومات دقيقة فى نواحى العلوم من تاريخية وجغرافية واقتصادية وحقوقية وفلكية قلما تتأتى لغير المتبحريـن من اهل الاختصاص ، وما ذلك الا نتيجة المنهج الذى وضعه لنفسه فى المطالعة التثقيفية التى ملأت اطوار حياتـــه فرفعته الى مستوى كبار العلماء على قلة ما تردد عـــلى المدرسة وتلقى من الدروس .

وان تعجب لسرعة هضم الغذاء الفكرى فاعجب للمترجم رحمه الله وعلى مكتبه مختصر فى فن من فنون التاريـخ وامامه ورقة يسود فيها مقالا فى ذلك الفن نفسه يودع فيه من معلوماته ما امدته المطالعة الحديثة لا عن تلخيص ولا عن ترجمة ، ولكنه يملى على المستفيد ما حصله ذهنه

الحاد من المادة العلمية بعد ان صبغها ذوقه وطبعها طبعه فهو كآلة العمل الفلاحى التى تتولى الحصاد والدرس فى آن واحد ٠

ولاشك فى ان كل مرحلة من مراحل مطالعته لا يقف مدى تاثيرها عند النتائج المقارن صدورها لتلك المرحلة بل يبقى اثرها راسخا فى نفسه يؤثر فيما يصدر عنه فى المستقبل من آثار ٠

وبذلك كانت آثاره خاضعة لترقى مطالعاته ونسبتها من تفكيره على نسبة معينة بها يستطيع الناقد ان يضع كل اثر فى منزلة معينة من المنازل الفكرية التى تطور فيها الكاتب ٠

ومن جهة اخرى فان اغراض الكتابة ومقامات النشر قد كان لها تاثير قوى فى اختلاف مظاهر الآثار الكتابية الصادرة عن قلم مترجمنا ٠ فمن البديهى ان يكون الاسلوب الذى وضع عليه اول كتبه نشرا وهو محاورة « الشيخ عمر والحاج فتوح » حول آداب رمضان مغايرا للاسلوب الذى وضعت عليه « الرحلة الناصرية » وان تكون « الرحلة الناصرية » مغايرة اسلوبا بالكتابة « سلوك الابريز

الى مسالك باريز » مع ما بين الكتابين من اتحاد الموضوع تقريبا .

واذا كانت سعة ثقافته كما اسلفنا من اهم المؤثرات فى اختلاف آثاره فقد كانت الرحلات التى اتيحله القيام بها فى حياته من جملة تلك المؤثرات لما للرحلة من الاثر السامى فى توسيع الثقافة .

فقد طال تردده على البلاد الفرنساوية من سنة 1318 ، وعرف منها خصائص مناطقها المختلفة وتملأ من كنوزها الاثرية ومعالمها ، وتعددت رحلاته الى القطرين الشقيقين الجزائر والمغرب الاقصى ، وعرف من ممالك اوروبا سويسرا وبلجيكيا وهولانده .

ثم كانت حياته الادارية والسياسية وما اكتسب فيهما من الخبرة وما شهد من المحاضر مادة قوية ايضا لهذه الثقافة ظهر اثرها فى تحاريره متدرجا بتدرج تلك الاختبارات كما كانت المناسبات التى حملته على اعمال علمية وادبية معينة على تمام نضج ثقافته واطراد رقى كتابته ، وفاتحة لأبواب واسعة من الاعمال الابية من اتصاله برئيسه وصديقه الكاتب العام للحكومة التونسية الوزير برنار روا الذى كان ذا شغف عظيم بالمباحث

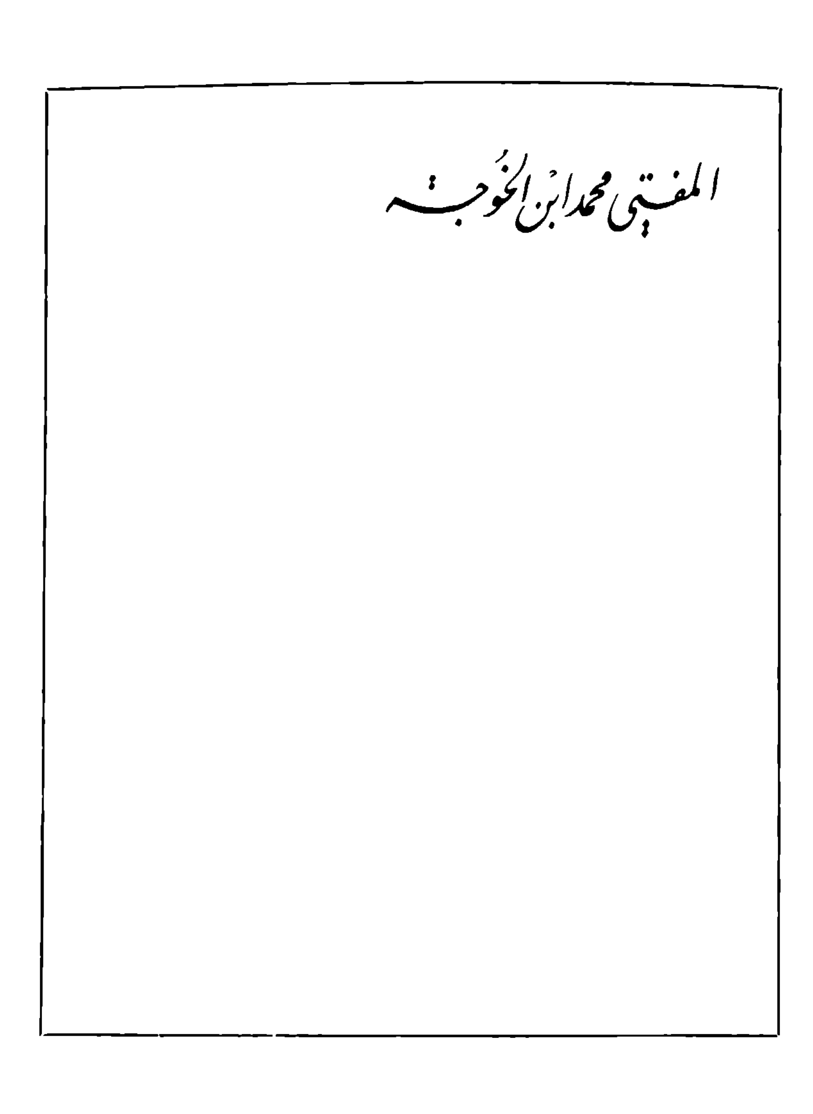
الاثرية والتاريخية ووجد فى المترجم عضدا متينا لانجاز مراحل مهمة من بحوثه وتنقيباته ٠

واشتراكه فى لجنة تاليف الفهرس العلمى لمكتبتى الجامع الاعظم من سنة 1322، واشتراكه فى المؤتمرات والمجامع العلمية كمؤتمر شمالى افريقيا المنعقد بباريز سنة 1326 ، واشتراكه فى مجمع قرطاجنة منذ تاسيسه ، وما اسند له من منصب تدريس الترجمة والتاريخ بالمدرسة العليا للغة والآداب العربية 1329 حيث تخرج عليه كثير من نبغاء رجال الادب والادارة ، لم نزل نسمع منهم الثناء على دروسه والاشادة بحسن اثره فى تكوين ثقافتهم العربية ، وتوليه نظارة المطبعة الرسمية للدولة التونسية من سنة 1319 الى سنة 1332 ، وذلك ما كان له مسهلا ترويج محرراته ومعينا على احياء كثير من الكتب المهمة بعنايته مثل معالم الايمان ، وذيل تاريخ حسين خوجه ، وتاريخ الوزير السراج ٠

نعم ان هذا النشاط العلمى العظيم الذى كان عليه المترجم قد بدأ يعتريه الفتور منذ اسندت اليه ادارة التشريفات ، فكثرت بها شواغله فترك التدريس واقل التحرير حتى انقطع عنه ولكنه لم ينقطع عن المطالعة والمراجعة والتقييد حتى كان اعتزاله حياة الوظيف

العملى سنة 1353 ، فرجع اليه نشاطه العلمى كأكمل ما هو واتخذ من مكتبته الانيقة فى منزله مصرفا لمعظم اوقاته بين المطالعة و التقييد، وتوفر على سبك ما اجتمع لديه من التقاييد فى قالب المقالات و التآليف • فكان الكامل عندى هذا الطور من حياته بفضل ما انتجت الاطوار الماضية من حياته كلها • واهم ذلك مقالاته المتتابعة سنين فى المجلة الزيتونية ثم كتابه الغزير الفائدة الذى ختم به حياتـه الادبية و هو كتاب « معالم التوحيد » • جعله الله له فالا بالختم السعيد ولقاء الجزاء الطيب من فضله الذى ما عليه مزيـــد ** •

(**) المجلة الزيتونية : المجلد 5 ، الجزء 7 ، جوان 1944 •


المفتي محمد ابن الخوجة



المفـــتى محمد ابــن الخوجــة

بكت أوساط العلم ونعت ربــوع الفضــل فى العشر الأوائل من رمضان علما من اعلام الشريعة وركنا راسخا من أركان الأدب والمجد والمدارك والتقوى ، هو العلامة الاستاذ المفتى سليل العلماء الأكارم سيدى محمد ابــن الخوجــة ٠

وهو الشيخ محمد ابن الشيخ المفتى محمد ابــن شيخ الاسلام محمد ابن الشيخ القاضى أحمد بــن الخوجــة ، ينحدر كما رأيت من عرق ثابت فى خدمة الشرع ممتد فى شرف العلم والرئاسة الدينية ٠

فقد كان النجل الوحيد لوالده العلامة الشهير الاديــب الكبير الشيخ محمد ابن الخوجة المتوفى سنة 1325 ٠ وهو من مشاهير العلماء وفحول الشعراء الذيــن قامــت عــلى كواهلهم حياة الأدب فى انتقالها بين القرنين ، كما كان فى ذلك صديقاه ورفيقاه ، الشيــخ محمــد السنــوسى والشيخ محمد جعيط ٠

وبشر هذا العالم الاديب بابنه مترجمنا سنة 1288 من زوجه الشريفة الكريمة ابنة الشيخ محمد الطاهر ابـن الشيخ محمود محسن من بيت الأشراف الهنديين • فكانت نسبة أمه فى آل البيت داعى تمييز وإيثار وتفضيل لـه عند جميع عائلته لما هو معروف من صدق تعلق الخوجيين ـ ولا سيما والده ـ بمحبة الآل •

وكان جد المترجم شيخ الاسلام احمد ابن الخوجه عماد البيت الخوجى بل قطب الحياة العلمية الدينية فى البلاد التونسية قد أقبل على هذا المولود السعيد إقبـالا خاصـا لكونه ابن نجله الأكبر وكونه ابـن السيـدة المحسنيـة الشريفة التى كان يوليها اجلاله وايثاره • فاستـدنى هذا الحفيد واختصه به وقربه حتى ألحقه بابنائه وكان يلقبه بالشريف • وهو اللقب الذى دام معروفا به فى أوساطه العائلية • واستمر جده شيخ الاسلام أقرب اليه من أبيه، يراعى نشأته ويهذب طلعته ويشرف على تعليمه ويلقنه ما يستطيع ان يلقنه بنفسه من قواعد العلـم ويجاذبـه دقائق من مشكلات الفهم •

فابتدأ تعلمه الاولى عن منهج خاص فى دار جده • وكان معلمه الاول المؤدب الشهير الشيخ بكار بلحسين • وكان قرينا فى هذا الطور من التعلم لصبيان مـن آل البيـت

الخوجى ، منهم ابن عمه وسميه فقيد العلم والسياسة المرحوم امير الامراء محمد ابن الخوجة مستشار الدولة ٠

ثم كان ازدهار المدرسة الصادقية وما لشيخ الاسلام بها من اعتناء داعيا الى ايثارها بمن انتخبه الشيخ لتاديب أبنائه وهو الشيخ بكار بلحسين ٠ فانتقل الشيخ بكار بتلاميذه من دار شيخ الاسلام الى المدرسة الصادقية ، وانقلب البيت الخاص قسما عاما والمؤدب معلما رسميا وتلاميذه طلبة نظاميين فى سلك طلبة الصادقية ٠

وظهرت على المترجم بوادر نجابة فائقة : فأتم المرحلة الابتدائية من تعلمه العربى وحذق اللغة الفرنسوية التى كان يجيدها فهما وانشاء ولا ينقطع عن مطالعة كتبها ٠ ثم انتقل الى مغرس مجده الخوجى فى حلق العلم بجامع الزيتونة الاعظم ، فأقبل للأخذ عن اعلام ذلك الطور مثل الطودين الجليلين شيخ الاسلام سالم بوحاجب والمفتى سيدى عمر ابن الشيخ وكبار العلماء وسيدى محمد النجار وسيدى مصطفى رضوان وشيخ الاسلام محمد بيرم وعمى المترجم المفتيين الشيخ مصطفى والشيخ حسين ٠

وبهذا التحصيل الفائق صح لمترجمنا اجتياز امتحان

التطويع مجليا سنة 1310 ثم شارك فى مناظرة التدريس من الطبقة الثانية ففاز بها من اول مرة سنة1315وأكسبه نجاحه في تلك المناظرة منزلة اعتبار سامية فى الأوساط الزيتونية • فأصبح منظورا اليه بعين امل كبير ، صدقها ما ظهر بين دروسه من الضبط و التحرير و التحقيق، حتى صار من المشار اليهم بين شبيبة العلم فى ذلك العصر • وفى سنة 1322 شارك فى مناظرة التدريس من الطبقـة الاولى ففاز بها عن تفوق لانزاع فيه •

واستمر على ما هو معهود فيه من خدمة العلـم خدمـة تحقيق واتقان الى ان كانت سنة 1326 ، فدعى المترجم الى تقلد خطة نائب ثان عن الدولة لدى النظارة العلمية قرينا فى ذلك للنائب الاول وهو فضيلة الاستاذ الاكبر سيـدى محمد الطاهر ابن عاشور شيخ الجامع الاعظم وفروعه حالا ـ أطال الله مجده وحياته ـ فاشتركا فى أداء الخدمات المهمة للمعهد فى تلك الظروف الحرجة وكانا محل ثقة الطلبة والرأى العام • ودارت على مجهودهما نتائج لجنة إصلاح التعليم التى صدرت عنها القوانين الناصرية فى تنظيم التعليم وضبط اعمال النائبين لدى النظارة العلمية فى شوال سنة 1330 •

وفى تلك السنة انتقل المترجم مع رفيقه فى نيابـة

الدولة الى المجلس المختلط العقارى بصفة حاكم • فكان العمدة فى المشكلات و احتفظ به المجلس المختلط طويلا • فاكتسب ثقة واعتبارا ، وجلب لثقافته الزيتونية تقديرا وإكبارا ، الى ان انتقل من عضوية المجلس المختلط الى عضوية جمعية الاوقاف سنة 1345 فأرجع الى ذلك المجلس ما طال عهده به من النظر الفقهى الصحيح والذب عن الشعائر ومعالجة المشاكل بمالا يمس بهيكل الوقفية الاسلامية ونظامها الشرعى •

وفى صفر سنة 1351 انتخب الفقيد لمسند الافتاء على المذهب الحنفى الزكى • فكان انتخابا صادف المحز ، وانتصب لخدمة النوازل الشرعية بما عهد فيه من النزاهة والدقة • وصدرت عنه الفتاوى بما يقتضى علمه الواسع وفهمه المتين • فى تلك السنة ارتقى اسمى رتبة فى التدريس الزيتونى رتبة استاذ متخصص فى التعليم العالى •

وزاد دار الشريعة انتفاعا بواسع علمه وجليل فضله لما اسندت الى نظره مصلحة الاحتساب على التقاديم بالدائرة الحنفية ، فأدارها بحزم وضبط و براعة و نزاهة ، كانت مثار الاكبار لدى عموم الاوساط القضائية والادارية •

وقد كان طيلة هذا العهد من ولايته التدريس سنة1315 مع ما قام به من المصالح واشترك فيه من جلائل الأعمال معرضا الى تعب وتعطيل بما ينتاب جسمه باطـــراد مـــن العوامل الصحية حتى قوى عليه تيار الانحراف ، فمنـــع المصالح الهامة الموكولة الى فضله من الاستمـــرار عـــلى الانتفاع بمواهبه ، فاعتزل مباشرة الوظيف الشرعى ، وسمى مفتيا شرفيا مع بقائه عــلى منصـــب الاستاذيـــة الرفيع اذ كان حقا لايقبل الانتزاع ، الى ان رجعت روحه الزكية الى ربها راضيـــة مرضيـــة * .

(*) الثريا : السنة الثانية ، عدد 8 ، اوت 1945 .

الشهيران الخفيان

محمد المقداد الورتتاني

والحاج محمد بك الفكيني



محمد المقداد الورتتاني

الشهيــــران الخفيــان :

محمــد المقــداد الورتتــانى
والحاج محمد بـــك الفكينى

للشهرة فى ما لها من الأعاجيــب اتصــال بدائـــرة الخفاء • فكم من شهير فى جوهر حياته ســار اسمــه فى الآفاق ، و علت مكانته بين الرفاق ، فأحسن من مواقــف العمل أو جــود من آثار العلم ما وصل بين اسمــه و بــين الذين لا تربطهم به صلات المعرفة أو القربى فكان بذلك شهيرا ، ثم اتصل به فى ذاته من بساطة المنزلة الاجتماعية أو اقترن بذكره عارض من عوارض الخمول لما تقلــب عليه زمن أو نبا به وطن ، فأصبح و هو الشهير ذكره فى أحد الطرفين يخفى و يجهل فى الطرف الآخــر ، فكانت ذاته فى انتقالها ملتقى للشهرة و الخفاء ، و كان اسمه فى صعوده و نزوله مقياسا لاختــلاف حالين مــن الذكر و الخمول لا تستطيع لاحقتهما أن تطغى على السابقة و لا أن تحول بينها و بين أقلام التاريخ ، و هى المدافع التى ينصب منها سيل الشهرة على بطحاء الخفاء •

ولقد كان من مشاهير التونسيين فى القرن الرابع عشر من تركزت شهرته على مشيخة علمية أو زعامة سياسيــة

أو مكانة فى النفوذ علية ، فاطردتشهرته غير متخلفة ولا مختلة و لامتصلة بعارض الخمول أو الخفاء ٠

ثم كان من مشاهير هذا القــرن آخــرون لم يتمكــن لشهرتهم من التركز و الاطراد ما تمكن لغيرهم ، فعرفت سمعتهم الخمول والأفول حتى كان التاريخ الذى سجـل ازدهارها واشتهارها هو الحامــل لهــا إلى الأوساط التى يعيشون فيها أو يموتون ، كأنما يستحضر من ذلك غريبا أو يستقرب بعيدا ٠

ولقد مضى شهر رجب المنصرم باثنين من المشاهير جلى أحدهما فى ميدان الأدب والعلم ، وساد الآخر فى مواقف الجهاد والعزم ، ثم كان كل منهما غير واضح الشهرة يوم طويت صحيفتاهما ما بين رادس و قابس ٠

كان رجل العلم من هذيــن الشيــخ محمــد المقــداد الورتتانى ، ورجل الجهاد منهما محمد بك فكينى ٠

أما اولهما فهو الشيخ محمد المقداد بن الناصر بن عمار الورتتانى ٠ ولد سنة 1292 فى منازل ورتتان من قبائل الوسط الغربى للمملكة التونسية جنوبى مدينة الكاف ٠ وكان والده شيخ القبيل ومن صميم نسبها وشهير بيوتها٠

ونشأ على تربيـــة دينيـــة قرآنيـــة بدويـــة ، مـــارس الخيل والرماية ، وانقطع إلى معلم صالح يعرف بالشيخ احمد الشعنى ، حفظ بين يديه القرآن العظيم وجوده ، وحفظ متون العلم ، وقرأ مبادىء الفقه والعربية ، ثـــم التحق بجامع الزيتونة الأعظم سنة 1310 وسكن مدرسة بئر الحجار الباشية بنهج الباشا ، وأقبل على الاخذ عـــن أساتذة من أعلام العلماء : الشيخ محمد ابن محمـــود ، والشيخ الصادق ابن القاضى ، والشيخ مصطفى رضوان والشيخ محمد النخلى ، والشيخ صالح الشريف ، والشيخ المكى بن عزوز ، ثم شيخ الاسلام سالم بو حاجب ، فكان بارزا بذكائه وجده واستقامته • وفى سنة 1316 تقـــدم للامتحان فأحرز على شهادة التطويع وانتخب للتدريس مستمرا على مزاولة دروس الرتبة العليا ، وكـــان مـــن الرعيل الاول من تلاميذ الخلدونية بحدثان انشائها سنة 1314 • وتأكد اهتمامه فيها بعلم التاريخ ، فكان المجلى فيه من بين تلامذة الأستاذ الرئيس محمد البشير صفـــر والفائز بمزيد عنايتـــه •

وكان من السنة التى جرى عليها ذلك الرجل العظيم أن يخص خريجى الخلدونية بالانتخاب لوظائف جمعيـــة الأوقاف ، فكان المترجم أحق الناس منه بهذه الحظوة ،

فدخل فى خدمة جمعية الاوقاف وانقطع بذلك عن الوسط الجامعى وإن لم ينقطع عن خدمة العلم . فبدأ يعمل فى ظل أستاذه البشير صفر الذى كان أكثر الناس قياما ببره ، وأشدهم وفاء لذكره .

وكان الرئيس يدرك أن من أهم الواجبات الملقاة على عاتق ادارة الاوقاف القيام بحفظ ما يتصل بالاوقاف من الآثار الاسلامية وإبرازها . وكانت مدينة القيروان تجلب منه اهتماما خاصا بهذه الجهة ، فكان يتطلع الى ذى ثقافة متينة واستعداد تاريخى أثرى من أبناء الخلدونية يضطلع بالعمل الهام الذى كان يحرص على إبرازه ، فلم يكن عنده أولى من المترجم بذلك فسماه نائبا للأوقاف بمدينة القيروان سنة 1319 . وهنالك برزت فى المترجم أعظم خصائصه حين شمر عن ساعد الجد فى تنظيم الآثار والاوراق التى اشتملت عليها بقايا المعاهدالدينية بالقيروان ، و لاسيما بالجامع الاعظم ، جامع عقبة . وانكب على خدمة تلك الآثار خدمة علمية ولدت من معلوماته النظرية ملكات علمية تطبيقية عجيبة فى قراءة الخطوط و كتابتها ، وادراك أسرار الفنون و ارجاعها الى عصورها ، ودقة التصوير الفتغرافى للخطوط

والنقوش ، حتى أصبح المشار اليه بالبنـان فى آثـار القيروان ، وأجدر تونسى بوصف الاثرى على الحقيقة •

و إن كل ما وقع إبرازه و عرضه و ترتيبه من آثـار القيروان ما عرف الناس و مالم يعرفوا ، و كل مـا تـم تسجيله وتصويره لما كان مادة للباحثين طيلة أربعيـن عاما من مسلمين ومستشرقين لم يكن يحصل شيء منـه لولا البحوث العلمية و الاعمال الحازمة التى قام بهـا هذا المترجم المغموط الفضل •

و لقد كان الى جنب عمله الاثرى يشترك فى كل ناحية من نواحى الانتاج الادبى علما و عملا بنشر التحارير الراقية الرائقة بالصحف التونسية ، واشترك فى أعمال الجمعيات ذات الأغراض العلمية والاجتماعية ، و عمـل فى إنشاء مستشفى ابن الجزار بالقيروان ، كما صـاغ القصائد العصماء فى الأغراض المبتكرة المتصلة بالمعانى العلمية الرفيعة ، بحيث كان له الأثر الواضح فى بعث معالم الحضارة الاسلامية وتخليدها ، والاشادة بمفاخرها بما كان الناس عنه يومئذ بمعزل •

و لقد أضاف الى هذه الميزات العجيبة خصوصية أخرى أكمل بها سلسلة المجيدين لها محررى الرحـلات الذيـن

اعتز بهم تاريخ الأدب العربى فى المغرب · ففى سنة 1330 قام برحلة إلى فرنسا وسويسرا سجلها فى مجلـــد نفيس سماه «البرنس فى باريس»، كان فيه أظهر الكاتبين على الحضارة الاروبية مقدرة فىوصفها ، والتمعن فى ادراك حقائقهـا والاحاطــة بأسرارها الفكرية والفنيـــة والاجتماعية مع حسن المقارنة بينها وبـين الحضــارة الاسلامية وبخاصة حضارة القيروان ، بحيث انها تعتبر رحلة تجدر بمطالعات المثقفين وملاحظاتهم فى مادتها وروحهـا · ولولا ما عاب حسنها مــن كثـرة الاستطراد لكانت مثالا كاملا لما يكتب ذو ثقافة عربية عــن حضارة الغــرب ·

وتكررت بعد ذلك رحلاته الى اروبا وقيامه بأعمـال فى الناحية العامة منها سعيه سنة 1347 فى تأسيس نـاد اسلامى فى فيشى ·

ولقد تمكن فى ما عهد به اليه بعد من مأمورية تحرير الرحلات الملكية من افراغ كثير من آثار مداركه السامية ومعلوماته الراقية فى نواحى التاريخ التونسى ومقارنة الحضارة الغربية والعربية · وبهذه الخدمات توطـدت صلاته مع الأوساط الثقافية فى العالم ، فاشتهرت كتبه وانعقدت معرفته برجال البحث من الشرق والغــرب

واشترك فى المؤتمرات العلمية التى آخرها مؤتمر الثقافة الاسلامية الذى انعقد فى سنة 1368/1949 بتونس ٠

وفارق نيابة الاوقاف بالقيروان سنة 1333 فانتصب رئيس دائرة بالادارة المركزية لجمعية الاوقـاف ، ثـم انتخبه الصدر مصطفى دنقزلى ملحقا بالوزارة الكبرى ، واشتد اختصاصه ٠ ولقد كان لـه مـن قبـل أستـاذا بالخلدونية فاستمر على ذلك مع الصدرين خليل بوحاجب والهادى الاخوة ، و كان له فيهما المدائـح الرنانـة ٠ و بتلك الصفة كان كاتب مجلس اصلاح التعليم الزيتونى ومحرر نص الامر العلى الصادر فى ذى الحجة سنة 1350 الجارى به العمل الى الآن فى نظام الجامعة الزيتونية ٠

و لما أحيل على التقاعد سنـة 1359 تفـرغ للبحـث والتنقيب بين كتبه القيمة الكثيرة التى كونها بجهوده وتضحياته ، ولخدمة المكتبة الصادقية التى كان عضـوا بلجنة تنظيمها و كاتبا لها الى أن عاد سنة 1366 الى عشه الذى منه درج ، الجامعة الزيتونية ، فجدد حياته التعليمية بنشاط فى الروح يغالبه هرم البدن حتى استأثرت بـه رحمة الله فى رجب 1369 ــ أفريل 1950 ٠

أما ثانى الشخصيتين المترجم لهما من أهـل الشهـرة

والخفاء ، فهى شخصية المجاهد الحاج محمد بك الفكينى الطرابلسى القابسى مهجرا وقرارا ومدفنا ٠

فقد كان من أعيان مدينة طرابلس الغرب وكبـــــار موظفيها فى العهد العثمانى ووجوه مجاهديها فى عهـد المحنة ، قضى عمرا حافلا بالعمل الصالح ينيـف عـلى المائـة سنـة ٠

فقد ولد سنة 1268 وتقلب فى المراكز الادارية الى رتبة القائمقام ، ونال الرتب العالية والاوسمة الرفيعة ٠

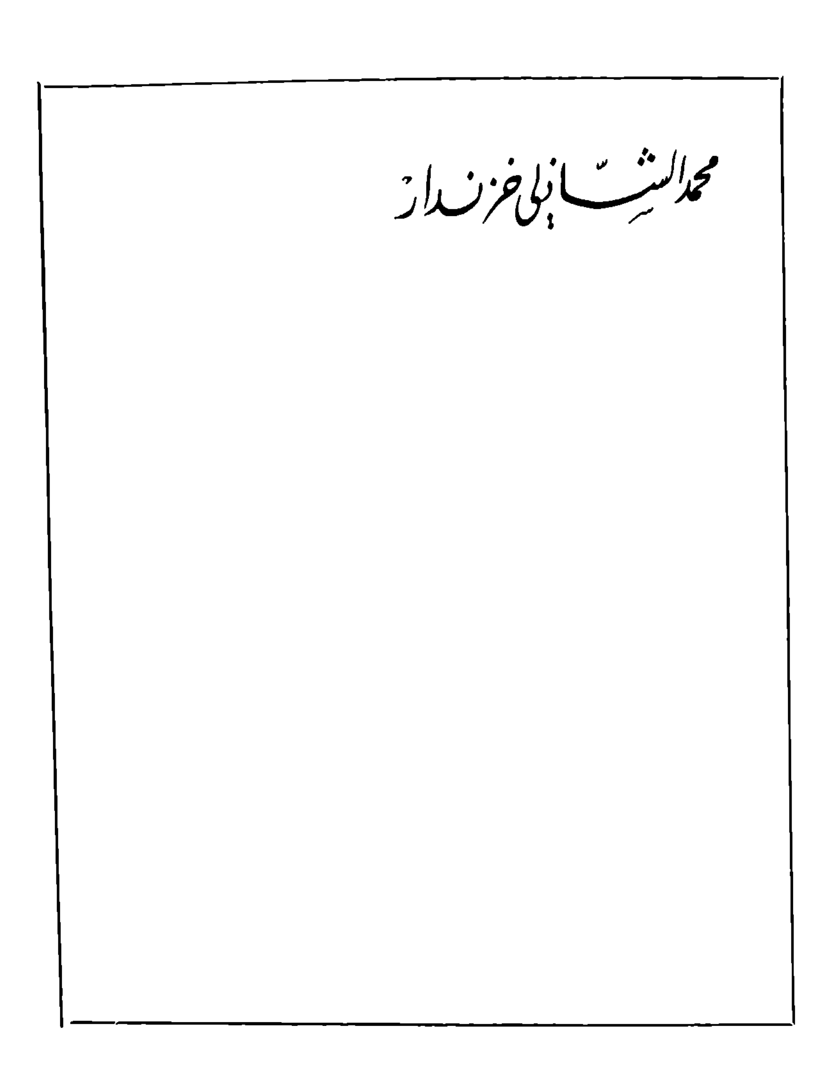
ولما نزلت الغارة الايطالية عـلى ليبيـا سنـة 1329 وانبعثت الحمية الاسلامية للجهاد التطوعى تحت رايـة الخلافة العثمانية ، كان من بارزى قادة المناطق الغربية فى الجمع و التجهيز وحسن البلاء فى المعارك التى دارت رحاها بمنطقة طرابلس ٠

ولما وقفت المقاومة العثمانية واضطرت دولة الخلافـة الى السلم بسبب حرب البلقان ، وانقلبت حركة المقاومة بليبيا حركة حرة جهادية اسلامية بقيادة زعيم المجاهدين الصالحين المقدس سيدى أحمد الشريف السنوسى كـان المترجم من أول ذوى المناصـب الرسميـة انضمامـا الى

الطاعة السنوسية بسبب ما كان له من صلة المريدية مع شيخ السنوسية السابق المرشد العظيم سيدى محمد المهدى ابن محمد بن على السنوسى . فكان عمدة حركة المهاجمة التى تجرى فى حصر القوات الايطالية بالسواحل الغربية سنة 1333 . و كان مشتركا فى ذلك العمل مع نخبة المسيرين للجهاد فى المناطق الغربية ، وهم نورى باشا ، والشيخ سليمان البارونى ، والقائد سوف ابن القائد غومة المحمودى ، وعبد الرحمان عزام باشا أمين جامعة الدول العربية اليوم .

و عند انعقاد مؤتمر غريان سنة 1339 كان أحد العاملين على تمتين وحدة ليبيا تحت السيادة السنوسية . و لما فشلت المذاكرات التى قرر اجراءها المؤتمر و تجددت حالة الحرب بين الايطاليين والوطنيين ، تقلد القيادة العامة بالمنطقة الغربية و نشبت بينه و بين العدو معارك هائلة كان قائد الطرف الايطالى فيها الجنرال غرازيانى . واستشهد فى تلك المعارك اثنان من أبناء المترجم كانا من مفاخر الشباب الليبى . واضطر الى التوغل فى الجنوب الغربى ، فكانت مناطق مقاومته بين غدامس وسيناون ، ثم وصل واحات فزان سنة 1343 و اتصل بممثلى المركزية السنوسية الشهيد عمر المختار والأمير

البطل أحمد بن سيف النصر وغيرهم،فاستمر على القتال وزحف على المراكز الايطالية حتى قوى ضغطـه عليها • فدخلت معه فى مذاكرات لم تنجح سنة 1346 ، استأنف بعدها القتال على تناقص في العدد والعدة الى سنة 1347 ، حيث اضطر الى الانجلاء الى واحة غات ، ثم الدخول فى كرامة الى البلاد التونسية التى احتضنته و احتضنت بنيه الأمجاد حتى مات كريما راضيا مرضيا قرير العين بأبنائه وقيام العرش السنوسى وجلاء الاعداء عن وطنه حـتى سما الى جوار ربه ودفن بالتربة الصحابية من مدينـــة قابس • لقاه الله جزاء جهاده ، و بارك فى آله و أولاده•


محمد الشاذلي خزندار

محمد الشـاذلى خـزندار

كان ذا شخصية غريبة سامية ، ربطتنى به صلات وثيقة من العلاقة الموروثة ،وتناسب الادب ، واطراد المقابلة ، وعظيم اعجابى به ، وكريم تواضعه لى • وعلى ما يفصل بينى وبينه : من فواصل السن ، وتباعد الوجهة ، فقد اصبح لى صديقا حميما ، تمكنت ، بما بينى وبينه من صفاء المودة ، ان أستجلى روحه ، وأنفذ الى منبع الاحساس من نفسه ، وفيض العبقرية من خاطره • وان أسايره فى تفكيره ، وتقديره ، وحكمه ، فأتعرف الى العوامل والمؤثرات ، التى طبعت ادبه بالطابع الذى برز به •

كان محمد الشاذلى خزندار ، ابنا لامير الامراء محمد المنجى ، الولد الثانى للوزير مصطفى خزندار ، الذى بقيت حظوظ البلاد التونسية فى تصرفه المطلق مدة خمسة وثلاثين عاما ، انتهت بسقوطه ونكبته ومصادرة ثروته سنة 1290 ـ 1872 • وكان محمد المنجى بعيدا عن

مظان التهم ، ومواقف الشبه ، التي حفت بعهد حكم والده الوزير خزندار ، بخلاف اخيه الاكبر ، امير الامراء محمد ، الذي كان يحمل ، في نظر الناس ، القسط الاوفر من المسؤوليات التي اخذ بها والدهما الوزير .

وبتلك الصفة التي امتاز بها دون اخيه الاكبر ، استطاع محمد المنجي ان يحتمل الاعباء الثقيلة ، في الكارثة التي نزلت بوالده في اخريات حياته ، فكان النائب عنه في مفاوضة الدولة لامضاء صلح ، ابقى على شيء من الثروة الهائلة التي كان ينعم بها . ثم استطاع ان يبقى هو محل الاتصال بامراء العائلة المالكة ، التي كان ابناء خزندار مواليها ، واقاربها ، واصهارها من جهات عدة .

وبعد وفاة والده سنة 1297 ـ 1879 بقي عضدا متينا لوالدته ، الاميرة كلثوم ، ابنة مصطفى باشا ، في تسيير القصر على ما تقتضيه عوائده لا على ما تسمح به موارده .

في ذلك القصر العظيم ، الذي تقوم اليوم بقية من سقيفته الخارجية في مقابلة المعهد الداخلي للمدرسة الصادقية عند موقف الترام بين باردو ومنوبة في المحطة المعروفة باسم « خزندار » ، ولد امير الشعراء ، محمد

الشاذلي ، سنة 1297 وحمل بتسميته شعارا على ما كان يسود البيت من عقيدة ، وتعلق بالاولياء ، وانتساب الى الطرق الصوفية ، وخاصة الى الطريقة الشاذلية. وفتح عينيه في تلك البيئة ، المكونة بالمهابة والحرمة والسائرة على التقاليد الموروثة ، المستندة الى الدين ، والمروءة ، والادب ، والاحتشام .

فكان كل ما في بيئته الخاصة « معنويا مجردا » ليس له مظهر ماثل في الوجود الحسي ، الثروة .. والوزارة .. والمكانة .. والنفوذ .. كلها اشياء تروج اسماؤها وتتردد ذكرياتها ، وتقوم معالمها ، ولكن ذواتها الحقيقية لا توجد في المحيط الخارجي وان كانت التقاليد والآداب تقضي بان نعتبرها موجودة ، كأننا نراها ونلمسها .

ـ والملك وآل بيته ... ؟

ـ هو منا ونحن منه .

ـ ولكن ما بالنا لا نراه ولا يرانا ؟

ـ نحن مع ذلك اقرب الناس اليه !

وكذلك اصبحت الحقائق كلها توجد باعتبار المعنى والتخيل ، وان فقدت في الحس والواقع ، فهناك احتياج يقال له « استغناء » ، وخمول يسمى «وجاهة» ، ودهر ينزل باسرة ولكنها تأبى ان تعترف له بالنزول .

ومن كل ذلك تطبع أبناء القصر بطبع خيالى ؛ فأصبح الواحد منهم يعتبر الاشياء على نحو ما يريد هو ان يتصور لا على نحو ما هى عليه فى نفس الامر ، فيعتبر نفســه هى مظهر الحقائق ، وهى مقياس المظاهر الوجودية .

وعلى هذا المذهب « العندى » تكونت نفسية شاعرنا . فاصبح منذ صباه يشعر بان الوجود هو ما انطوت عليه نفســـــه ، وبان عامل ابراز الاشياء كلها هو « خيالــه » وبدأ التوجيه التربوى البيتى ، يكون فيه ذوق «السلوك الرقيق » وملكة التعبير المنقح فالجلسة لهــا كيفيــات باختلاف اعتبارات المجالسين ، ولفظ التحية والمجاملــة قد يحسن وقد يقبح ، والكلام قد يكون صحيحا صوابا ، ولكن اسلوب التعبير عنه يفسده . والذى يقول لجدتــه «الاميرة» انه «حفيدها» يكون قد اساء اســاءة كبــرى لانه قد كان ينبغى له ان يقول انه « ولدها » والمعــنى الكريه ، والفعل القبيــح ، لا ينبغى ان يذكــر ولــو فى معرض النفى ، او الاضافة الى « الا بعد » .

وبهذا التوجيه ، تكونت لمترجمنا شخصية ثانية ، مــن نفسه ، تراقب اعماله واقواله ، بمقتضى قانون «الرقة» و « اللياقة » حتى نمت فى نفسه الملكة البلاغية ، التى تكيف صيغ الكلام بحسب « الاعتبارات المناسبة »

وباجتماع هذه العوامل التكوينية ، نشأ صاحبنا ، قوى الخيال مشحوذ الملكة البلاغية • فكان شاعرا بالسليقة ، وبدأ استعداده ينمو ، واخذت مواهبه تتفتق ، لما بدأت مظاهر الحياة الادبية المحيطة بطفولته تستهويه وهو فى دور الحضانة ، قبل ان يهيء له دور التعلم مسالك البروز على النحو الذى هو ميسر له ، فلقد كان كثيرا ما يحدثنا عن غرفة كبيرة ، مشرقة الضياء ، تشرف نوافذها الواسعة على أشجار السرو والبرتقال ؛ وقد جلس هو ووالدته ، وامامهما زنجية عجوز ، من قدامى الخادمات وقد اخذت والدته تقرأ قصصا من سيرة « راس الغول » والعجوز تقوم امامها بحركات عصبية ، تبرز فيها الصور التى تنفعل بها مما يمر فى جمل القصة التى تتلى عليها • فكان يجد من ذلك تاثرا عظيما بالمعانى والصور ، حتى يشعر بان القصة حقيقة واقعية ، تجرى احداثها داخل البيت الذى كانت تقرأ فيه •

وكان لوالدته تأثير على نفسه ، بعيد المدى ؛ فقد كانت تتلو القرآن العظيم • وتقرأ وتطالع وتحفظ الاشعار : وذلك من اغرب النوادر ، فى النساء ، يومئذ • فكان لامتزاج الصور الادبية بطلعة والدته ، فى ريعان شبابها وعذوبة صوتها ، تأثير قوى على توجيهه نحو الشعور بروعة الادب •

وفقد والدته ، وهى فى سن الصبا . فكان حنينه اليها زائدا فى ايغال صورتها فى قرارة نفسه ، يستلهم منها محركات شاعريته ، وابتدأ التعلم الاولى بعزم ثابت على ان يبلغ من العلم المبلغ الذى لم يكن امثاله من اهـــــل بيته يعتزمون بلوغه وذلك بما كان يستهويه من جمال اللغة الفصحى ومتعة آدابها ، وما كان يدفع به فى طريق الكمال النفسى من ارشاد والده وحسن اقناعه بان كل شرف غير شرف العلم عرض زائل وان كل ما يعيش هو فى آثاره من المكانة والثروة قد كفت لحظة غضب لان ياتى الزمان عليه كله ولكن الشرف الذى يتصل بـذات الشخص ولا ينزع هو شرف العلم • وكان يضرب لــــه الامثال بكثير من الرجال البارزين يومئذ الذين بقوا على ما كانوا عليه من حظوة فى الدور الماضى او زادوابسبب ان لهم قيما ذاتية لاتزول •

وابتدأ حسن الاصغاء الى نصائح والده يرفع منزلته عنده ، ويعقد بينهما صلة زائدة وصحبة كريمة،ثم ابتدأ يلتفت بنباهته الفطرية الى المحيط السياسى فادرك ان نظام الحكم الاستعمارى هو الذى كان له الأثر الاقوى فى النزول بكل ذى منزلة عن منزلته وتحويل كل حالــة الى الاسوإ وربط ذلك بالوضع الأليـــم الذى كان يجد عليــه

محيطه العائلى ، فأصبح ناقما على الاستعمار الفرنسى نقمة حقد ، وثائرا عليه ثورة نفسية جامحة ، كما كان اكثر اهل البصيرة من المتصلين ببيئته العائلية .

وبذلك تكونت له فكرة سياسية منفعلة انفعالا قويا جدا بعاطفته الذاتية واحساسه ، وتلاقت فكرته مع الفكرة الشعبية التى كانت تملأ نفوس عامة التونسيين حقدا وغيظا ونقمة على الحكم الفرنسى ، واستحكمت من ذلك صلة قوية بين نفسيته المتكونة فى العزلة وبين النفسية الشعبية المتكونة من الاختلاط وممارسة الحوادث، فكان ذلك اول عامل فى مزج روحه الشعرية بالاحساس الشعبى والفكر العام .

وفى تلك الحقبة من حياته كانت ادوار سياسية ذات أهمية تجرى فى سرية داخل القصر الملكى بسعى الأمير مصطفى باى الابن الاكبر لملك ذلك العصر على باشا الحسينى الثالث ، ثم بسعى الابن الثانى الامير محمد الهادى الذى آل أمره فيما بعد الى ولاية الملك ، وكانت تلك الادوار مصطبغة بصبغة العداء لنظام الاحتلال والسعى فى استعادة نفوذ العرش التونسى ، وكان لوالد مترجمنا ضلع قوى فى تلك الحركات .

وبموقع سترجمنا بين هذا الشعور الكمين الذى كان يملأ الوسط المترفع ، والشعور الطاغى الذى كان يشيع فى الوسط الشعبى ، صارت روح النقمة على وضع الحكم القائم يومئذ مسيطرة على نفسه سيطرة مطلقة • فاخذ يشعر بأن ذاته قد صارت محور تلك الروح الناقمة حيث اختصت فى كل من الوسطين المتباعدين بعنصر من السخط مستمد من حياة الوسط الآخر • ومن ولوعه بحفظ القرآن العظيم والقطع الادبية بدأ يسبح بخياله فى تصور المعانى ، ويهيم بروعة التصوير والتعبير على نسبة ما تبلغ اليه مداركه ، وعلى حسب ما يريد هو أن يفهم من ذلك حتى تكون لادراكه الباطنى مجال من الصور الجميلة والاساليب البديعة اصبح له عالما خاصا يحيا فيه بخياله ويسقيه بمطالعاته ، ويقتطف من أزهاره ما يأتى به فى محاولاته الاولى لانشاء قطع من الشعر كان يصوغها فى قالب « الشعر الملحون » ، ويتناول بها الاغراض البسيطة التى تعن له فى حياته اليومية •

ولوحظ نجاحه فى التعلم فكان ثناء معلمه واهله عليه، وتفضيلهم اياه على اقرانه من اخوته وبنى عمومته مشجعا له على التوغل فى حفظ الشعر والمطالعة ، ومغريا

له بالاسترسال على محاولة قرض الشعر لاحساسه من ذلك بان وصفه بين اهله بـ « الشاعر » او « الاديب » او « الطالب » يمكنه من منزلة الكرامة الفائقة التى كان يطمح اليها و يسليه عن منازل أخرى ربما كان بعده عنها من دواعى آلمه واسباب كآبته .

كما انه كان يجد فى ذلك العالم الذى فتح له بموهبته الادبية ما يلهيه و يسليه عن مطالب المتعة والرفعة فى العالم المادى فبدأ ينصرف عنها و يعرض عن طرائقها حتى اكتسى شبابه بصبغة من الرشد والجدية قربت من النزعة الصوفية .

وأكمل استعداده بالدراسة والمطالعة ، وشحذ موهبته الادبية بالرواية وقرض الشعر ، وتعلم العروض فاتجه الى الدراسة العلمية ورغب فى دخول جامع الزيتونة الأعظم ولم يكن من المعهود يومئذ لأبناء طبقته أن ينخرطوا فى سلك « الطلبة » . وسمح له بالدخول الى الجامع سنة 1310 فكان له من آثار التوجيه الحاصل من بيئته العائلية ما حمله على سلوك مسلك فى الدراسة لا يتجه الى الطرائق المعهودة فى الجمع بين الفنون ، والتدرج فيها على ما تقتضيه نظم الامتحانات التى تختم بها الدراسة ، لأن من المقرر فى نفسه ان الامتحانات والشهادات ليست

غايته، وأن ما وراء الامتحانات من المناصب أمر «لا يناسبه» فاتخذ ميله الأدبى قائدا لخطته فى الدراسة ، وتنقل بين حلق الجامع يتبع ما يحلو له من مادة الدرس ، وطريقــة الأستاذ ، وشاقته الدروس التى تشيع فيها المحاورات الأدبية وتعمرها النكت الرقيقة ، والاذواق السليمة العاليــة ، وأن لم تكن بحسب مادتها ودرجتها فى متناوله ، مثــل دروس الاستاذ الاكبر الشيخ سالم بوحاجب، فكان يتهالك عليها بشغف عجيب . وبذلك اتسع افق الحياة الادبيــة لديه وتمكن من وسائل إنشاء الشعر الجيد عــلى النحـو الذى كان يطمح اليه ، بما استهواه من مثل الجمال الادبى التى اصبحت قوام حياته من طفولته الى أن اكتمل شبابه .

واقترن هذا الطور من حياته بدخول والده فى طور جديد آخرجه من زاوية العزلة ، ووصل بينه ــ ومترجمنا من ورائه ــ وبين الحياة العملية فى أوجهــا السيــاسى العالى .

ففى سنة 1320 تولى الملك محمد الهادى باى الحسيــنى عرش تونس ، واتصل السيد محمد المنجى خزندار به أوثق اتصال ، وبدأ يعمل معه على تحقيق ما كان يعتزمه من المحاولات للحد من سياسة الاستعمار الفرنسى، وتجديد عظمة العرش التونسى وسطوته . فكان ابنه ــ مترجمنا ــ باعتبار ما له من نباهة واطلاع ، ومقدرة ادبية ، واتصال

بالمحيط الشعبى عمدة لوالده فى التفكير والسلوك والتدبير ، والوصل بين تلك المساعى الفردية، وبين الروح التى كانت تشيع خافتة فى الاوساط الشعبية ، وخاصة فى الوسط الزيتونى ، وهى روح النقمة على الاستعمار ومحاولة انشاء عمل وطنى موجه الى مناهضة نفوذ الاحتلال ، وبهذا أصبح لمترجمنا « موقف سياسى » ٠

الا ان الطبع الادبى الذى كان اساس تكوينه الشخصى جعل وجهته السياسية مولية شطر الناحية العاطفية ، وسائرة بخطى الانفعال النفسى ، والثورة الباطنية ، فتمكن بذلك من أن يتخذ لروح الثورة السياسية أدبا مبتكرا ولده من احساسه الذاتى واختصره من انفعالاته النفسية ٠ وقدر للمساعى التى كان يقوم بها والده مع الملك محمد الهادى الفشل ، فتمخضت مواقف مترجمنا السياسية الى الحس الباطنى ، وتجردت عن كل عمل فى الحس الخارجى فزادت تعمقا فى الحياة المثالية الشعرية ، وربطت حياته بالعزلة والانكماش عهدا طويلا انتهى به الى تحرك داعية من دواعى المحاسبة النفسية تؤنبه على إخلاده الى العزلة، وترده الى طريق الحياة العملية وكان ذلك الحديث النفسى الذى كان يجول فى خاطره هو الذى ضمنه أول مقالة نشرت له فى مجلة « السعادة العظمى » سنة 1322 بعنوان « الاجتماع خير او العزلة »

وبدأ يتصل بالحياة العامة فى الصحـف والنـــوادى السياسية ويجعل من شعره مجلى لعاطفته المتاججة ثـــورة عن طغيان الحكم الأجنبى ، حتى اصبح شاعر الحماســة ، ولسان الثورة السياسية الجامحة ، وسارت مقاطيع شعره رنانة قوية الصدى فى ضجيج الحركة القومية سنة 1328 حتى اصبح يفخر فى شعره ببليغ منال قصائده من العدو الغاشم ، فيقول بمناسبة نفى الزعماء فى حركة مقاطعة الترام سنة 1330 :

ما كان فى كفى الحســام وانمـــا
مـــن تحت فكى حيـــة رقطـــــاء
ارسلتهـــا حصبا عــــلى مغتالهـــم
فتريــــه ماذا يفعــــل الشعــــراء
سأهز • من قومى الذيـــن بلوتهـــم
مـــا ترتضيــــه الهمـــة القعســـاء
عربيـــة الاحســـاس فى نخوتهـــا
للـــه تلـــك النخـــوة العربـــاء

ولما انشىء الحزب الحر الدستورى سنة 1337 كـــان مترجمنا من عمد تأسيسه وكان من صلاتــه الشخصيــة الوثيقة بزعيم الحركة الشيخ عبد العزيز الثعالبى، وشدة تأثره بمحبته ، والاعجاب بفكره وبيانه ما وقف شعره على

حياة الحزب ، وعظمة زعيمه ، فارتبطت محركات شعره بالأحداث الوطنية ذات الصدى البعيد ، ورتلت ألسنة الوطنيين قصائده وأناشيده ، وتهافتت الصحف الدستورية على نشر شعره والتنويه به وإشاعة سمعته ، فعظم مقامه الشعرى عند الخاصة والعامة • وكانت صلاته بالملك محمد الناصر ومنزلته الرسمية فى معيته ، حيث اتخذه ضابطا عسكريا من «معينيه» أقوى ما اعتمد عليه الحزب فى ربط حركته بالملك والقصر وأعضاء الاسرة المالكة ربطا نشأت عنه حادثة ــ 5 أفريل 1340 ــ 1922 وترتب على ذلك أن عزل المترجم عن وظيفه فى الحاشية الملكية، وسجن بقصر باردو فأحس بان اضافته الى قائمة « الجناة » قد أبرزت للحس حقيقته العاطفية ، بعد ان كانت الفوارق الاجتماعية تغطى عليها ، وزاد هذا الاضطهاد فى رفعه مقامه ، فسمته الصحف «امير الشعراء» تشبيها لموقفه بين الملك والحزب بموقف شوقى بين الخديوى عباس والحزب الوطنى •

وبذلك اكتملت شخصيته الشعرية الخالدة واستقرت منزلته فى الاوج من تاريخ الحياة الادبية بتونس •

وفى هذا الطور بين سنة 1340 وسنة 1345 كانت وفرة نتاجه الشعرى ومبلغ فنه البيانى اسمى مابلغه فصدرت قصائده الخالدة تقوم على وحدة الغرض ، وتسلسل

العناصر ، وطول النفس ، وتلاقى الفقر ، وحسن الزينة البديعية .

فكانت كالخطب ، لها من الاثر فى السامعين وقت انشائها ما لا يستطيع الناقد ان يكشف عنه الا ان يجدد الظروف التى مكنت لها حسن القبول ، وافاضت عليها من الحرارة ما أذاب أسقام التراكيب ، وزحافات الاوزان ، وابتذال المعانى ، وحشو الالفاظ التى كانت تقع احيانا فى شعره فلا يشعر بها السامعون .

ولما قوى الضغط على الحركة السياسية وانتقلت القيادة عن المنظمة السياسية التى كان ينتسب اليها ضعف مقدار نتاجه الشعرى ، وانفصلت عنه الروح الخطابية التى كانت تمهد له مسالك القبول الشعبى .

فانصرفت اغراض شعره الى الناحية المجردة وتعمقت فى صميم الحكمة الدينية ، واتخذت مادتها من رواسب المكونات الاولى لشخصية امير الشعراء ، وهى مكونات أدخل فى باب الحياة الصوفية ، ولعل الربط بين ترانيم قصيدة البردة النبوية على لسان والدته فى صباه ، ثم انبعاثها فى نفسه ترانيم شعرية ملهمة لذلك التشطير البديع الذى شطر به البردة فى آخر حياته برهان قوى على ما اوضحنا من طفو تلك الرواسب التى كان خوض الشاعر لغمار الحياة الاجتماعية يبعد بها عن ملاحظته *

(*) الفكر : السنة الثالثة ، عدد 6 ، مارس 1958

الفهرست

انتهى طبع هذا الكتاب
بالشركة التونسية لفنون الرسم
في شهر ماي 1970